د. مهدي فضل الله

الإيمان والتكفير والذات والآخر في الإسلام

دراسة في ضوء العقل والشريعة

دار المحجة البيضاء

د. مهدي فضل الله

الإيمان والتكفير والذات والآخر في الإسلام

دراسة في ضوء العقل والشريعة

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

ISBN: 978-614-426-242-9

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٢/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

الإهداء

إلى روح والدي العالم المجاهد[1] الذي لم يمنعه ثوبه الديني من أن يحمل السلاح على الصهاينة الأعداء، في وقت عزَّ فيه النضال، واستكان الثوار، والذي منه تعلمت الفهم الصحيح للدين، بعيداً جداً عن كل تعصب ومغالاة.

وإلى روح شقيقتي التي قضت شهيدة الغدر والعدوان الصهيوني على الجنوب عام ١٩٧٢، بعدما ناءت بحمل الجراح وهي في ربيع الشباب.

وإلى لآلىء الجنوب، وألقه وعطره، أبطال المقاومة الذين أذاقوا براكين العلقم لأبالسة الأرض، وأحالوا حياتهم إلى جلاجل آلام، فتوهجت بهم شمس النهار، وتزينت قمم الجبال، والبطاح، والوديان، وانكشحت أكداس الأوهام، وعرَّس الناس، وما زالوا حبة العقد في مجمع الآمال والأحلام لتحرير ما تبقى من أرض لبنان.

---

(١) أنشأ الحرس الوطني المسلح في بلدته الجنوبية ـ كفركلا ـ عام ١٩٤٨، لمقاومة عصابات الصهاينة اليهود الارهابية، أمثال: الهاغانا، التي كانت تهاجم البلدة في الليالي، لحمل سكانها على النزوح. وعندما احتل الصهاينة البلدة، وطلبوا منه المساعدة على تسليم أسلحة المقاومين، أجابهم بأن الدين يفرض على الإنسان الدفاع عن نفسه ووطنه، غير آبه لتهديدهم باعدام كل حائز للسلاح، وتدمير البلدة.

وإلى علماء الأمة الأعلام الأجلاء، الذين ينبذون كل أشكال التعصب الديني والمذهبي والتكفير، ويدعون إلى الوحدة، والمحبة، والاخاء، والسلام، بين جميع الناس.

مقدمة

ابتلي العرب والمسلمون حديثاً بداء تكفير بعضهم بعضاً. وهذا الابتلاء الخطير لم يعد خافياً على أحد. وهو يذكرنا بما قاله هنري كسينغر مهندس السياسة الخارجية الأمريكية في السبعينيات من القرن الماضي: إذا أردنا أن تعيش إسرائيل بسلام، فإن علينا أن نشجر الخلاف المذهبي الديني والسياسي بين السنة والشيعة، فينصرفوا إلى مقاتلة بعضهم بعضاً على مدى قرن من الزمن.

وقد انغمس في هذا الداء الوبيل، للأسف الشديد، بعض الذين ينتسبون إلى الإسلام وعلمائه من على شاشات المحطات الفضائية، إما جهلاً، وإما تعصباً، وإما لمأرب ما، متناسين أو متجاهلين ما جاء في السنة النبوية الشريفة:

ـ إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين.

ـ صنفان من أمتي لا نصيب لهما في الإسلام: الغلاة والقدرية.

ـ هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون. [أي المغالون، المتشددون في الدين].

ـ من تعصب فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه.

ـ من قال لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما. [أي أنّ من يتّهم مسلماً بالكفر من دون وجه حق، يصبح عند الله كافراً، لأن تهمة الكفر تهمة عظيمة لا يحق لأي إنسان إطلاقها].

ـ لا يكفر أحد إلا بعد جحوده لما أقر به.

ـ كل المسلم على المسلم: حرام دمه وماله وعرضه.

ـ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر.

ـ لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض.

ـ من خرج من أمتي على أمتي، يضرب برها وفاجرها، لا يتحاشى مؤمنها ولا يفي بذي عهدها فليس مني[١].

ـ ثلاث من أصل الإيمان: الكف عمن قال: لا إله إلّا الله، لا نكفره بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بعمل...

ـ إدرءوا الحدود بالشبهات.

ـ ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلّا دخل الجنة.

ـ أمرت أن أقاتل الناس[٢] حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلّا بحقها وحسابهم على الله.

ـ من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، حرم الله عليه النار.

ـ يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، والنسائي في سننه.
(٢) أي أعراب الجاهلية المشركون.

ـ الإيمان بضعة وسبعون شعبة (أو باباً] أعلاها شهادة أن لا إله إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.

ـ إثنان إن صلحا، صلح الناس كلهم، العالم، والحاكم.

ـ وعن الرسول ﷺ قوله لأسامة بن زيد الذي قتل مشركاً في المعركة بعدما قال: لا إله إلّا الله «يا أسامة، أقتلته بعدما قال: لا إله إلّا الله»... «هلا شققت عن قلبه؟». [أي لكي تتأكد من صدقه]. وفي الصحيحين: البخاري ومسلم، بالاسناد إلى المقداد بن عمرو، أنه سأل: «يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار، فاقتتلنا، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة، فقال: أسلمت لله، أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ﷺ: لا تقتله، فإن قتلته، فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال».

ـ وعن الرسول ﷺ: أنه سئل عن امرأة كثيرة الصلاة، والصيام، والزكاة، والصدقات، ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها، فقال: إنّها في النار.

والإمامان: أبو حنيفة النعمان (٨٢، ٨٣ ـ ١٥٠هـ) ومحمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤هـ) لم يكفرا أحداً من أهل القبلة. والإمام مالك بن أنس (٩٤ ـ ١٧٩هـ) كان يرى أن من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً، ويحتمل الإيمان من وجه، حمل على الإيمان. والإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١هـ) لم يكفر إلّا من جحد في الأصل فرائض الإسلام، أما من تركها تهاونا وكسلاً، فإنه في مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه(١).

---

(١) عبد الحليم الجندي، أحمد بن حنبل ـ إمام أهل السنة ـ، ط٢، دار المعارف بمصر، (لا.ت) ص٣٦٥.

وبناء على ذلك، من البدهي أن أكون من الذين ينبذون بقوة هذه الظاهرة الخبيثة المستجدة، البالغة الخطورة على العرب والمسلمين، ويندون بها، وينكرون التفرقة بين المسلمين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم، فضلاً عن التفرقة بينهم وبين إخوانهم في المواطنة من الطوائف غير الإسلامية. وأرى أن الإختلاف السياسي الأول الذي وقع بين العرب المسلمين الأوائل منذ أكثر من ألف وأربعمائة وثلاث وعشرين سنة حول الخلافة لم يكن بين ما يسمى اليوم بين المسلمين السنة والمسلمين الشيعة، لأن المذاهب الفقهية المعروفة لم تكن بعد قد نشأت؛ وقد عفَّ الزمن على هذا الاختلاف الذي أصبح في عهدة الله سبحانه وتعالى. ولا يوجد اليوم ثمة خلافة إسلامية حتى يختلف المسلمون حولها. ولعل هذا بالذات، ما دفع بعض العلماء اللبنانيين المسلمين الشيعة في المنتصف الأول من القرن الماضي، إلى القول:

ـ «السنة والشيعة جدولان من نهر واحد، فرقتهما السياسة فلتجمعهما السياسة»[1].

ـ «ما زلنا نتشاجر حول الخلافة حتى أصبح خليفتنا المفوض السامي الفرنسي»[2].

ـ «إذا رأيت العلماء يقفون على أبواب الملوك، فبئس العلماء وبئس الملوك. وإذا رأيت الملوك يقفون على أبواب العلماء، فنعم الملوك ونعم العلماء».

ومن نافلة القول: إن ثمة إسلاماً واحداً لا إسلامان: أحدهما سني،

---

(١) هذا القول هو للسيد عبد الحسين شرف الدين.
(٢) هذا القول هو للسيد محسن الأمين.

والآخر شيعي. فالتسنن ليس ديناً كما التشيع ليس بدين. إن الإسلام يشمل كل من آمن ويؤمن بالله تعالى، وسنة نبيه، واليوم الآخر. والله تعالى يقول في الآية ٤٦ من سورة الأنفال من كتابه العزيز الحكيم: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ... ﴿٤٦﴾﴾. كما يقول تعالى في الآية ١٥٩ من سورة الأنعام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

والاختلاف بين المسلمين في بعض الأصول غير الأساسية، كالإمامة، وفي بعض فروع الدين، هو اختلاف فقهي موجود حتى داخل المذهب الإسلامي الواحد. وهو أمر طبيعي، لاختلاف العقول في فهم النصوص وطرق الاستنباط. وهو لا يضر الإيمان ولا الدين. فالرسول ﷺ يقول: «إختلاف أمتي رحمة». و«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد لها دينها».

ومن الجدير بالذكر، أن الخليفة الراشدي الرابع، علي بن أبي طالب، عندما سمع جماعة من جيشه في صفين يسبون جماعة معاوية، خطب فيهم قائلاً: «إني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكن لو ذكرتم حالهم ووصفتم أفعالهم، لكان أصوب في القول، وأبلغ في الحجة، وقلتم مكان سبكم إياهم: ربنا إحقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به».

وعندما ابتلي بتكفير الخوارج له لقبوله بالتحكيم بينه وبين معاوية في صفين سنة ٣٧هـ بعدما أرغموه، هم، على ذلك، لم يبادلهم بالمثل، ولم يعمد إلى مقاتلتهم إلاّ بعد مباشرتهم بقتاله. وقد أوصى قبل استشهاده على يد أحدهم، قائلا : «لا تقاتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب

الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه». ومن أقواله: «هلك فيَّ اثنان: محبّ غال، ومبغض قال».

وقد جاء في كتاب **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة** لأبي حامد الغزالي الأشعري الشافعي: «**إعلم أن شرح ما يكفَّر به وما لا يكفّر به** يستدعي تفصيلاً طويلاً... فاقنع الآن بوصية وقانون. أما الوصية: فان تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ما داموا قائلين لا إله إلّا الله محمد رسول الله. وأما القانون: فهو أن تعلم أن النظريات قسمان: قسم يتعلق بأصول القواعد وقسم يتعلق بالفروع. وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر، وما عداه فروع. واعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً إلّا في مسألة واحدة وهي أن ينكر [إنسان] أصلاً دينياً علم من رسول الله ﷺ بالتواتر. لكن في بعضها تخطئة كما في الفقهيات. وفي بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة... واعلم أن الخطأ في أصل الإمامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيء منه تكفيراً...»[1].

كما جاء في **مجموعة الرسائل والمسائل** لشيخ الإسلام إبن تيمية: «ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله، ولا بخطأ أخطأ فيه، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة... والخوارج المارقون الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم، قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.. ولم يكفرهم... ولم يقاتلهم حتى سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على أموال المسلمين... لدفع ظلمهم وبغيهم، لا لأنهم كفار. ولهذا لم يسب حريمهم ولم يغنم أموالهم»[2].

وجاء في شرح صحيح مسلم للإمام النووي: «إعلم أن مذهب أهل

---

(١) مطبعة الترقي، مصر، ١٩٠١، ص٥٦ ـ ٥٧.
(٢) ج٥: ص١٩٩، ٢٠١.

الحق [أي أهل السنة والجماعة] أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، ولا يكفر أهل الأهواء والبدع (الخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم)...»[1]؛ وأن الخروج على الحكام الفسقة وقتالهم حرام بإجماع المسلمين، لما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزلهم أكثر منها في بقائهم[2].

وقد جاء في **الأصول العشرين** من رسالة التعليم لمؤسس حركة الإخوان المسلمين في مصر، الشيخ الشهيد حسن البنا: «لا نكفر مسلماً أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما برأي أو معصية إلّا إذا أنكر معلوماً من الدين بالضرورة أو كذب صريح القرآن أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب العربية بحال، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر».

وفي مطلع الخمسينيات من القرن الماضي نشأت في القاهرة **جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية**[3] ضمت عدداً كبيراً من شيوخ الأزهر الكبار، منهم: الإمام الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم، والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، والإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق... إلى جانب كبار العلماء من إيران والعراق ولبنان. وكان من أهم إنجازاتها **مجلة رسالة الإسلام** التي كانت غايتها التعريف السليم بالإسلام، والتقريب بين المذاهب الإسلامية، ونبذ التعصب المذهبي الذميم الذي يعمي العقول والقلوب. وفي سنة ١٩٥٢ نُشر في القاهرة بايعاز من مشيخة الأزهر

---

(١) ج١: ص١٥٠.

(٢) ج١٢: ص٢٢٩.

(٣) يعود الفضل الأول في تأسيس جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية إلى الشيخ محمد تقي القمي الإيراني الذي درس في طهران وفي قم. وقد جاء إلى مصر عام ١٩٣٥ داعياً إلى الوحدة الإسلامية والتقريب بين المذاهب، ثم عاد إليها مرّة ثانية عام ١٩٤٦ ليؤسس دار جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية.

الشريف كتاب مجمع البيان في تفسير القرآن لأحد كبار علماء الشيعة الإمامية: أبو علي الطبرسي (ت٥٨٤هـ/ ١١٥٣م)، بغاية التقريب بين المذاهب الإسلامية الفقهية السنية ـ الشيعية الإمامية. وقد أشرف على نشره شيخ الأزهر حينذاك، الشيخ عبد المجيد سليم، الذي قال عنه: «إنه كتاب جليل الشأن، كثير الفوائد، لا أحسبني مبالغاً إذا قلت: إنّه في مقدمة كتب التفسير التي تعد مراجع لعلومه وبحوثه. وقد قرأت هذا الكتاب كثيراً، ورجعت إليه في مواطن عدة... وإن إحياء هذا التفسير الجليل عمل من الباقيات الصالحات آمل أن يثيب الله كل معين على إتمامه ثواباً حسناً...». وساعده في ذلك، الشيخ محمود شلتوت ـ وكان حينها وكيلاً للأزهر الشريف ـ الذي كتب مقدمة الكتاب، وفيها: «إن المسلمين ليسوا أرباب أديان مختلفة، إنما هم أرباب دين واحد، وكتاب واحد، وأصول واحدة، فإذا اختلفوا فإنما هو اختلاف الرأي مع الرأي، والرواية مع الرواية، والمنهج مع المنهج، وكلهم طلاب الحقيقة المستمدة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، والحكمة ضالتهم جميعاً... وأول شيء على المسلمين وعلمائهم وقادتهم أن يتبادلوا المعرفة والثقافة، وأن يقلعوا عن سوء الظن،... وعن الطعن والسباب، وأن يجعلوا الحق رائدهم، والإنصاف قائدهم، وأن يأخذوا من كل شيء أحسنه...».

وأثناء تولي الشيخ محمود شلتوت في سنة ١٩٥٨ مشيخة الجامع الأزهر، قرر تدريس فقه المذهب الجعفري الشيعي ضمن منهج الفقه المقارن في كلية الشريعة بجامعة الأزهر، وأصدر فتوى بجواز التعبد بهذا المذهب على غرار المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة، قائلاً: « لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم، وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها، وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة، كان منها تلك الفصول المتابعة في تفسير

القرآن الكريم التي ظلت تنشرها مجلتها رسالة الإسلام قرابة أربعة عشر عاماً... [وعندما] عهد إليَّ بمنصب مشيخة الأزهر أصدرت فتواي في جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول المعروفة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها مذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، وهي تلك الفتوى المسجلة بتوقيعنا في دار التقريب... والتي كان لها ذلك الصدى البعيد في مختلف بلاد الأمة الإسلامية، وقرت بها عيون المؤمنين المخلصين الذين لا هدف لهم إلّا الحق والالفة ومصلحة الأمة...»[1]. والجدير بالذكر، أن الشيخ شلتوت كان يرى «أن الإسلام لا يوجب على أحد من المسلمين اتباع مذهب معين، ولكل مسلم الحق في أن يأخذ من أي مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً، ومن أخذ من مذهب فإن له أن ينتقل إلى غيره ولا حرج عليه. وبناء على ذلك، فإنه كان يفتي في كثير من المسائل بمذهب الشيعة [ومنها]:

١ ـ الطلاق الثلاث بلفظ واحد... وقد أخذ القانون المصري به.

٢ ـ الطلاق المعلّق... [فإن] مذهب الشيعة يرى أن التعليق مطلقاً سواء قصد به التهديد أم التطليق لا يقع به الطلاق، وقد رجحت هذا الرأي، وكثيراً ما أفتيت به، وكثيراً ما أذعته وكتبته في أحاديثي المتعلقة بالطلاق»[2].

وكان الشيخ أحمد حسن الباقوري من أكثر المؤيدين لفكرة التقريب بين المذاهب. وكان يرى أن فقه الإمامية الشيعة الإثني عشرية لا يختلف

(١) منشورات جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية، دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، دار الجواد، (لا. ت) ص١٥.

(٢) (عن) رجب البنا، الشيعة والسنة واختلافات الفقه والفكر والتاريخ، دار المعارف بمصر، ٢٠٠٥م، ص٤١ ـ ٤٢، ٤٤.

كثيراً عن فقه مذاهب أهل السنة. وقد أقرَّ تدريس المذهب الفقهي الإمامي إلى جانب فقه المذاهب الأربعة الأخرى في جامعة الأزهر حين كان رئيسها. وعندما أصبح وزيراً للأوقاف، أمر بأن تطبع وزارة الأوقاف كتاب **المختصر النافع في فقه الإمامية** للشيخ نجم الدين جعفر بن الحسن الحلي، المعروف: بالعلامة الحلي (١٢٠٥ ـ ١٢٧٧م)، وكتب مقدمته. وقد راجع هذا الكتاب وأشرف على طباعته كبار شيوخ وعلماء الأزهر من المذاهب الأربعة، ومنهم: الشيخ محمد المدني، عميد كلية الشريعة، ورئيس تحرير مجلة **رسالة الإسلام** التي كانت تصدرها جماعة دار التقريب بين المذاهب، والشيخ عبد العزيز عيسى، مدير المعاهد الدينية، ومدير التفتيش، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ سيد سابق. وعندما نفدت الطبعة الأولى من الكتاب، أمر بإعادة طباعته مرة ثانية سنة ١٩٥٨م.

وفي ندوة أقامتها دار التقريب بين المذاهب في حزيران ٢٠٠١ بالقاهرة، قال شيخ الأزهر، الإمام الأكبر د. **محمد سيد طنطاوي**: إن الخلاف بين المذاهب ليس على ركن من أركان الدين ولا على أصل من أصوله، ولكنه خلاف في اجتهادات حول الفروع، ولكل إنسان الحق في أن يكون له رأي فيها... والخلاف بالأمور الاجتهادية مشروع ومقبول ويحقق المصلحة. كما قال **الشيخ محمد على التسخيري** وهو من كبار علماء الشيعة في إيران: «إن المذاهب الفقهية تمثل ثروة عظيمة للفكر والفقه، ولا نريد تغليب مذهب على مذهب. والدماء التي أهرقت باسم هذه الاختلافات في الاجتهاد، كان وراءها، فقهاء ابتلي بعضهم بضيق الأفق والتعصب...»[١].

وفي ندوة في الرباط عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم

---

(١) المرجع نفسه، ص٣٤٣ ـ ٣٤٤.

والثقافة سنة ١٩٩٦ لبحث مشكلة التعصب المذهبي الذي فرق المسلمين وجعل كل مذهب يخطىء المذهب الآخر، وبعض أصحاب المذاهب يكفرون أصحاب المذاهب الأخرى، من دون علم بحقيقة المذاهب، رأى الشيخ الدكتور **يوسف القرضاوي**، رئيس الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين، أن كل القوى المعادية للإسلام تعمل بجد على بث الفرقة بين أبناء القبلة الواحدة ولا سيما بين أهل السنة والشيعة وبين السلفية والصوفية... وأن على الدعاة المخلصين والمفكرين الصادقين أن ينتبهوا إلى ذلك ويعملوا على توحيد الأمة، وحرام أن يتوحد أهل الباطل ويتفرق أهل الحق ويعادي بعضهم بعضاً. وعلى المسلمين الذين أحيوا السنة بإطلاق لحاهم ألا يشغلوا الناس بذلك، ويحكموا بالفسق على من لا يعفي لحيته. مع الملاحظة أن الشيخ القرضاوي كان يرى أن التكفير أشد خطراً على المسلمين من كل ما عداه. فالحكم بالكفر على من يقول: «لا إله إلا الله، خطيئة دينية، وخطيئة علمية، وخطيئة سياسية، والسنة النبوية تحذر أبلغ التحذير من اتهام مسلم بالكفر في أحاديث صحيحة مستفيضة...»[1].

وقد شكك ـ أي الشيخ القرضاوي ـ في صحة حديث «... وتفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلّا فرقة واحدة هي الفرقة الناجية»، قائلاً إنّه حديث ضعيف الاسناد، لم يرد في أي من الصحيحين: مسلم، والبخاري. وبعض روايات الحديث لم تذكر أن الفرق كلها في النار إلّا واحدة، وإنما ذكرت الافتراق وعدد الفرق فقط، كما هو الحال في حديث أبي هريرة الذي رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه،

(١) المرجع نفسه، ص٣٣٣، ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

والحاكم، وابن حنبل: «افترقت اليهود على إحدى ـ أو اثنتين ـ وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى ـ أو اثنتين ـ وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة».

[من الجدير بالذكر، أنّ الإمام الغزالي روى في كتابه **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة** هذا الحديث[1] على صورتين:

١ ـ «ستفترق أمتي بضعاً وسبعين فرقة كلهم في الجنة إلّا الزنادقة وهي فرقة».

٢ ـ «ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة الناجية منها واحدة»؛ قائلاً: إن الحديث الأول صحيح، ولكن ليس المعنى به أنهم [أي الزنادقة] كفار مخلدون [في النار] بل إنهم يدخلون النار ويعرضون عليها ويتركون فيها بقدر معاصيهم. والمعصوم في المعاصي لا يكون في الألف إلا واحداً، وكذلك قال الله تعالى ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾... وأما الحديث الآخر، وهو قوله: الناجية منها واحدة، فالرواية مختلفة فيه. فقد روي الهالكة منها واحدة، ولكن الأشهر تلك الرواية. ومعنى الناجية هي التي لا تعرض على النار ولا تحتاج إلى الشفاعة»[2]].

وقد رد إبن حزم الظاهري في كتابه **الفصل بين الملل والنحل** على من يكفر الآخرين، بسبب حديث: «تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة، كلها في النار، حاشا واحدة، فهي في الجنة»، وكذلك بسبب

---

(١) لم يشر الشيخ القرضاوي إلى حديث الغزالي هذا، وقد يكون ذلك راجع إلى عدم دقة الغزالي دائماً في رواية الأحاديث.

(٢) الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ط١، مطبعة الترقي بمصر، ١٩٠١، ص٥٥، ٧٣، ٧٦.

حديث: «القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة»، بأنهما حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الاسناد، وما كان هكذا، فليس حجة عند من يقول أو يأخذ بخبر الواحد، فكيف عند من لا يأخذ بحجية الخبر الواحد.

وذكر الإمام الشوكاني في كتابه فتح القدير في تفسير القرآن الكريم، أن جماعة من المحدثين قد ضعفوا جملة «كلها في النار إلّا واحدة».

وطعن العلامة محمد بن إبراهيم الوزير (ت٨٤٠هـ) في هذا الحديث عامة في الجزء الأول من كتابه العواصم والقواصم، قائلاً: «وإياك والاغترار بـ«كلها هالكة إلّا واحدة» فإنها زيادة فاسدة، غير صحيحة القاعدة، ولا يؤمن أن تكون من دسيس الملاحدة».

ولا جرم في أن ثمة إشكالاً في متن هذا الحديث الذي جعل الأمة التي وصفها الله تعالى في كتابه الكريم بأنها خير أمة أخرجت للناس، أسوأ من اليهود والنصارى في مجال الفرقة والاختلاف، وكأن الفرقة في الأمة هي الأصل، مما يتعارض مع قوله تعالى في الآية ٥٢ من سورة المؤمنون ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾. ثم إن هذا الحديث الذي يجعل الفرقة في الأمة قضاء وقدراً، وكلها في النار، ما عدا واحدة ناجية فقط، يفتح الجدال والنزاع لادعاء كل فرقة بأنها هي الناجية وغيرها في النار، وتالياً يفتح الباب واسعاً لتكفير الفرق بعضها لبعض، وقيام الخصومة والشقاق بينها، مما يؤدي إلى تمزقها وإضعافها. مع الملاحظة أن هذا الحديث يدل على أن هذه الفرق كلها جزء من أمته ﷺ، وليست منفصلة عن جسم الأمة المسلمة، بدليل قوله ﷺ: «تفترق أمتي...» وكونها في النار ما عدا واحدة، لا يعني الخلود فيها كما يخلد الكفار، وقد يشفع لأبنائها النبي ﷺ أو الملائكة أو بعض المؤمنين،

وقد يعفو الله تعالى عنهم تكرماً منه ورحمة، ولاسيما أنه قد رفع عن أمة نبيه ﷺ، الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه، كما جاء في الحديث النبوي: «إن الله تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[1].

ومما تقدم، يمكننا القول بأن بعض العلماء قديماً وحديثاً يردون هذا الحديث إن من ناحية المتن، أو من ناحية السند، أو من ناحية المعنى. وقد ساق محمد عمارة في كتابه **تيارات الفكر الإسلامي** عدة أسباب للشك في صحة هذا الحديث، منها:

١ ـ إنه حديث آحاد. وأحاديث الآحاد وإن جاز الأخذ بها في الأمور العملية فإنها غير ملزمة في الأمور العقدية.

٢ ـ إنه يحدد عدد الفرق اليهودية والفرق النصرانية، وليس بين مؤرخي الفرق الإسلامية أو غير الإسلامية من حدد هذه الفرق في الديانتين بهذا العدد.

٣ ـ إنه حدد عدد الفرق الإسلامية. ولكن عندما نبحث عن عدد الفرق الاسلامية كما أرخ لها أبو الحسن **الأشعري** في كتابه **مقالات الاسلاميين**، والشهرستاني في كتابه **الملل والنحل**، وابن حزم في كتابه **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، والقاضي عبد الجبار المعتزلي في كتابه **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**، والمقريزي في كتابه **الخطط**، والخوارزمي في كتابه **مفاتيح العلوم**ـ نجد اضطراباً كبيراً لديهم في تعداد الفرق، يرجع إلى عدم اعتمادهم منهجاً واحداً وواضحاً يحدد معنى

---

(١) انظر: الشيخ يوسف القرضاوي، الصحوة الاسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٥، ص٣٤ ـ ٣٨، ١٤٣.

الفرقة. وقد أدرك الشهرستاني هذا الاضطراب الواضح الذي وقع فيه مؤرخو الفرق، ما جعله يقول في كتابه الملل والنحل: «إعلم أن لأصحاب المقالات طرقاً في تعديد الفرق الإسلامية، لا على قانون مستند إلى نص، ولا على قاعدة مخبرة عن الوجود، فما وجدت مصنفين متفقين على منهاج واحد في تعديد الفرق. ومن المعلوم الذي لا مراء فيه أن ليس كل من تميز عن غيره بمقالة ما، في مسألة ما، عدّ صاحب مقالة، وإلا فتكاد تخرج المقالات عن حد الحصر والعد، ويكون من انفرد بمسألة في أحكام الجواهر، مثلاً، معدوداً في عداد أصحاب المقالات. فلا بد، إذن، من ضابط في مسائل هي أصول وقواعد يكون الاختلاف فيها اختلافاً يعتبر مقالة، ويعد صاحبه صاحب مقالة. وما وجدت لأحد من أرباب المقالات عناية بتقرير هذا الضابط، إلّا أنهم استرسلوا في إيراد مذاهب الأمة، كيف اتفق، وعلى الوجه الذي وجد، لا على قانون مستقر وأصل مستمر...».

والجدير بالذكر، أن د. عمارة قدم لنا في خاتمة كتابه ثبتاً أبجدياً بالفرق الإسلامية «الأصول منها والفروع، الكبريات والصغرى» ما تبلور منها لأسباب سياسية واجتماعية، وما نشأ في الجدل حول الالهيات. وقد بلغت ١٩٨ فرقة[١].

كما يرى الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه الجهاد في الإسلام؛ كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟ أنه لا فرق بين «أصول الاجتهاد الفقهي عند أئمة الفقه الشيعي الأوائل: الإمام محمد الباقر، وابنه جعفر الصادق، وزيد بن علي، وبين الأصول المتبعة عند سائر الفقهاء،

(١) محمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامي، بيروت، دار الوحدة، ١٩٨٥، ص٣٥٢ ـ ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٦١.

ولاسيما المذاهب الأربعة... وقد التقى أبو حنيفة مع زيد بن علي ومحمد الباقر وجعفر الصادق وتدارس معهم وأخذ منهم... كما ذكر أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه **أبو حنيفة**. كذلك لقي الإمام مالك جعفراً الصادق وأخذ عنه، وظل يذكره بأحسن ما يذكر تلميذ شيخه... كما ذكر الشيخ أبو زهرة في كتابه مالك...»[١].

وقد رأى أحد علماء المسلمين الشيعة العراقيين الكبار، ومن أركان دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، أنه لعل «الفارق الوحيد بين الطائفتين: السنة والشيعة، هو قضية الإمامة... ولكن هل تجد الشيعة تقول إن من لا يقول بالإمامة غير مسلم، كلا ومعاذ الله، أو تجد السنة تقول إن القائل بالإمامة خارج عن الإسلام ـ لا وكلا ـ. إذن، فالقول بالإمامة وعدمه لا علاقة له بالإسلام وأحكامه من حرمة دم المسلم وعرضه وماله، ووجوب أخوته، وحفظ حرمته، وعدم جواز غيبته، إلى كثير من أمثال ذلك من حقوق المسلم على أخيه...»[٢]. ويقول العالم المسلم الشيعي اللبناني الشيخ محمد جواد مغنية:

لقد نشأت المذاهب، وتعددت، بعد الإسلام ونبي الإسلام. نشأت في ظروف سياسية دنيوية، ليست دينية... وإذا رجعنا إلى سنة الرسول الأعظم وعهد الخلفاء الراشدين، وسيرة الأصحاب والتابعين، وأئمة المذاهب، لا نجد أي أثر للتفرقة والانقسام أو ذكر للفظ سنة وشيعة بمعناها المعروف اليوم، بل على العكس، نجد الوحدة والإلفة والإخاء... إن الشريعة الإسلامية... لها أصول مقررة لا يختلف عليها مسلمان، مهما

---

(١) الشيعة والسنة، مرجع سابق، ص٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٢) دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص٦٧ ـ ٦٨.

كان مذهبهما، وإنما الخلاف والجدال بين المذاهب حصل فيما يتفرع عن تلك الأصول، وما يستخرج منها... ونصوص القرآن والسنة النبوية تنكر التعصب وتعده من كبائر السيئات... والرسول الأعظم ﷺ قال: «من تعصب فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه»... إن السنة والشيعة طائفة واحدة حقيقة وواقعاً، لأن كتابهم واحد، وهو القرآن، لا قرآنان، ونبيهم واحد، وهو محمد، لا محمدان، فكيف إذن يكفّر بعض من الفريقين المسلمين إخوانهم في الدين؟... إن الإسلام هو الدستور الذي بُينت مواده وأحكامه في الكتاب والسنة... أما المذهب فهو عبارة عن رأي صاحبه وفكرته عن الإسلام أو بعض أحكامه، فإذا كانت فكرته انعكاساً حقيقياً عن حكم الله فهي صواب، وإلّا فخطأ يعذر صاحبه إذا كان قد أفرغ الوسع في البحث والتنقيب عن الدليل... وأحكام المذاهب كلها ليست بحجة إلّا في حق القائلين بها... وعليهم أن يعدلوا عنها إذا انكشف لهم العكس، وبالتالي، فإن التعصب لمذهب هو تعصب لصاحب المذهب بالذات لا تعصب للإسلام... وإذا كان لا بد لنا من التعصب فلنتعصب للدين، للإسلام، لا لمذهب من مذاهبه، على أن يكون معنى تعصبنا للإسلام هو الحرص على تعاليمه، واحترام شعائره، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة... إن الله غداً لا يسأل الإنسان: هل أنت سني أو شيعي، إن الإسلام لا يجنس بالتسنن أو التشيع، إن حقيقته هي العدالة والمساواة، وما لوَّنه بهذين اللونين إلّا السياسة والأهواء؛ لقد فرقتنا السياسة ويجب أن تكون كلمة التوحيد سبباً لوحدة الكلمة، ومن آيات هذه الوحدة إلغاء لفظ سني وشيعي من التداول... وبالتالي، علينا نحن رجال الدين أن نعلن على الملأ وفي كل مناسبة، أن الإسلام دين واحد، ليس فيه طائفة شيعية وأخرى سنية، ومن يتعمد إذكاء

نار الفتنة الطائفية والعصبية المذهبية، إما جاهل، وإما خائن مستأجر لبث السموم والانشقاق بين أبناء الأمة الواحدة والوطن الواحد[1].

ومن أجل التقريب بين المذاهب الإسلامية، أنشأت الجمهورية الإسلامية في إيران، **المجمع العلمي للتقريب بين المذاهب**. ويضم المجلس الأعلى لهذا المجمع ٢١ عضواً من مختلف دول العالم الإسلامي: إيران، مصر [د. محمد سليم العوا] لبنان، الأردن، السودان، العراق، ماليزيا... الخ. وينص النظام الأساسي للمجمع على أن من أهدافه التعارف والتفاهم بين القادة الدينيين المسلمين، والتقريب بين المذاهب الإسلامية عن طريق إقامة المؤتمرات، وتجنب الحكم بالكفر أو الفسق أو التبديع بين أصحاب المذاهب... إلخ. وقد عقد المجمع ندوة في تركيا تحت عنوان **الإيمان والكفر في القرآن الكريم والسنة** ناقش فيها معايير الكفر والإيمان، خالصاً إلى أنّه لا يحق ولا يجوز لأحد من المسلمين بأن يرمي أحداً من أهل القبلة بالكفر. كما قام المجمع بنشر كتاب **تفسير القرآن الكريم** للشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر الأسبق، وبانشاء جامعة المذاهب الإسلامية التي تدرس فقه جميع المذاهب الإسلامية المعروفة: **الحنفي، والشافعي، والمالكي، والحنبلي**، والزيدي، إضافة إلى المذهب الإمامي الإثني عشري.

وفي هذا الصدد، من المفيد جداً، أن نذكر بأن الجمهورية الإسلامية الإيرانية، قد حرّمت تحريماً قاطعاً المساس بمعتقدات المسلمين السنة أو التعريض بها لأي سبب من الأسباب؛ وأن المملكة العربية السعودية

(١) دعوة التقريب بين المذاهب الاسلامية، مرجع سابق، ص١٠٥، ١١٢، ١١٥، ١١٨، ١٢٣ ـ ١٢٤، ١٢٨ ـ ١٢٩، ١٣١، ١٣٣ ـ ١٣٤.

إقترحت في مؤتمر منظمة الدول الإسلامية الذي عقد في مكة المكرمة في ١٣ ـ ١٤ آب ٢٠١٢ تأسيس مركز للحوار بين المذاهب الإسلامية، ينبذ التفرقة ويتصدى لكل مظاهر التعصب والمغالاة، ويكون مركزه في الرياض.

ولذا، حبذا لو أن المرجعيات الدينية في الجامع الأزهر الشريف بمصر، وفي مكة المكرمة بالمملكة العربية السعودية، وفي النجف الأشرف بالعراق، وفي قم بالجمهورية الإسلامية الإيرانية، تبادر إلى عقد مؤتمر إسلامي عام، يصار فيه إلى تحريم تكفير المسلمين بعضهم بعضاً، وحصر الفتاوى الدينية التي تهم المسلمين عامة في مجامع فقهية خاصة، لسد الطريق أمام بعض الفتاوى الغريبة التي تصدر عن البعض، وتضر بالإسلام والمسلمين. كما أن على مجمع الفقه الإسلامي العالمي الذي يضم كافة المجامع الفقهية الإسلامية، ويوجد بمدينة جدة، ويتولى بحث مشكلات العالم الإسلامي، ويصدر فيها فتاوى، أن يوحد جميع الفتاوى في هذه المشكلات، ومنها: مشكلات التعصب الديني المذهبي، والتكفير... الخ، ويعمل على منع بعض الدعاة وخطباء المساجد الذين يفتقدون المعرفة الصحيحة للدين، من بث دابر التفرقة والفتنة المذهبية بين المسلمين، وأن تؤازره في ذلك حكومات الدول العربية والإسلامية كافة. والجدير بالذكر، أن المادة ١٥ من القانون المصري ١٠٣ لسنة ١٩٦١ تنص على أن مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف هو الهيئة العليا لبيان الرأي فيما يستجد من مشكلات ذات صلة بالعقيدة، وأنّه يتكون من ٥٠ عضواً من كبار العلماء من مصر وغيرها، على ألا تزيد نسبة العلماء غير المصريين على عشرين عضواً. وتنص المادة ٢٢ من قانون عمل المجلس على أن قرارات المجمع لا تكون صحيحة إلّا

بحضور ربع الأعضاء غير المصريين على الأقل. ولكن المجمع للأسف معطل منذ أكثر من عشر سنوات، والذي يجتمع ويصدر القرارات هو مجلس المجمع وليس المجمع نفسه.

وإني آمل من وراء كتابي هذا، نبذ التكفير، والابتعاد عن التعصب والمغالاة في هذا العصر، عصر الدولة المدنية المسالمة، دولة المواطنة والقانون والديمقراطية، التي لا تمييز فيها بين الناس على أساس أجناسهم، ولغاتهم، وأديانهم، وطوائفهم، ومذاهبهم، وعقائدهم، وأفكارهم، كما تنص على ذلك شرعة منظمة الأمم المتحدة، والهيئات المنبثقة عنها، التي التزمت باحترامها والعمل بموجبها جميع الدول العربية والإسلامية كافة. مع الإشارة إلى أن **الإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان** الذي أقرته دول منظمة المؤتمر الإسلامي في القاهرة سنة ١٩٩٠ يُشبه في مضمونه إلى حد التطابق أحياناً مع ما جاء في **الإعلان العالمي لحقوق الإنسان** الصادر عام ١٩٤٨ عن منظمة الأمم المتحدة. فقد جاء في هذا الإعلان الإسلامي: أن الناس جميعاً أسرة واحدة. وهم متساوون فيما بينهم في الإنسانية على الرغم من اختلاف أعراقهم وألوانهم ودياناتهم وسياساتهم. كما أنهم أحرار في **اختيار عقائدهم وآرائهم وشئون حياتهم الخاصة... الخ**. وإني أبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يلهم أفراد الجماعات الأصولية الجهادية التكفيرية المتطرفة، الفهم الصحيح الشامل لكتابه الكريم وسنة نبيه العظيم، وأن تبادر الدول التي ينتمي إليها أفراد هذه الجماعات، إلى محاورتهم بالكلام اللين الطيب، وأن تحتضنهم احتضان المحب لهم، المتفهم لأحوالهم وظروفهم [ظلم، قهر، فقر، بطالة، جهل...] لكي لا يكونوا، اليوم، كما كان الخوارج في الماضي، عقيدة وسلوكاً ـ ووصفهم محمد عمارة في كتابه: **تيارات الفكر**

الإسلامي، «برهبان الليل وفرسان النهار»[1] ـ، الذين استندوا إلى ظاهر بعض آيات سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2]، وكذلك إلى بعض أحاديث الرسول ﷺ التي أطلقت الكفر على بعض المعاصي: كجحد النعم، وعدم الشكر، والسَّبّ، والذنب، والخطأ، والظلم، والكذب، وتصديق العرافين أو السحرة...[3]، لاتهام مخالفيهم بالكفر البواح، واستحلال دمائهم وأموالهم، وأعراضهم؛ ووصفهم الرسول ﷺ نفسه، بقوله «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرقعة... يقرأون القرآن لا

(1) مرجع سابق، ص٢٠.
(2) سورة المائدة، الآيات: ٤٤ ـ ٤٦.
(3) جاء في كتاب الله تعالى:ـ
﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ سورة النحل: ١١٢.
ـ ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾سورة البقرة: ١٥٢.
ـ ﴿وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ سورة آل عمران: ١٤٤.
ـ ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ سورة الأنعام: ١٠٨.
ـ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ سورة آل عمران: ١١.
ـ ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ سورة العنكبوت: ٤٠.
ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ سورة الأنعام: ٨٢.
ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ سورة النساء: ١٥٣.
ـ ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ سورة الحجرات: ٦.
ـ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ سورة المائدة: ٤٩.
ـ ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ سورة البقرة: ٩٩.
وجاء في الحديث القدسي: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا» [رواه مسلم في صحيحه].
وعن النبي ﷺ: «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل الله على محمد».

يجاوز حناجرهم أو تراقيهم!؛ متناسين أو متجاهلين قول الله تعالى في الآية ٤٨ من سورة النساء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. وقوله تعالى في الآية ١٢ من سورة الأنعام ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ...﴾. وكذلك قوله تعالى في الآية ١٥٦ من سورة الأعراف ﴿...وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ...﴾.

وبناء على ما تقدم، وبدلاً من أن يواصل العرب والمسلمون في الوقت الراهن مسيرة أسلافهم الحضارية الإنسانية العظيمة المبدعة في العلوم والفنون والآداب والفلسفة، وامتلاك جميع وسائل القوة الذاتية، وحلّ جميع قضاياهم السياسية والاقتصادية بعيداً عن التبعية المباشرة أو غير المباشرة لغيرهم من الدول الطامعة في ثرواتهم، وبقائهم توابت إستهلاكيين لسلعه، فإني أخوف ما أخافه، أن ينشغلوا من حيث يريدون أو لا يريدون في قضايا هامشية عقدية دينية مذهبية تكفيرية، لا تبقي ولا تذر إن هم انغمسوا - لا سمح الله تعالى - كدول ومجتمعات في أوارها، ولم يفيقوا قبل فوات الأوان مما يدبّر لهم من قبل الذين يريدون لهم الإنزلاق في هذا الشرك الخطير، الذي يذكرنا بحروب الخوارج على جميع مخالفيهم في العقيدة والسياسة، طيلة عهد الخلافتين الأموية والعباسية، وويلات ومآسي الحروب الدينية الكاثوليكية - البروتستنتية، ومحاكم التفتيش الدينية في أوروبا، التي راح ضحيتها الملايين من الضحايا، إضافة إلى الدمار والخراب في العمار والأرزاق.

إن على العرب والمسلمين جميعاً أن يعوا ويعرفوا جيداً أن دينهم هو دين التوحيد والوحدة لا الفرقة، ودين التآخي [إنما المؤمنون إخوة] والرحمة، والمحبة، والتعاون، والتسامح، والعدل، والسلام، لا التعصب الذميم، والتكفير المقيت، والقتل المحرم، وهم لو ساروا مسيرة أسلافهم

الغابرة في العلم والإيمان والتسامح...، لزاحموا من جديد حضارات غيرهم من الأمم.

إن هذا الكتاب ينقسم إلى أربعة فصول، هي:

الفصل الأول: العقل والإيمان عند العلماء المسلمين والفلاسفة.

الفصل الثاني: الإيمان والتكفير عند الكلاميين والفقهاء المسلمين.

الفصل الثالث: الأصولية الإسلامية: معناها، ومبادئها.

الفصل الرابع: الذات والآخر في الاسلام وفي التاريخ الثقافي الغربي (دراسة مقارنة).

وإني لا أزعم لنفسي الكمال أبداً. فالكمال لله وحده تعالى، ويبقى له وحده؛ راجياً ألا أكون قد قصرت أو أخطأت من حيث كان رائدي الصواب والحقيقة، وكذلك الموضوعية التي اقتضت إيراد الشواهد الكثيرة أحياناً، بأقوال القدماء والمتأخرين؛ وأن يتأمل معي الاخوة القراء على اختلافهم، في رسالة القاضي الفاضل البيساني إلى الكاتب عماد الدين الأصفهاني (١١٢٥ ـ ١٢٠١م): «إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتاباً في يومه إلّا قال في غده: لو غيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدِّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر»[1].

بيروت في ١٠/ ٧/ ٢٠١٣

(١) حاجي خليفة، كشف الظنون، ١/ ١٠٤٢.

ملحوظة: تجدر الإشارة إلى أنه بعد إنجاز هذا الكتاب في حالته الراهنة، طالعنا الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، بفتوى مستغربة، أثارت دهشة كبيرة، تكفِّر رئيس اتحاد العلماء المسلمين في بلاد الشام، العالم الإسلامي الجليل الشيخ الدكتور محمد سعيد

رمضان البوطي، وتقول: إنه «فقد عقله وأهليته الدينية»؛ وذلك لوقوفه في وجه الحرب الكونية التكفيرية التفتيتية الاستعمارية على بلده.

وبما أن من غايات هذا الكتاب، نبذ العنف والتكفير بين المسلمين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم، ومعارضة الداعين إلى ذلك أيّاً كانوا؛ وقد اعتمد في هذا الأمر على نصوص كثيرة للشيخ الدكتور القرضاوي، كما لغيره، فإنه من المؤسف حقاً، أن يذهب الشيخ القرضاوي إلى نقيض ما جاء في كتبه المعتمدة في هذا الكتاب، وبأن يلقى العالم الكبير والشيخ الجليل الدكتور البوطي مصرعه بعد هذه الفتوى بزمن قليل على يد إرهابي تكفيري في أحد مساجد بيت الله تعالى بدمشق.

كذلك تجدر الإشارة إلى أن جمهورية مصر العربية قد شهدت حدثين هامّين في الشهر السادس من هذه السنة ٢٠١٣م.

الأول: تمثل في مؤتمر جمع «مئات العلماء من خمسين دولة إسلامية لدرس الأوضاع في سوريا»، تمخّض عنه الدعوة إلى الجهاد فيها، ودعوة الشيخ السعودي محمد العريفي من على منبر مسجد عمرو بن العاص في القاهرة «إلى الجهاد في سوريا ضد النظام وضد حزب الله الأرفاض والصفويين»، ما دفع مقدم البرامج المعروف في قناة CBC المصرية، خيري رمضان، إلى شنّ هجوم عنيف جداً على ذلك في تمام الساعة الثامنة من مساء نهار الجمعة الواقع في ١٤ ـ ٦ ـ ٢٠١٣، قائلاً: إن المؤتمر وما تمخّض عنه من دعوة إلى الجهاد في سوريا، وخطاب العريفي الجهادي الناري الذي يدعو فيه الشباب المصري لا السعودي إلى مقاتلة إخوانهم السوريين والموت في سوريا، «يُعدان غطاءً دينياً شرعياً لأمريكا للتدخل العسكري في سوريا، بحيث أصبحت سوريا للأسف الشديد هي عدوّة العرب والمسلمين، والجهاد فيها واجب شرعي، وليس في أرض فلسطين المغتصبة من قبل إسرائيل عدوّنا الوحيد.

أما الحدث الثاني الذي هزّ مصر وجموع العرب والمسلمين فهو محاصرة جموع غفيرة من التكفيريين لمنزل متواضع في قرية أبو مسلّم في محافظة الجيزة، وقتل وسحل الشيخ الأزهري المعروف حسن شحاتة وثلاثة آخرين، لا لشيء إلا لأن الشيخ حسن شحاتة ومن معه، مسلمون مصريون شيعة، ومن يقتل شيعياً ويسحله ويمثل به، فله الجنة. وقد دفع هذا الأمر بشيخ الأزهر الأكبر الدكتور أحمد الطيب إلى أن يصرّح «بأنّ قتل الشيعة من أكبر الكبائر وأشدّ المنكرات».

الفصل الأول

العقل والإيمان عند العلماء المسلمين والفلاسفة

أولاً ـ العقل

معنى العقل:

العقل إسم مجرد يطلق على آلة المعرفة وحاملها ومركز التفكير والتعقل والأحكام عند الإنسان. ويولد الإنسان وهو مزود بقابلية التعقل والإدراك بالفطرة، ومنها التسليم بالمبادىء العقلية الأولية الكلية اليقينية السابقة على كل معرفة: كمبدأ الهوية، ومبدأ عدم التناقض، ومبدأ الثالث المرفوع، ومبدأ العلية. وبه يميز الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والحسن من القبح.

وهو ملكة متعالية تميز النوع الإنساني عن غيره من الأنواع الحيوانية. ولذا، يعرف الإنسان بأنه حيوان عاقل أو مفكر. وعندما يفقد الإنسان صفة العقلانية يفقد أهليته الإنسانية، ويحجر عليه، ويصبح مجرد حيوان كسائر الحيوانات العجماوات برأي بعض الفلاسفة، كالفيلسوف الفرنسي رينه ديكارت. وقد جاء في الآية الثانية والعشرين من سورة الأنفال في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾. وعن النبي محمدﷺ: «رفع القلم [أي الحدّ] عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يفيق، والصبي حتى يبلغ الحلم».

العقل في اللغة.

هو الرابط بين الأمور والحِجر والنُهى. ويسمى العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، ويمنع النفس من التصرف على مقتضى الطبع والأهواء.وحده أنه قوة فطرية ـ ونور روحاني ـ يدرك الأشياء ويميز حسنها وقبحها، وكمالها ونقصانها، وخيرها وشرها؛ ويكسب النفس الحكمة من خلال التجارب والمعارف. وعلاقة العقل بالمعرفة علاقة جدلية باستمرار. فإذا كان هو من ينتج العلم والمعرفة، فإن العلم والمعرفة يعيدان أيضاً إنتاجه على الدوام، إذ كلما ازداد العقل علماً ومعرفة، ارتقى في سلم المعرفة ومراتب التعقل ودرجاته.

وفي لسان العرب لابن منظور المصري: العقل هو النُهى ضد الحمق، والنُهية: العقل، سميت بذلك لأنها تنهى عن القبيح. وفي القاموس المحيط للفيروز آبادي: العقل هو العلم، أو العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها، وكمالها ونقصانها، أو العمل بخير الخيرين وشر الشرَّين، أو العلم بمطلق الأمور.

وفي اللغة إجمالاً، العقل هو اللب، واللب هو القلب. والقلب هو العقل الذي يميز ويعقل، والقلب الذي يعقل هو الذي يوجس خيفة من الأشياء أو يستأنس بها، فينفر منها أو يقبل عليها.

وعن علي بن أبي طالب: المرء بأصغريه: قلبه ولسانه.

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

العقل في الفلسفة الإسلامية:

العقل عند الكندي والفارابي وابن سينا وغيرهم من الفلاسفة المسلمين، جوهر بسيط يبقى بعد موت البدن. وهو الأنا المفكرة،

والإنسان في الحقيقة. وقد خلقه الله لادراك المعاني الكلية والحقائق المطلقة، كما خلق العين لإدراك الأشكال والألوان، والأذن لسماع الأصوات. وهذا الجوهر البسيط قابل لتعقل الأشياء والمعاني على حقيقتها أو المدرك للأشياء بحقائقها، كقبول المرآة لما يعرض لها من الصور والأشكال ذوات الألوان والأصباغ. وهذا الجوهر قائم بنفسه حامل للأعراض، لا تتغير ذاتيته ولا يقبل الفساد.

وللعقل مستويات أو مراتب عدة، منها:

١ ـ **العقل الهيولاني أو العقل بالقوة** Intellect en Puissance

وهو كناية عن الاستعداد المحض لاكتساب المعارف وإدراك المعقولات. وهو ينسب إلى الهيولى الأولى لأنه يشبهها من حيث خلوها في حدّ ذاتها من الصور. كما يشبه الصفحة البيضاء الخالية من المعلومات التي لم ينقش عليها رسم ما، ولم يخط عليها حرف ما، والمهيأة لقبول أو استقبال ذلك، كحال الصبي وهو في المهد أو الصغر الذي لا يكون له شيء من المعلومات، ولكن فيه الاستعداد بالقوة لتحصيلها.

٢ ـ **العقل بالملكة** Intellect - Habitude

وهو استكمال العقل الهيولاني أو العقل بالقوة حتى يصير قوة قريبة من الفعل. وهو الحالة التي يصبح فيها العقل [أو الصغير] مميزاً بين الأمور، وعالماً بالضروريات العقلية، ومستعداً لاكتساب النظريات.

٣ ـ **العقل بالفعل** Intellect en acte

وهو استكمال العقل بحصوله على المعقولات النظرية من طريق

الاكتساب بحيث يستطيع تعقلها واستحضارها متى شاء، أي الحالة التي تكون فيه المعقولات النظرية حاصلة في الذهن وحاضرة فيه دائماً.

٤ ــ العقل المستفاد Intellect acquise

وهو ماهية مجردة عن المادة تكون النظريات حاضرة فيه لا تغيب عنه إطلاقاً. وإذا أصبح العقل المستفاد شديد الاتصال بالعقل الفعال كأنه يعرف كل شيء من نفسه، أصبح عقلاً قدسياً Saint. وهذه هي حالة الانبياء والفلاسفة.

٥ ــ العقل الفعّال Intellect actif; Agent

ويسميه الفلاسفة العقل العاشر الذي يدبر شؤون الأرض. وهو أول وجود مستفاد من الموجود الأول. وهو عقل مفارق لا إنساني تفيض عنه الصور على عالم الكون والفساد، أي العالم الأرضي. وهو الواسطة بين عالم الغيب وعالم الشهادة أو الأرض. وحدّه أنه جوهر صوري ذاته ماهية كلية مجردة عن المادة، من شأنها أن يخرج العقل الهيولاني من حال القوة إلى الفعل باشراقة عليه، كحال الشمس بالنسبة إلى القوة الباصرة، إذ بها يخرج الابصار من القوة إلى الفعل ويتم إبصار المبصرات.

ويسمي الفلاسفة العقول الفعالة بالملائكة السماوية. والملائكة أجسام لطيفة بريئة عن المادة متحيِّزة عند أكثرهم، وهي نفوس الأفلاك الحية ومبدأ حركتها. ويخالفهم في ذلك المتكلمون الذين ينكرون عليهم ذلك، إذ لا وجود لقائم بنفسه غير متحيِّز عندهم إلّا الله تعالى وحده.

ويسمي الفارابي العقل الفعال: روح القدس أو الروح الأمين، وهو

همزة الوصل بين العالم العلوي والعالم الأرضي الذي يدبر شئون ما تحت فلك القمر.

ويعرف إبن خلدون العقل بقوله: «العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها. غير أنك لا تطمع أن تزن به... ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال. ومثال ذلك، مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع أن يزن به الجبال...». والفلاسفة عموماً يقسمون العقل إلى:

١ ـ **عقل نظري** Spéculative ينصب على الإدراك والمعرفة سواء كانت جزئية أو كلية.

٢ ـ **عقل عملي** Pratique وينصب على الأخلاق والسلوك.

العقل في الفلسفة الغربية

العقل عند الفيلسوف الفرنسي رينه ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م) هو «قوة الإصابة في الحكم». وهو استعداد فطري طبيعي لتمييز الخير من الشر، والحسن من القبيح، والخطأ من الصواب، تمييزاً مباشراً من دون قياس أو تفكير. وبه يتميز الإنسان من الحيوان. وعندما يفقد الإنسان عقله يصبح مجرد حيوان أعجمي كسائر الحيوان. وهو أعدل الأشياء قسمة أو توزعاً بين الناس.

والعقل عند الفيلسوف الألماني عمانوئيل كنط (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م) هو الملكة الفكرية العالية التي تستطيع تعقل المعاني الكلية المجردة، كمعنى الله، والعالم، والنفس، والكمال، واللانهاية. وهو يطلق إسم العقل النظري أو العقل المحض Raison Pure; Spéculative على كل ما هو قبلي في الفكر أو العقل، أي على مبادىء المعرفة العقلية القبلية أو الفطرية

الضرورية Apriori للمدركات العلمية، كمبدأ عدم التناقض، ومبدأ السببية، والغائية، والعلية، والخير، والشر، والواجب، والزمان والمكان. كما يطلق إسم العقل العملي Raison Pratique على مبادىء المعرفة القبلية لقواعد الأخلاق.

ويرى الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨م) أن كل إنسان يملك قوة تعرف باسم الضمير، يميز بين الخير والشر، ووجوب فعل الخير واجتناب الشر، وأنه أعدل القضاة. والدليل على وجوده: اشتراك جميع الناس في كثير من الأمور، مثل: الرحمة، والمروءة، والالتزام بالوفاء بالعهد.

وجميع الفلاسفة العقلانيين، كديكارت، واسبينوزا، ولايبنتز، وهيغل... الخ، يرون أن كل ما هو عقلي موجود واقعياً وبالعكس، وأن العقل قادر على معرفة كل شيء من دون الحاجة إلى الدين، لأن قوانين العقل مطابقة لقوانين الأشياء الخارجية. أما الفلاسفة التجريبيون، كجون لوك، وباركلي، وديفيد هيوم، الخ..، فيرون أن كل ما هو موجود في العقل من إدراكات، ناشىء عن الحس والتجربة.

والفلاسفة المثاليون والحدسيون والظاهراتيون الفرنسيون والألمان: هيغل، برغسون، هيدغر، هوسرل،... الخ، يرون أن العقل يملك الطاقة المباشرة والقدرة على النفاذ إلى أعماق الوجود وإدراك ماهية الأشياء على حقيقتها. أما الفلاسفة الماديون والوجوديون الفرنسيون والانكليز فيرون أن العقل أسير المتناهي موطن الادراك الحسي الممكن، وأن معرفة اللامتناهي والأشياء على حقيقتها مجرد وهم من أوهام العقل، ما يعني أنهم يجعلون للعقل حدوداً معرفية لا يمكن أن يتخطاها.

العقل في القرآن الكريم.

لم ترد لفظة العقل بذاتها في القرآن الكريم، وإنما ورد ما يرادفها في اللغة وفي المعنى. فمن مرادفات العقل اللغوية في القرآن: النهى ـ الألباب ـ القلب. ومن مرادفات معنى العقل: التعقل ـ التفكر ـ التفقه ـ التبصر.

أولاً ـ مرادفات اللغة

١ ـ **النهى**: جاء في الآيتين ٥٤ و١٢٨ من سورة طه:

ـ ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [أي لذوي العقول من الناس].

ـ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [أي ألم يبين لأهل مكة ما فعلنا في مساكن القرون الماضية إن في ذلك لعلامات لذوي العقول].

٢ ـ **الألباب**: جاء في الآيات: ١٧٩ و١٩٧ و٢٦٩ من سورة البقرة:

ـ ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿...وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾.

ـ ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾.

وجاء في الآيتين: ٧ و١٩٠ من آل عمران:

ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ

مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

- ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

وجاء في الآية ١٠٠ من سورة المائدة:

﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

- وجاء في الايتين ١٧ - ١٨ من سورة الزمر:

- ﴿...فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

وجاء في الآية ١١١ من سورة يوسف:

- ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ...﴾ [أي في قصص يوسف وإخوته].

٣ - القلب: هو العضو الصنوبري الشكل المستقر في التجويف الأيسر من الصدر. وهو الذي ينظم حركة الدم على سائر أجزاء الجسم ومنها المخ. وبذلك فهو السبب المباشر في حياة المخ ونشاطه. فإذا سلمنا بأن المخ هو أداة التفكير والشعور وأن القلب هو أداة الحياة نفسها تبين لنا مدى قيام التفكير والشعور على القلب.

وقد جُعِل القلب في الآيات التي وردت في القرآن الكريم تارة للدلالة على التفكير والتعقل والهداية والاطمئنان، وتارة للدلالة على

الإيمان والتقوى، وتارة على الشك والارتياب، وتارة على الرأفة والرحمة والتطهر، وتارة على اتباع الأهواء وعدم قبول الموعظة، وتارة على الغلظة والقسوة... الخ. فقد جاء في الآيات: ٧ و١٠ و٩٣، و١١٨ و٢٦٠ من سورة البقرة:

- ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

- ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

- ﴿...وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. [دلالة على المرض والشك والريبة].

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. [دلالة على الايمان والطمأنينة].

وجاء في الآية ٢ من سورة الأنفال:

- ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [دلالة على الإيمان والتقوى].

وجاء في الآية ٤٦ من سورة الحج:

- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ

بِهَآ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾. [دلالة على التفكر والتعقل].

وجاء في الآية ١٦ من سورة محمد:

- ﴿...أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [دلالة على النفاق واتباع الأهواء].

وجاء في الآية ٧٨ من سورة النحل:

- ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾. [دلالة على الرحمة والرأفة والمحبة].

وجاء في الآية ١٥٩ من سورة آل عمران:

- ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [دلالة على الرحمة والقسوة والغلظة].

وجاء في الآيتين: ٣٦ و٣٧ من سورة ق:

- ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾. [دلالة على التفكر والاتعاظ].

ثانياً ـ مرادفات المعنى.

١ ـ التعقل

جاء في الآية ١٦٤ من سورة البقرة:

- ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي

فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [أنظر أيضاً الآية ٧٣ و٧٦ من سورة البقرة].

وجاء في الآيتين ٦٥ و١١٨ من سورة آل عمران:

- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وجاء في الآيتين ٣٢ و١٥١ من سورة الأنعام:

- ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

- ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وجاء في الآيتين ٢ و١٠٩ من سورة يوسف:

- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وجاء في الآية ٨٠ من سورة المؤمنون:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وجاء في الآية ٦١ من سورة النور:

- ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وجاء في الآية ٦٧ من سورة غافر:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وجاء في الآية ٢٢ من سورة الأنفال:

- ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وجاء في الآية ١٢ من سورة النحل:

- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٢ ـ التفكر

جاء في الآيتين ٢١٩ و٢٦٦ من سورة البقرة:

ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

ـ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

وجاء في الآية ٥٠ من سورة الأنعام:

ـ ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

وجاء في الآيتين ١٩٠ ـ ١٩١ من سورة آل عمران:

ـ ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

وجاء في الآية ٤٢ من سورة الزمر:

ـ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

[انظر أيضاً: الآية ١٧٦ من سورة الأعراف والآية ٢٤ من سورة يونس... الخ]

٣ ـ التفقه:

جاء في الآيتين ٦٥ و٩٨ من سورة الأنعام:

ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

وجاء في الآية ١٧٩ من سورة الأعراف:

ـ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾.

وجاء في الآية ٣ من سورة المنافقون:

ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

وجاء في الآيتين ٨٧ و١٢٢ من سورة التوبة:

ـ ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وجاء في الآية ٧٨ من سورة النساء:

- ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

٤ ـ التبصر:

جاء في الآيتين ٢٠ ـ ٢١ من سورة الذاريات:

- ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

وجاء في الآية ٨٥ من سورة الواقعة:

- ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾.

وجاء في الآية ٥١ من سورة الزخرف:

- ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

وجاء في الآية ١٠٤ من سورة الأنعام:

- ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾.

وجاء في الآيتين ١٦ ـ ١٧ من سورة البقرة:

- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

العقل في السنة النبوية:

عن النبي ﷺ:

ـ «أول ما خلق الله العقل. فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت مخلوقاً أكرم عليّ منك، بك آخذ وبك أُعطي، وبك أثيب وبك أعاقب»[1].

ـ «أصل ديني العقل. ولا دين لمن لا عقل له».

ـ «رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق، والنائم حتى يستيقظ، والصغير حتى يبلغ الحلم».

ـ «إنما يدرك الخير كله بالعقل ولا دين لمن لا عقل له».

ـ «لكل شيء عدة، وآلة المؤمن وعدّته العقل. ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل. ولكل شيء غاية وغاية العبادة العقل. ولكل قوم راع وراعي العابدين العقل. ولكل تاجر بضاعة، وبضاعة المجتهدين العقل. ولكل خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل».

ـ عن عائشة أم المؤمنين (رض): قلت يا رسول الله: بما يتفاضل الناس في الدنيا؟ فقال: بالعقل. قلت: وفي الآخرة؟ قال: بالعقل».

ومن سنة الأئمة عند المسلمين الشيعة الاثني عشرية: عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

ـ «المرء بأصغريه: قلبه (عقله) ولسانه».

ـ «مثل العقل في القلب كمثل السراج في وسط البيت».

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط.

ـ «العقل مركب العلم... ورسول الحق... يهدي وينجي... [و] أفضل حظ الرجل عقله. إن ذل أعزه، وإن سقط رفعه، وإن ضلّ أرشده، وإن تكلم سدده، لا يستعان على الدهر إلا بالعقل»[1].

ـ «لا غنى كالعقل، ولا فقر كالجهل، ولا ميراث كالأدب...».

وعنه أيضاً، كما جاء في نهج البلاغة: «الحمد لله الذي شرع الإسلام فسهل شرائعه لمن ورده، وأعز أركانه على من غالبه فجعله أمناً لمن علِقه، وسِلماً لمن دخله، وبرهاناً لمن تكلم به... ونوراً لمن استضاء به، وفهماً لمن عَقل، ولبّاً لمن تدبر...»[2].

وعن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام:

«إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة. فأما الحجة الظاهرة فالرسل والأنبياء، والأئمة. وأما الباطنة فالعقول».

«من كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنة».

العقل عند العلماء المسلمين:

العقل هبة من الله ونعمة كما السمع والبصر... لا يملك الإنسان أن يعطيها لنفسه أو يمنعها عن نفسه أو يهبها لغيره. ويسمى العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن الوقوع في المهالك أو التورط فيها، ويرشده إلى ما هو فيه خيره وصلاحه. وهو القوة العاقلة في النفس التي تدرك الأشياء والأمور، وتميز الخير من الشر، والأمور القبيحة والمستهجنة من الأمور الحسنة والمقبولة، وبها يعرف الله، ويحصل للنفس العلم المباشر

(١) بحار الأنوار، ج١، ص٩٥.
(٢) الجزء الأول، تحقيق محمد عبده، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ص٢٥٣.

بالحقائق المطلقة. وقد خلقه الله لادراك هذه الحقائق كما خلق العين لإدراك الأشكال والألوان، والأذن لسماع الأصوات.

ولذا، فهو مناط التكليف والثواب والعقاب والمسئولية في تصرفات الإنسان مع الآخرين وسلوكه تجاه الله، ولا مسئولية دينية أو وضعية على كل فاقد للعقل أو غير مميز كالمجنون والمعتوه.

وكونه علة لصحة التكليف والثواب والعقاب، فهو حرّ في خياره. وحتى يكون حراً لا بد وأن يكون مريداً. وحتى يكون مريداً لا بد وأن يكون قادراً، وحتى يكون قادراً لا بد وأن يكون مخيراً ومختاراً بين الإيمان وعدمه، وبين الخير والشر (الأخلاق). وحتى يكون كذلك، لا بد وأن يكون حراً وليس مجبراً.

والاسلام يعتبر العقل الركيزة الأساسية للإيمان، داعياً الإنسان إلى التأمل والتفكر في وجود العالم والخلق، كما في نفسه. والقرآن الكريم يستخدم المنهج الاستدلالي الاستقرائي للتدليل على الأشياء من حيث وجودها وخلقها. فقد جاء في الآيتين ٢٠ و٢١ من سورة الذاريات:

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

- وجاء في الآيات ١٧ - ٢٠ من سورة الغاشية:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾.

- وجاء في الآية ٢٠ من سورة العنكبوت:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ...﴾

- وجاء في الآية ١٦٤ من سورة البقرة:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى

تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

ـ وجاء في الآيتين ٧٠ و٧٢ من سورة الاسراء:

﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾.

كما أن الإسلام يعدّ التفكير وظيفة العقل الأساسية وفريضة دينية واجبة. وقد جعل طلب العلم من الفرائض التي لا تقل أهميتها عن الصلاة والصوم والزكاة والحج. فقد جاء في الآية ١١ من سورة المجادلة والآية ٩ من سورة الزمر والآية ٢٨ من سورة فاطر والآية ٤٣ من سورة العنكبوت والآية ٣٢ من سورة الأعراف والآية ٧ من سورة آل عمران والآية ٣٣ من سورة الرحمن والآية ٢٢ من سورة التوبة.

﴿...يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾.

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾.

﴿يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾.

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ

تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةًۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وعن النبي محمد ﷺ:

«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

«من سافر في طلب العلم كان مجاهداً في سبيل الله، ومن مات وهو مسافر يطلب العلم، كان شهيداً».

«العلماء ورثة الأنبياء».

«علماء أمتي خير من أنبياء بني إسرائيل».

وكان جابر بن حيان يرى أن: «العلم نور، وكل علم عقل، فكل عقل نور...».

والمسلمون الأماميون يعتبرون العقل بمثابة الحاكم الشرعي القادر على استكشاف الحكم الشرعي الصحيح في كل الأمور أو الأفعال التي لا نص صريح عليها. ولذا يعدونه المصدر الرابع من مصادر التشريع في الإسلام.

وقد غالى علماء الكلام المعتزلة في نظرتهم إلى العقل. فقد أقاموا منهجهم الكلامي على العقل والمنطق أولاً والنص ثانياً. ورأوا أن الشرع لم يأت مطلقاً بما يخالف العقل. وكل ما جاء به الشرع يوجبه العقل أو

يجوزه. أي أن الشرع لم يأت إلّا بما يوجبه العقل أو يجوزه. وإذا كان الله يأمر بالحسن فلكونه حسناً في ذاته قبل الأمر به؛ وإذا كان ينهى عن القبح فلكونه قبحاً في ذاته قبل النهي عنه. والعقل الانساني يدرك قبح أو حسن الأفعال في حدّ ذاتها، لأننا نرى كل شخص عاقل يدرك قبح البخل والظلم والكذب، وحسن الكرم والعدل والصدق والعفو والإحسان، حتى ولو لم يكن مؤمناً بالله، مما يعني ويكشف عن كون الحسن والقبح صفتين ذاتيتين للافعال، ولا تتوقفان على الأمر والنهي الإلهي. وهذا الأمر يعني أن الحسن عند المعتزلة هو ما يحسنه العقل، والقبح هو ما يقبحه العقل [مبدأ التحسين والتقبيح العقليين].

إن المعتزلة يعتبرون أن الظلم والعدل يحملان في طبيعتهما علة تأثيرهما المستلزمة للحكم بتقبيح الظلم وتحسين العدل. والصدق والكذب كالعدل والظلم، يحملان في طبيعتهما علة تأثيرهما المستلزمة للحكم فيما لو خلي بينهما وتأثيرهما الطبيعي. أي أن الصدق لا يمكن إلّا أن يكون حسناً والكذب لا يمكن إلّا أن يكون قبيحاً، لاقتضاء طبيعة الصدق والكذب ذلك، لأن الموضوع يقتضي دائماً محموله. أما عند اندراج الصدق والكذب ـ مثلاً ـ، تحت عنوان آخر خاص بفعل من الأفعال الجزئية، كما في حال الضرورة القصوى، مثلاً، فمن الطبيعي والحال هذه أن يتغير محمول العنوان ويرتفع الاضطراد. ولذا، فإنه عند قيام مزاحم للصدق أو الكذب بحيث يمنع من اقتضاء طبيعتهما وتأثيرهما، كأن يكون في الصدق ما يوجب القتل البريء، وفي الكذب ما يدفع فتنة أو مفسدة، يرتفع اقتضاء تأثير العنوان في موضوعه، ويرتفع محموله لأهمية المزاحم.

وبناء على ما تقدم، فإن المعتزلة يختلفون عن غيرهم في تعداد

الأدلة الشرعية وترتيبها. وهم يقدمون دليل العقل على القرآن الكريم، والسنة، والاجماع، ويرون أنه الأصل فيها جميعاً لأن به يعرف صدقها، وبواسطته تكتسب قيمة الدليل وحجيته، وذلك لأن حجية القرآن متوقفة على حجية النبوة، وهما متوقفتان على التصديق بالله لأنه مصدرهما، فوجب أن يكون لاثبات الألوهية دليل سابق عليهما، وهذا الدليل هو العقل. وفي هذا الصدد يقول قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد المعتزلي في كتابه **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**[1]: «إن الأدلة أولها: دلالة العقل، لأن به يميز بين الحسن والقبح، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة، والاجماع. وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم فيظن أن الأدلة هي: الكتاب والسنة، والاجماع، فقط، أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر، وليس كذلك، لأن الله تعالى لم يخاطب إلّا أهل العقل، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة، والاجماع، فهو الأصل في هذا الباب، وإن كنا نقول: إن الكتاب هو الأصل من حيث أن فيه التنبيه على ما في العقول كما أن فيه الأدلة على الأحكام. وبالعقل يميز بين أحكام الأفعال وبين أحكام الفاعلين، ولولاه لما عرفنا من... يحمد ومن يذم، ولذلك تزول المؤاخذة عمن لا عقل له. ومتى عرفنا بالعقل إلهاً منفرداً بالإلهية، وعرفنا حكيماً، نعلم في كتابه أنه دلالة، ومتى عرفناه مرسلاً للرسول ومميزاً له بالأعلام المعجزة، من الكاذبين، علمنا أن قول الرسول حجة. وإذا قالﷺ: لا تجتمع أمتي على خطأ، وعليكم بالجماعة» علمنا أن الإجماع حجة...».

وكان من الطبيعي لمن يقدمون العقل على غيره من الأدلة في أمور الدين أن يعتبروه المرجع والأصل في كل ما يتعلق بأمور الدنيا ويقدموه

(١) تحقيق فؤاد سيد، طبعة تونس، ١٩٧٢، ص٣٣٢.

على غيره. ولذا، يقول أبو الحسن الماوردي في كتابه أدب الدين والدنيا[١] إن المعتزلة يرون «أن لكل فضيلة أساً، ولكل أدب ينبوعاً، وأسّ الفضائل وينبوع الآداب هو العقل، الذي جعله الله تعالى للدين أصلاً وللدنيا عماداً، فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه، وألف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم، وتباين أغراضهم ومقاصدهم، وجعل ما تعبدهم به قسمين: قسماً وجب بالعقل، فوكده الشرع، وقسماً جاز في العقل، فأوجبه الشرع، فكان العقل لهما عماداً...».

وقد رأى أبو عثمان الجاحظ (ت: ٨٦٨م) التي تنسب إليه فرقة الجاحظية من المعتزلة، أن العقل «هو وكيل الله في الإنسان».

أما علماء الكلام الأشاعرة فقد أنكروا على المعتزلة ولعهم بالكلام الذي امتزج بالمنطق الصوري الأرسطي وأشكاله وضروبه المختلفة وتأثرهم بآراء الفلاسفة، وإيجابهم فعل الأصلح على الله، وجعلهم الحسن ما يحسنه العقل والقبح ما يقبحه العقل؛ ورأوا أن الله يفعل الأصلح لعباده منّاً وتفضلاً؛ وقالوا بالتحسين والتقبيح الشرعيين، فكانوا أقرب إلى الوحي والشرع منهم إلى العقل؛ كما قالوا إن إشادة القرآن الكريم بالعقل لا يعني تحسين كل شيء أو تقبيحه بالنظر العقلي وحده، ولا إيجاب الأصلح على الله، لا لأن الله تعالى لا يفعل الأصلح لعباده وإنما لفساد هذا التعبير وسوء أدبه مع الله الرحمٰن الرحيم.

ويمكن القول بصورة عامة، إن كلاً من المعتزلة والأشاعرة رفضوا الإيمان من دون نظر وأوجبوا الايمان بالعقل لا بالفطرة أو الولادة.

---

(١) تحقيق مصطفى السقا، ط القاهرة، ١٩٧٣، ص١٩.

وكان الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت: ٢٠٤هـ) يقول لطلابه: «إذا ذكرت لكم ما لم تقبله عقولكم فلا تقبلوه، فإن العقل مضطر إلى قبول الحق».

وقد اعتبر شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء، سجين المحبسين، أبو العلاء المعري (٩٧٩ ـ ١٠٥٨م) أن العقل: إمام يهدي الإنسان في صبحه ومسائه، قائلاً: كذب الظن لا إمام سوى العقل، مشيراً في صبحه والمساء.

وفي العصر الحديث، رأى الإمام الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) «أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين. فالدين عرف بالعقل، ولا بد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معاً حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة في المدنية الجديدة... ومن حسن حظ المسلمين أن دينهم يشرح صدره للعلم ويحض عليه، وللعقل ويدعو إليه...»[1]. وهو في كتابه **الإسلام دين العلم والمدنية** يقدم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض بينهما[2]. وهو كالفيلسوف الألماني كنط رأى استحالة العلم بالشيء في حدّ ذاته أو معرفة كنهه وماهيته، لأن العلم يقف عند معرفة ظواهر الشيء أو عوارض بعض الكائنات. فهو يقول في كتابه **رسالة التوحيد**: إن غاية كمال العقل الإنساني «الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني حساً كان أو وجداناً أو تعقلاً، ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها وتحصيل كليات لأنواعها والاحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها، وأما الوصول

(١) محمود حمدي زقزوق، الحضارة فريضة إسلامية، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨، ص١٠٣، ٣٢٧.

(٢) مصر، دار الهلال (د.ت) ص٩٦.

إلى كنه حقيقة ما، فمما لا تبلغه قوته، لأن اكتناه المركبات إنما هو باكتناه ما تركبت منه وذلك ينتهي إلى البسيط الصرف، وهو لا سبيل إلى اكتناهه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره»[1].

ويرى جميع العلماء المسلمين قديماً وحديثاً أن إشادة الإسلام بالعقل وأحكامه ودعوة العرب وغير العرب إلى التحرر من التقاليد والخرافات والأوهام، لا يعني أن العقل قادر على إدراك كل حكم من أحكام الشريعة وكل أصل من أصوله. ولو كان للعقل مثل هذه الخاصية لوجب أن يؤخذ الدين من العلماء والفلاسفة لا من الأنبياء وكتب الله، ولما قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2]، ولما كنا بحاجة أصلاً إلى كل الأديان.

إن للعقل مجاله ودائرة اختصاصه [عالم الشهادة] وللدين مجاله ومواضيعه [عالم الغيب]. والإنسان العاقل السوي بحاجة إلى العقل والدين معاً حيث لا تعارض بينهما في دائرة كل منهما. وعلى الإنسان أن يسلم بما يستقل به العقل من أحكام ولا يصدق شيئاً يكذبه العقل ويأباه، كما أن عليه أن يسلم بأن العقل لا يعلم ولا يدرك كل شيء؛ وإنما يدرك شيئاً ولا يعلم ولا يدرك شيئاً. والذي يعلم ويدرك كل شيء في الأرض كما في السماوات هو الله تعالى وحده. فوجود الله وعلمه وإرادته، والعالم وما فيه من خلق وتنظيم دقيق بديع، وإعجاز القرآن الدال على نبوة محمد، يدركه العقل من خلال البراهين على ذلك. أما الأمور الغيبية أو الميتافيزيقية، كوجود الملائكة والجن، والجنة والنار، والثواب

---

(١) (عن) عباس محمود العقاد، محمد عبده، وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر، (د.ت)، ص٢٤٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

والعقاب، وشهادة الأيدي والأرجل على أصحابها في الآخرة، واستجواب منكر ونكير... الخ فهذه أمور ليس بمقدور العقل إثباتها أو نفيها.

لقد رفض علماء الكلام من الأشاعرة والماتريدية والاعتزال إيمان التقليد أو الإيمان من دون تفكر ونظر، وأوجبوا الإيمان بالعقل لا بالشرع أو الفطرة، قائلين: «لا يكون مسلماً إلا من استدل» على حدّ قول إبن حزم الظاهري في كتابه: الفصل بين الملل والأهواء والنحل[1]. ولكنهم مع ذلك، لم يعتبروا أن العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة، وإنما رأوا أن هناك مصدراً آخر أعلى منه مرتبة وهو الوحي الذي يوائم بين منقول الأنبياء والمعقول. وهم يدعون إلى التوفيق بين قدرات العقل البشري على المعرفة وبين الوحي الذي يقيه من الشطط والضلال والخطأ. وقد نص القرآن الكريم في الآية ١٥ من سورة الإسراء على أنه لا ثواب ولا عقاب على الإنسان قبل بعث الرسل.

وقد ميزوا بين نوعين من المباحث العقدية: العقليات والسمعيات. فالعقليات هي ما ورد بها الشرع ودلت عليه الشواهد العقلية. والسمعيات هي المسائل الماورائية كاليوم الآخر وحشر الأجساد وذات الله وصفاته التي لا دليل عليها أو بالأحرى لا تخضع للتفسير العقلي البحت. ولكن ما جاء به الشرع في هذه السمعيات لا يتعارض مع المنطقي والمعقول أو موافقة المعقول.

ونظراً لكون المعتزلة قدموا العقل على النص قائلين إن فهم النص موقوف على العقل، وعارضهم في ذلك الأشاعرة الذين قدموا النص

(١) ٤/ ٣٥.

على العقل من دون أن يقللوا من أهمية العقل في فهم النص؛ ونظراً لكون المسلمين الإمامية وقفوا موقفاً وسطاً بين المعتزلة الذين غالوا في نظرتهم إلى العقل، والأشاعرة الذين بخسوا دور العقل كحاكم شرعي عند افتقاد النص، وعدوا ـ أي الإمامية ـ العقل دليلاً شرعياً من أدلة التشريع في الإسلام، قادراً على استكشاف الحكم الشرعي في كل الأمور والأفعال التي لا نص عليها؛ ونظراً للأهمية الكبرى التي يوليها الإسلام للعقل، لأن الخطاب القرآني موجه أولاً وآخراً إلى العقل، وهو الفيصل والحكم في فهمه، ونظراً لاختلاف المتكلمين والعلماء المسلمين في طبيعة العقل ودوره، فإننا نرى من المفيد أن نلقي مزيداً من الضوء على العقل كدليل رابع كاشف عن الحكم عند المسلمين الإمامية، بعد القرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع، ورأي الكلاميين والعلماء في ذلك.

١ ــ تعريف العقل عند المسلمين الإمامية.

يرى المسلمون الإمامية أن العقل هو الدليل الرابع من الأدلة الأربعة على الأحكام الشرعية الفرعية، وهي: الكتاب، والسنة، والاجماع، والعقل. وهم يقولون: «إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأما الظاهرة، فالرسل والأنبياء والأئمة ﷺ، وأما الباطنة فالعقول». كما يقولون: إن ما يحكم به العقل الذي يثبت به الحكم الشرعي ينقسم إلى قسمين: ما يستقل به العقل وحده، أي ما يحكم به العقل بالبداهة، وما لا يستقل به وحده في الحكم لحاجته في ذلك إلى توسط بيان شرعي أو مقدمة شرعية. ومعنى حكم العقل ليس إلّا إدراك ما ينبغي أن يعلم بالفطرة والبداهة من قبل جميع العقلاء، مثل: الكل أكبر من الجزء، وحسن العدل والصدق، ومدح العلم وذم الجهل، وشكر المنعم، وقبح الظلم، والقتل، والتعذيب، والكذب، والعقاب بلا حق أو بيان، ووجوب

مقيد ـ؛ والعلل الحقيقية للأحكام الشرعية: المقتضى، والشرط، وعدم المانع، الخ... وبالتالي، إدراك الأحكام الشرعية، ليس من طريق الاستخراج من الشواهد الدالة عليها المؤدية إليها، من قياس واستحسان.. الخ، وإنما من خلال التلازم القائم بين أحكام العقل وأحكام الشرع وعدم تعارضها، كاستحالة اجتماع النقيضين أو رفعهما عند العقل، واستحالة الأمر بشيء والنهي عنه أو الأمر بضده في الشرع. واستحالة تحسين الشر وتقبيح الخير أو الحسن عند العقل وفي الشرع. وأن التنظيم والاحسان والعدل والانصاف والصدق والكذب النافع الذي يبرىء المظلوم ويمنع الفتنة، من الأمور الحسنة؛ والفوضى، والكذب مع عدم الضرورة، والتعدي على الآخرين، من الأمور المستقبحة. وأن قضاء الدين وردّ العارية، من الأمور الواجبة. وأن الثواب والعقاب ممتنعان عن الخلق قبل بعث الرسل. وهذا معناه عند الإمامية، أن الإدراك أو الحكم العقلي يوصل إلى الحكم الشرعي. وفي هذا الصدد يرى الغزالي في كتابه **المستصفى** أن العقل يدل على براءة الإنسان من كل التكاليف والواجبات قبل بعث الرسل، وأننا على استصحاب ذلك إلى أن يرد دليل بغير ذلك، قائلاً: «إعلم أن الأحكام السمعية لا تدرك بالعقل، ولكن دلّ العقل على براءة الذمة عن الواجبات وسقوط الحرج عن الخلق في الحركات والسكنات قبل بعثة الرسل ﷺ، وتأييدهم بالمعجزات، وانتفاء الأحكام معلوم بدليل العقل قبل ورود السمع، ونحن على استصحاب ذلك إلى أن يرد السمع. فإذا ورد نبي وأوجب خمس صلوات فتبقى الصلاة السادسة غير واجبة، لا بتصريح النبي بنفيها، لكن كان وجوبها منتفياً... فإذاً، النظر في الأحكام إما أن يكون في إثباتها أو في نفيها. أما

إثباتها فالعقل قاصر عن الدلالة عليه وأما النفي فالعقل قد دل عليه...»[1].

وإذا كان الإمامية قالوا: إن الحسن والقبح أمران عقليان وشرعيان، وإن الشرع يأمر بالشيء لأنه حسن، وينهى عنه لأنه قبيح. وقال الأشاعرة إن الحسن والقبح يستفادان من الشرع، فكل ما أمر به الشرع فهو حسن، وكل ما نهى عنه فهو قبيح، ولولا الشرع لم يكن حسن ولا قبح. وقال المعتزلة عكس ما قاله الأشاعرة؛ فإن هذا الأمر يقتضي معرفة مدى قابلية العقل للإدراك، ورأي العلماء في ذلك.

قابلية العقل للإدراك وراي العلماء في ذلك

إن قابلية العقل للإدراك وحجية مدركاته الشرعية ليست محل خلاف بين الفقهاء. وإنما محل خلافهم على مدى استقلالية العقل عن الشرع واعتباره شارعاً أو كاشفاً للأحكام بحد ذاته عند الإمامية، أي في خصوص مستقلاته العقلية، ولاسيما في مسألة الحسن والقبح العقليين، وتحسين الحسن وتقبيح القبح.

وبعبارة أوضح، إن الخلاف بين العلماء قائم حول تفرد العقل في إدراك الأحكام الشرعية دون توسط بيان شرعي في ذلك، أو في متعلق إدراكه الشرعي، كادراك العقل الحسن والقبح المستلزم لإدراك الشارع لهما، مثل، وجوب قضاء الدين من قبل المدين، ووجوب رد العارية أو الوديعة أو الأمانة كما هي، وحسن الصدق النافع، وقبح الظلم وحرمته، ومقت الكذب مع عدم الضرورة الخ..

---

(١) المستصفى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦، ص١٥٩.

أما المدركات العقلية المستندة إلى بيان شرعي، كادراك نهي الشارع عن الضد العام بعد الاطلاع على ايجاب ضده، فلا خلاف في شأنه بين العلماء بصورة عامة.

والذي لا شك فيه أن إدراك العقل للحسن أو القبح الشرعيين أو لما يجب فعله أو تركه، ما يزال من الأمور الخلافية بين العلماء. وبمعنى آخر، إن مقياس الحسن والقبح عند العلماء ما يزال أمراً خلافياً، قديماً وحديثاً.

أ ـ **فالأشاعرة** مثلاً يرون أن الفعل في حد ذاته ليس حسناً أو قبيحاً لصفة توجب ذلك، وإنما حسنه أو قبحه ورود الشرع بذلك. فما أمر به الشرع فهو حسن، سواء كان هذا الأمر على سبيل الوجوب أو الندب أو الإباحة، وما نهى عنه فهو قبيح، سواء كان هذا النهي على سبيل التحريم أو الكراهة، أي أن مقياس الحسن والقبح عند الأشاعرة هو الشرع وليس العقل.

فالصوم والصلاة والزكاة والحج والإحسان والأمانة، من الأفعال الحسنة، وحسنها ليس متأتياً من ذاتيتها نفسها، وإنما لأن الله أمر بذلك وأراد. والكذب والقتل بغير وجه حق والسرقة والزنا والربا والنميمة والافساد في الأرض والخيانة، من الأفعال القبيحة، وقبحها ليس متأتياً من ذاتيتها نفسها، وإنما لأن الله أمر بذلك ونهى عنها. ولو لم يكن لله أمر أو نهي بصددها لما كنا عرفنا حسنها أو قبحها.

وقد استدل الأشاعرة على رأيهم هذا، بأدلة عديدة، منها:

١ ـ لو كان الحسن والقبح أمرين عقليين لاختلف الناس والحال هذه فيما بينهم حول طبيعة الأفعال، لأن العقول ليست واحدة أو متشابهة

عند جميع الناس. فما قد يراه البعض حسناً قد يراه الآخر قبحاً والعكس، ولا سيما عندما يكون الفعل متعلقاً بشخص الذي يحكم وتدخل عوامل الأهواء والأغراض والمصالح في ذلك. حتى أن العقل الواحد قد يحكم على الفعل تارة بالقبح وتارة بالحسن. وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يعاقب الله تعالى من لم يدرك الحسن، ولم يتعرف على حكم الله الواجب في الأشياء، ولم يفعلها.

«لو كان الحسن والقبح عقليين، لاختلف الحكم على الأفعال من ناحية تحسينها وتقبيحها، إذ العقول متفاوتة في حكمها على الأفعال، فقد يعقل البعض حسناً فيما يقبحه الآخر والعكس، بل إن العقل الواحد قد يحكم على الفعل تارة بالقبح وتارة بالحسن، تحت تأثير الهوى والغرض أو مؤثرات أخرى»[(١)].

«ومن الناس من يظن أن الحسن والقبح صفة لازمة للموصوف. وأن معنى كون الحسن «صفة ذاتية له» هذا معناه. وليس الأمر كذلك، بل قد يكون الشيء حسناً في حال، قبيحاً في حال، كما يكون نافعاً ومحبوباً في حال، وضاراً وبغيضاً في حال. والحسن والقبح يرجع إلى هذا، وكذلك يكون حسناً في حال، وسيئاً في حال، باعتبار تغير الصفات»[(٢)].

[ويرد العلماء الإماميون القائلون بالتحسين والتقبيح العقليين على هذا الاستدلال الأشعري بقولهم: إن العقول قد تختلف فيما بينها حول الأمور الجزئية وليس الكلية. فمناط العقل: الكليات، مثل: إدراك أن الكل

(١) محمد سلام مدكور، مباحث الحكم عند الأصوليين، مصر، مطبعة لجنة البيان العربي، ص١٦٩.
(٢) ابن تيمية، الرد على المنطقيين، بمباي، ١٩٤٩، ص٤٢٢.

أعظم من الجزء، وحسن النظام والأمانة، وقبح الفوضى والسرقة والتعدي على الآخرين، وليس مناط العقل الجزئيات أو التطبيق العملي لهذه الكليات، حيث يقوم الاختلاف لضلوع المؤثرات الإنسانية من أهواء وأغراض في ذلك. ولا يمكننا تصور جماعة من الناس أو أمة من الأمم تتبنى في قوانينها وعاداتها كل ما لا يقره العقل بذاته، كعدم معاقبة السارق أو القاتل أو الكاذب الخ..].

٢ ـ لو كان الحسن والقبح أمرين ذاتيين يدركهما العقل على حقيقتهما دائماً، للزم من ذلك، أن تكون الأفعال الحسنة أو القبيحة كذلك على الدوام. والواقع يكذب ذلك ويشير إلى العكس. فما قد يكون قبيحاً يمكن أن يصير حسناً والعكس صحيح. فإذا كان الكذب من الأمور القبيحة فإنه في بعض الأحيان قد يصير من الأمور الحسنة إذا ما ترتب عن الكذب خير محقق، كانقاذ إنسان بريء من يد حاكم ظالم، أو دفع فتنة، أو قتال. وبذا، يكون الصدق في هذا المقام من الأمور المستقبحة.

«لو كان الحسن والقبح من الصفات الذاتية لكان ذاك مضطرداً فيه ولما تخلف عنه، بل يبقى الفعل حسناً دائماً أو قبيحاً دائماً، والواقع غير ذلك، لأن الكذب قد يكون قبيحاً وقد يكون حسناً، بل يكون واجباً إذا ترتب عليه خير محقق، كانقاذ بريء من يد سلطان جائر، أو من يد ظالم له بطش ونفوذ، ويقابل ذلك أن الصدق يكون قبيحاً في هذا المقام»[1].

[ويرد العلماء الأماميون المثبتون للحسن والقبح العقليين على هذا، بأن الحسن والقبح من الأمور الذاتية التي لا يمكن الخلاف حولها،

(١) مباحث الحكم عند الأصوليين، ص١٦٩.

كالعدل والظلم والصدق والكذب. فالعدل لا يمكن إلّا أن يكون من الأمور الحسنة، والظلم لا يمكن إلّا أن يكون من الأمور المستقبحة، لاقتضاء طبعهما ذلك؛ وبالتالي، فالعادل لا يمكن إلّا أن يكون ممدوحاً على عدله، والظالم لا يمكن إلّا أن يكون مذموماً على ظلمه. وبذلك، فإن العدل والظلم يحملان في طبيعتهما علة تأثيرهما المستلزمة للحكم بتحسين العدل وتقبيح الظلم.

أما فيما يتعلق بالصدق والكذب فإنهما كالعدل والظلم فيما لو خلي بينهما وتأثيرهما الطبيعي. بمعنى أن الصدق لا يمكن إلّا أن يكون حسناً والكذب لا يمكن إلّا أن يكون قبيحاً؛ وبالتالي، فالصادق لا يمكن إلّا أن يكون ممدوحاً، والكاذب لا يمكن إلّا أن يكون مذموماً، لاقتضاء طبيعة الصدق والكذب أو عليّة الصدق والكذب ذلك. وهذا كله عند اندراج العدل والظلم والصدق والكذب تحت العناوين المحكومة بها والتخلية بينها وبين طبائعها في التأثير والعلية عند حكم العقلاء، لأن الموضوع يقتضي دائماً محموله.

أما عند اندراج الصدق والكذب ـ مثلاً ـ تحت عنوان آخر خاص بفعل من الأفعال الجزئية، فمن الطبيعي أن يتغير والحال هذه، محمول العنوان ويرتفع الاضطراد. ولذا، فإنه عند قيام مزاحم للصدق أو الكذب بحيث يمنع من اقتضاء طبيعتهما وتأثيرهما، كأن يكون في الصدق ما يوجب القتل البريء، وفي الكذب ما يدفع فتنة أو مفسدة الخ.. يرتفع اقتضاء تأثير العنوان في موضوعه، ويرتفع محموله لأهمية المزاحم].

والسؤال الذي يمكن طرحه هو: ماذا عن الأمور التي لا اقتضاء فيها ولا علية بحسنها أو قبحها، وما هو حكمها؟

إن الأمور التي لا تقتضي عناوينها القبح أو الحسن، كشرب الماء مثلاً، هي من الأمور المباحة أصلاً. ولكن إذا طرأ عليها عناوين ثانوية خاصة مؤثرة فيها، تغيَّر حكمها الأول المجعول من قبل الشارع، إلى حكم واقعي ثانوي شرعي، بحيث أن المباح قد يتحول إلى واجب، والواجب إلى حرام الخ.. وبعبارة أخرى، إن هذه الأمور تقبل الدخول تارة تحت عنوان له عليه التأثير في الحسن، فتكون حسنة، وتارة تحت عنوان له علية التأثير في القبح، فتكون قبيحة. فشرب الماء مثلاً من حيث هو كفعل بحدّ ذاته وبمعزل عن أي عنوان آخر مؤثر فيه على نحو العلية أو الاقتضاء في إدراك العقول لحسنه أو قبحه، ليس حسناً ولا قبيحاً. فوجوده كعدمه. ولكن إذا دخل شرب الماء تحت عنوان إنقاذ الحياة أو الهلاك، يصبح علة في إدراك العقلاء لحسنه أو قبحه.

وقول الأشاعرة بأن الكذب قد يكون قبيحاً وقد يكون حسناً، بل وقد يكون واجباً، للاستدلال على لا عقلانية الحسن والقبح، ينطوي على الاعتراف بوجود الحسن والقبح العقليين، وإلّا كيف حكموا على أن الكذب قد يصبح واجباً؟.

٣ ـ لو كان الحسن والقبح من الأمور العقلية لوجب والحال هذه، أن يكون الشارع ـ سواء كان الله تعالى أو رسوله ﷺ ـ مقيداً في تشريعه بأوصاف العقل أو أحكامه، ولزم بالتالي ألا يكون تشريعه مخالفاً للمعقول. وهذا معناه: أن ما هو حسن عند العقل يجب على الله أن يأمر به، وما هو قبيح عند العقل يجب على الله أن ينهى عنه. وهذا مما لا شك فيه قبح ينزه الله عنه.

«لو قيل: إن الحسن والقبح عقليان للزم أن يكون الشارع الحكيم

مقيداً في تشريعه للأحكام بهذه الأوصاف وإلّا لكان التشريع مخالفاً للمعقول، وهذا نفسه قبح ينزه الله عنه»[1].

[ويرد الإماميون على هذا، بأن الشريعة أرادها الله بمحض إرادته الحرة المطلقة، أن تكون جارية وفقاً للمعقول. والمستهجن فعلاً هو أن تجري شرائع الله وسننه على غير المعقول. ثم إن الله هو الذي خلق العقل مختاراً ووهبه القدرة على التعقل وأمره بالنظر إلى الأمور من حيث طبيعته، لكي يرى فيها مقدار حكمته. ولا يتصور اقتضاء الله تعالى إكراه العقل على العمل خلافاً لطبيعته. ولذا، فإن ما يحكم العقل بحسنه فهو محبوب شرعاً، وما يحكم بقبحه فهو مكروه شرعاً.

«كل ما حكم به العقل حكم به الشرع... والعقل رسول في الباطن، والشرع عقل في الظاهر. [فمثلاً] إذا أدرك العقل أن العدل حسن والظلم قبيح نحكم بأن العدل محبوب لله والثاني مكروه له، لأن المفروض أن أوامر الله ونواهيه تتبع المصالح والمفاسد في نفس الأفعال التي تعلقت بها... [و] إذا عزلنا العقل عن إدراك الحسن والقبح للزم أن تكون الأشياء كلها في نظره على نسق واحد، فلا حق ولا باطل، ولا خير ولا شر، ولا صواب ولا خطأ، وللزم أيضاً أن يجيز العقل على الله سبحانه اللغو والعبث، والترجيح بلا مرجح، وأنه لا مانع أبداً أن يأمر بقتل الأطفال والنساء والطيبين الأبرياء، وأن يعذب بناره الشهداء والأنبياء، ويدخل جنته السفاكين وقتلة الشعوب، وأن يصدق الكاذب، ويكذب الصادق. إذ المفروض أن العقل لا يقر ولا ينكر، لا يستحسن ولا يستقبح، وإنما توجد جهة الحسن في الشيء بعد أن أمر الله به، وتتحقق جهة القبح فيه

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٠.

بعد أن ينهى عنه، مع أن العكس هو الصحيح، أي أن الله أمر بهذا لأنه حسن، ونهى عن ذلك لأنه قبيح، بدليل قوله عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ... ﴿٩٠﴾ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ...﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]].

٤ ـ لو كان الحسن والقبح من الأمور الذاتية العقلية التي يمكن تعقل حسنها أو قبحها بصرف النظر عن حكم الشارع في شأنها، لوجب على تارك الحسن وفاعل القبح، العقاب منذ بدء الخليقة، وقبل بعث الرسل ولاسيما الرسول الأعظمﷺ، وهذا مخالف لقوله تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2].

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

لأنه لا ثواب ولا عقاب قبل إرسال الرسل.

«لو لم يكن الحسن والقبح في الأفعال بحكم الشارع نفسه، وكان بحكم العقل، لاستحق تارك الحسن وفاعل القبح قبل بعثة الرسل العقاب، وهذا مخالف لصريح الكتاب...»[4].

[ويرد الأماميون على هذا، بأن الثواب والعقاب إنما هما ردان

---

(١) محمد جواد مغنية، الإسلام والعقل، ط٢، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩، ص٧٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٣) سورة القصص، الآيتان: ٤٧ ـ ٤٨.

(٤) مباحث الحكم عند الأصوليين، ص١٧.

بدهيان على طاعة أو عصيان الناس التكاليف المفروضة عليهم من قبل الشارع. وهما أصلاً وليدا التكاليف الشرعية الواصلة إلينا من قبل الشارع. ولذا، فإنهما يرتفعان قبل تبيانهما للناس، وقبل معرفة الناس بالتكاليف أو وصول علمهم بها، لأن دين الله لا يصاب بالعقول سلفاً. وإدراك العقول سلفاً لما يجب فعله أو عدم فعله لا يتضح منه رأي الشارع. حتى أن إدراك العقل لمقصد الشارع وحكمته وفلسفته بعد نزول الشرع، لا يكون على سبيل القطع في كل شيء لقصور العقل عن ذلك. ومن هنا حكم العقل بقبح العقاب بلا بيان واصل من الشارع.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

ولذا، فلا تلازم بين المقدم والتالي في دعوى الأشاعرة، بأنّه: «لو لم يكن الحسن والقبح في الأفعال بحكم الشارع نفسه وكان بحكم العقل، لاستحق تارك الحسن وفاعل القبح قبل بعثة الرسل، العقاب». أي لا تلازم في إدراك العقل للحسن والقبح وارتفاع الثواب والعقاب قبل بعثة الرسل. مع الاشارة إلى أن الخلاف بين العقول قائم ليس في الأمور الكلية أو في ذاتية الحسن والقبح، وإنما قي المصاديق أو الأمور الجزئية أي في الأفعال الحسنة والأفعال القبيحة.

فكل الدول مثلاً تقيم شرعاتها أو دساتيرها على العدالة، ولكننا لو تلمسنا هذه العدالة في المجالات التطبيقية لمختلف الدول، لرأينا اختلافاً كبيراً فيما بينها. فبعض الدول مثلاً ترى أن العدالة هي في الغاء الملكية الفردية إلغاء تاماً وسيطرة الدولة على كل شيء. والبعض الآخر، يرى أن العدالة إنّما هي في الحفاظ على الملكية الفردية وحمايتها لأنها ثمرة طبيعية لنشاط الفرد ومواهبه].

ب ـ أما المعتزلة فيرون أن الأفعال تحمل في نفسها حسنها أو قبحها. وهم يقسمون الحسن والقبح بحسب نوعية الإدراك لهما: ضرورة عقلية، نظر عقلي، إدراك سمعي، إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ «ما يدرك بضرورة العقل كحسن إنقاذ الغرقى والهلكى، وشكر المنعم، ومعرفة حسن الصدق، وقبح الكفران وإيلام البريء، والكذب الذي لا غرض فيه».

٢ ـ «ما يدرك بنظر العقل كحسن الصدق الذي فيه ضرر، وقبح الكذب الذي فيه نفع».

٣ ـ «ما يدرك بالسمع كحسن الصلاة والحج وسائر العبادات. [وهي] متميزة لصفة ذاتها عن غيرها بما فيها من اللطف المانع من الفحشاء الداعي إلى الطاعة، لكن العقل لا يستقل بدركه».

وقد دلل المعتزلة على أن للأفعال في حدّ ذاتها حسناً وقبحاً، وأن القبح والحسن من الأمور العقلية الذاتية، كحكم العقل بحسن إنقاذ الغرقى وشكر المنعم وذم الجاحد الخ... بأدلة عديدة، منها:

١ ـ لو لم يكن الحسن والقبح من الأمور الذاتية العقلية لجاز الكذب على الله ورسوله، على اعتبار أن الكذب ليس قبيحاً في ذاته، مما يلزم منه إبطال الشرائع أو الرسالات.

«إن الحسن والقبح لو لم يكونا عقليين لجاز الكذب على الله وأنبيائه، لأن الكذب ليس قبيحاً في ذاته وإنما صفة القبح ثبتت له بالشرع: وهذا باطل ويترتب عليه فساد الرسالات والأحكام»[1].

---

(١) مباحث الحكم عند الأصوليين، ص١٧٣.

٢ ـ لو كان الحسن والقبح من الأمور الشرعية لا العقلية، لكانت أفعال القتل والسرقة والزنا والكذب والصدق والصلاة والصيام والإحسان من الأمور المتساوية، قبل ورود الشرع، الذي جعل بعضها مأموراً به والآخر منهياً عنه، وفي هذا ترجيح لأحد المتساويين دون مرجح. فضلاً عن أن الحسن والقبح لو كانا شرعيين فقط، لكان معنى ذلك، أن الرسل والرسالات بلاء على الناس وليس رحمة، لما يترتب عن ذلك من إلزامهم بأمور لا يسلم عقلهم بها، وكانوا قبل ذلك في حرية تامة يتصرفون على هواهم وبمقتضى عقلهم لا يخافون ترتب عقاب عليهم. وإذا كانت رسالات الله ضارة بالناس، فمعنى ذلك، أن قول الله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

باطل. وهذا غير صحيح، كون رسالات الله رحمة للناس أجمعين.

«إن الحسن والقبح لو كانا شرعيين، ولم يكن ذلك وصفاً في الفعل، لكانت الصلاة والصوم والزنا والسرقة وغير ذلك أموراً متساوية قبل ورود الشرع، فجعل الشارع بعضها مأموراً به، والآخر منهياً عنه، ترجيح لأحد المتساويين دون مرجح... [و] لكانت بعثة الرسل والأديان بلاء على الناس ومثار نزاع، وسبباً في المتاعب والمشاق والصد عن بعض الأمور والالزام بالأخرى وترتب الثواب والعقاب على ذلك. وقد كان الناس قبلها في حرية مطلقة، يفعلون ما يرغبون في فعله ويحجمون عما لا يشتهون دون مخافة عقاب أو ترتب ثواب، وكون بعثة الرسل ضارة بالناس باطل منقوض بقول الله تعالى: «وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين»[1].

٣ ـ إن ثبوت العقائد أصلاً يتوقف على الاعتقاد أو التسليم بها عقلاً

---

(١) المرجع نفسه: ص١٧٤.

وليس شرعاً. والنتيجة هي أن ثبوت الحسن والقبح الشرعيين إنما يتوقف على ثبوتهما عقلاً. والقول بخلاف ذلك، والادعاء بأن العقول مهما نضجت قد تخطىء، لأن بعض الأفعال مما تشتبه فيه العقول، غير صحيح، لأن العقول من حيث هي عقول لا تخطىء ولا تقع في الشبهة، والوقوع في الشبهة أو الخطأ إنما هو من فعل قوى أخرى في النفس الإنسانية.

ثم إن الحسن والقبح لو كانا أمرين شرعيين، فإننا نتساءل عن كيفية ثبوتهما لنا بالاضافة إلى كل التكاليف الشرعية الأخرى؟

فإذا كان الجواب أن الثبوت حاصل من الشارع نفسه، فإننا نسأل بدورنا، ومن أين يحصل لنا نحن هذا الثبوت لوجوب طاعة هذه الأوامر الشرعية؟

فإذا كان الجواب أن الوجوب في الطاعة وجوب شرعي لا وجوب عقلي، فإننا نرى أن الشرع لا بد له من أمر موجه إلى محل ما، ولا بد له من طاعة. وإذا لم يكن الأمر موجهاً إلى العقل لإيجاب الطاعة، فلمن يكون موجهاً إذاً؟

وبمعنى آخر، إن طاعة أوامر إطاعة التكاليف الشرعية إما أن تعود إلى العقل، وإما إلى الشرع فيلزم منه الدور. إذ لو كانت إطاعة أوامر الإطاعة، شرعية، لتساءلنا عن لزوم طاعتها؟ فإن كان اللزوم شرعياً، تساءلنا عن لزوم الإطاعة، وهكذا، إلى ما لا نهاية له في التسلسل أو الدور، مما يقتضي أن تكون الطاعة عقلية.

«إنكار مجرد إدراك العقل لكون الفعل حسناً أو قبيحاً، مكابرة ومباهتة»[1].

---

(١) محمد علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، مطبعة البابي الحلبي بمصر، (د.ت)، ص٩.

«وأكثر الطوائف على إثبات الحسن والقبح العقليين، لكن لا يثبتونه كما يثبته نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم... [و] نفي الحسن والقبح العقليين مطلقاً لم يقله أحد من سلف الأمة ولا أئمتها. بل ما يؤخذ من كلام الأئمة والسلف في تعليل الأحكام، وبيان حكمة الله في خلقه وأمره، وبيان ما فيما أمر الله به من الحسن الذي يعلم بالعقل وما في مناهيه من القبح المعلوم بالعقل، ينافي قول النفاة»[1].

وباختصار، يمكن القول، إن دليل العقل الذي تعده الإمامية من أدلة التشريع في الإسلام، محل خلاف بين العلماء، شأنه شأن الاجماع أو القياس.

وإذا ما كان المعتزلة يؤمنون بالعقل إلى أبعد الحدود، ويستبعدون إمكانية وقوع التناقض ما بين أحكام العقل والشرع، فإن كل الفقهاء متفقون على أن هناك أموراً شرعية كثيرة لا يدركها العقل لا سلباً ولا إيجاباً، كأحكام العبادات والحدود الخ.. ولذا، فإن العقل يجب أن يكون محدوداً بالنص ولا يناقضه.

ثانياً ــ الإيمان

الإيمان في اللغة هو التصديق بشيء ما وضده التكذيب. وفي الشرع هو الإذعان المطلق والثقة الكاملة بصدق الشريعة والخضوع لها؛ أي الاعتقاد بما أتى به الرسول وتصديقه قولاً وعملاً من دون أي شك أو ريبة. ويعرّف بصورة عامة بأنه الإقرار باللسان بشهادة التوحيد والنبوة، والتصديق بالجنان [قلب، عقل]، والعمل بالاركان: أي القيام بأفعال العبادات وعمل الطاعات.

---

(١) الرد على المنطقين، ص٤٢١.

والمسلم الذي يقر بوحدانية الله وبنبوة محمد ﷺ ورسالته، ولا يعمل بمقتضى هذه الوحدانية والرسالة، هو فاسق. والذي يقر بوحدانية الله وبنبوة محمد، ويقوم بأفعال العبادة المتوجبة عليه، رياء ومداهنة، من دون اعتقاد حقيقي أو إيمان منه، هو منافق[1]. وقد نزلت الآيتان ١٤ و١٦ من سورة الحجرات في بني أسد عندما أصابتهم سنة شديدة من القحط، فدخلوا جميعاً مع ذراريهم في الإسلام، وجاءوا إلى النبي في المدينة من أجل الطعام، قائلين له ﷺ: إنا مخلصون في إسلامنا، وصادقون في إيماننا، وكانوا كاذبين في قولهم منافقين، وتسببوا في ارتفاع الأسعار في المدينة:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

كما جاء في الآية ٨ من سورة البقرة:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وعن النبي ﷺ: «الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل».

وأهل الصوفية يعتبرون أن القلب الطاهر النقي الشفاف كقلب الجنين وهو في بطن أمه، هو موطن الإيمان والتقوى والفهم والتعقل. ولغتهم هي لغة القلب، الوجدان، الحدس، العيان المباشر. وهم يستندون في ذلك إلى آيات من القرآن الكريم، ومنها الآية ٢ من سورة الأنفال، والآية

(١) أنظر: تعريفات الجرجاني.

١٧٩ من سورة الأعراف، والآية٤٦ من سورة الحج، والآية ٢٢ من سورة المجادلة.

- ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

- ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

إن الإيمان يعني الإعتقاد الراسخ في أمر ما والتسليم به تسليماً يعادل في قوته قوة اليقين. فإذا كان اليقين ثمرة أسباب موضوعية عقلية. فإن الإيمان ثمرة أسباب ذاتية تعتمد أساساً على الثقة وطمأنينة القلب. وفي هذه الحالة، فإن ما هو ثمرة أسباب ذاتية يصعب إقناع الغير به عن طريق البرهان.

والله تعالى أمر نبيه محمداً بألا يكره الناس على الإيمان بدعوته، لأنه لو شاء تعالى مثل هذا الأمر، لآمن أهل الأرض كلهم بذلك. وقد بين الله تعالى لرسوله في الآيات: ٩٩ ـ ١٠١ و١٠٨ من سورة يونس والآية ١١٨ من سورة هود، أن من سنته في خلقه، اختلاف عقولهم

وأنكارهم في دينه، حيث يؤمن البعض ويكفر البعض. وأن ما يتمناه الرسول ﷺ من إيمان جميع الناس برسالته مخالف لطبيعة مشيئة الله في أصل تفاوت استعداد الناس للإيمان المنوط بعقولهم وأنظارهم.

ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

إن الإيمان [وموضوعه: اللامرئي] لا يقتضي العلم، لأن العلم [وموضوعه: المرئي] يعتمد على الأسباب العقلية، في حين أن الإيمان يتأتى من البواعث القلبية أو من أسباب عقلية غير كافية. وإذا كان التصديق فعلاً عقلياً، فإن الاعتقاد المستقل عن الأسباب العقلية الكافية مظهر من مظاهر حرية الاختيار، وهو ما يطلق عليه إسم: الإيمان؛ أو إرادة الإعتقاد والتسليم بمعتقدات قد لا يبررها العقل ولكن تبررها المنافع العملية التي تنتج عنها، على حدّ قول الفيلسوف الأمريكي **وليم جيمس** (ت: ١٩١٠) في كتابه **العقل والدين**[١]. وفي هذا الصدد يقول شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء، أبو العلاء المعري (٩٧٩ ـ ١٠٥٨م):

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا   تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر   أو صح قولي فالخسار عليكما

(١) ترجمة محمود حب الله، دار الحداثة، بيروت (د.ت).

وشعر المعري هذا، يذكرنا ولا شك برهان الفيلسوف الفرنسي **بليزبسكال** (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢م) في كتابه **الخاطرات** ومفاده: أن المرء إذا كان مؤمناً بوجود الله والآخرة فسوف يكسب الحياة الأبدية والسعادة إذا كان إيمانه صحيحاً، ولن يخسر شيئاً في الحالة الأخرى، أي إذا كان الله غير موجود وليس ثمة آخر.

لقد شغلت مشكلة الإيمان والكفر كل الفرق الاسلامية تقريباً، وكانت أهم المواضيع التي أثيرت في علم الكلام. وقد عرض أبو الحسن الأشعري في كتابه **مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين** لبيان آراء الفرق المختلفة في هذه المشكلة.

فالمعتزلة أهل العقل والعدل والتوحيد الإلهي، رأوا أن الإيمان يتجلى بالقيام بجميع الطاعات فرضها ونافلها، والإقرار بالأصول الخمسة: التوحيد ـ العدل ـ الوعد والوعيد ـ المنزلة بين المنزلتين ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والإمامية كما يرى البعض، اختلفوا في تعريف الإيمان إلى ثلاث فرق. تقول إحداها إن الإيمان هو الإقرار بالله وبرسوله وبالإمام، والمعرفة بذلك ضرورية؛ فإذا أقر المرء وعرف فهو مؤمن مسلم؛ وإذا أقر ولم يعرف فهو مسلم وليس بمؤمن. والفرقة الثانية تقول: إن الإيمان يتجلى بالقيام بجميع الطاعات والكفر جميع المعاصي. والفرقة الثالثة تقول: إن الإيمان إسم للمعرفة والإقرار بسائر الطاعات. فمن جاء بذلك كله كان مستكمل الايمان ومن ترك شيئاً مما افترضه الله غير جاهد من أجل ذلك فليس بمؤمن[1]. وبرأيي، إن **الشيعة الإمامية** الاثني عشرية

(١) أنظر: حسن حنفي، الموسوعة الفلسفية العربية، ط١، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٦، مادة الإيمان، ص١٦٩.

يرون أن الإيمان يتجلى بالاقرار بالتوحيد والنبوة، واليوم الآخر، والقيام بجميع الفروض والطاعات [والإمامة عندهم ركن من أركان المذهب، ولكنهم لا يجعلونها شرطاً من شروط الإسلام أو ركناً من أركانه].

والمرجئة رأت بصورة عامة أن الإيمان يتجلى بالايمان بالله وبرسوله وكتابه، وأنه لا يضير مع الإيمان معصية ولا ينفع مع الكفر الطاعة. وقد اختلفت فيما بينها في تعريف الإيمان إلى اثنتي عشرة فرقة. وقد زعمت إحدى الفرق أن الإيمان هو معرفة الله، وما سوى ذلك كالصلاة، فليست بعبادة لله، لأنه لا عبادة إلّا الإيمان بالله وهو معرفته. وزعمت فرقة أن الإيمان هو المعرفة بالله، وما سوى ذلك، من الاقرار باللسان، والخضوع بالقلب، والمحبة لله ولرسوله والتعظيم لهما والخوف منهما، والعمل بالجوارح، فليس بإيمان؛ وأن الكفر بالله هو الجهل به. **والفرقة التاسعة من المرجئة: أبو حنيفة وأصحابه** اشتهر عنه في تعريف الإيمان أنه: «التصديق بما علّم النبي به ضرورة، تفصيلاً فيما علّم تفصيلاً، وإجمالاً فيما علم إجمالاً»، وأن الإقرار باللسان ليس جزءاً من حقيقة الإيمان، وأن الأعمال الصالحة ليست جزءاً من حقيقة الإيمان، لأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، كون الجزم الذي ينعقد القلب عليه إن نقص، صار جهلاً أو شكاً أو وهماً، فلا يكون إيماناً أصلاً، وأن المعطوف غير المعطوف عليه في الآية ١٠٧ من سورة الكهف، فتكون الأعمال غير الإيمان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾.

وما يؤيد ذلك، أن الرسول ﷺ قد جعل القلب محلاً للإيمان بقوله: «اللهم ثبت قلبي على دينك».

وفعل القلب ليس شيئاً غير التصديق.

وهذا الأمر يعني أن أبا حنيفة يقصر الإيمان على الركن الأول وهو التصديق، ويؤخر العمل إلى المرتبة الثانية. أما العلماء المسلمون عامة، حالياً، فيرون أن الإيمان يتجلى في ثلاثة أركان:

١ ـ التصديق بالقلب.

٢ ـ الإقرار باللسان.

٣ ـ العمل بالجوارح[١].

والخوارج رأوا أن الإيمان هو التسليم بوحدانية الله وتصديق رسوله ورسالته، والعمل بجميع ما أمر به الله ونبيه من طاعات وما نهيا عنه من معاص. ومن ارتكب كبيرة واحدة ولو مكرهاً على ذلك بحق الله ونبيه، فهو كافر، وعليه أن يتوب من كفره ليعود له إيمانه، وإلّا جاز محاربته وقتله.

وهذا الأمر هو الذي دفع بهم إلى تكفير الخليفة الرابع الإمام علي بن أبي طالب ومحاربته، كما تكفير سائر المسلمين الذين لم يروا رأيهم ومحاربتهم واستحلال دمائهم ودماء نسائهم وأطفالهم، وأملاكهم... الخ.

وعندما طلبوا من الإمام علي أن يشهد على نفسه بالكفر لقبوله التحكيم بينه وبين معاوية، بعدما أرغموه على ذلك، ويعلن توبته ليعود إلى الإيمان، دعا عليهم بالهلاك خاطباً: «أصابكم حاصب، ولا بقي منكم آبر. أبعد إيماني بالله وجهادي مع رسول الله أشهد على نفسي بالكفر. لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين. فأوبوا شر مآب. وارجعوا على أثر

(١) المرجع نفسه، ص١٦٩.

الأعقاب. أما إنكم ستلقوْن بعدي ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً، وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة». وبعد مقاتلتهم له في النهروان وانهزامهم شر هزيمة، قال ﷺ: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»[1].

والأشاعرة أنكروا على المعتزلة والخوارج قولهم إنه لا يجتمع في العبد إيمان ونفاق، ولا يتصور أن الشخص الواحد يدخل الجنة والنار، ورأوا أن المؤمن قد لا يكون كامل الإيمان، وعنده سيئات يعذب عليها، وله حسنات يدخل بها الجنة. وشيخ الأشاعرة أبو الحسن الأشعري لم يكفر أحداً من أهل القبلة لأن الإسلام يجمعهم جميعاً. والإمام الغزالي وهو من أئمة الأشاعرة كما من أئمة الشافعية لم يكفر أحداً من أهل القبلة، ولم يكفر أهل الأهواء والبدع [الخوارج والمعتزلة والرافضة] معتبراً أنهم في محل الاجتهاد، وأن استباحة دماء وأموال المصلين إلى القبلة المصرحين بشهادة التوحيد، خطأ. وقد رأى أن من آمن إيمان تصديق واشتغل بالعمل، وترك البحث فهو من أهل السلامة، أما العارف بالحقائق فهو المقرب من الله. والإيمان عنده: من آمن بالله وبرسوله وباليوم الآخر.

الإيمان في القرآن الكريم:

جاء في القرآن الكريم أن المؤمن المسلم هو المؤمن بالله الواحد الأحد، وملائكته، ورسله، واليوم الآخر، والثواب والعقاب، وبالنبي محمد ﷺ ورسالته والعمل بمقتضى ما جاء فيها: عقيدة وعبادة

(1) نهج البلاغة، تحقيق محمد عبده، الجزء الأول، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٩٨٢، ص١٥٩ ـ ١٦٠.

وأخلاقاً... الخ. وقد تحدث القرآن الكريم باسهاب عن أوصاف المؤمن والمؤمنين، بعد أن أيقظ العقول ولفت الأنظار إلى التأمل في الخلق والوجود، والارتفاع من المحسوس إلى اللامحسوس المعقول، والاستدلال على وجود الله الواحد الخالق والإيمان به وبأسمائه الحسنى إيماناً تسلم به فطرة الإنسان ويقبله عقله.

ومن جملة الآيات الكريمة التي تدعو إلى التأمل في خلق الله وتحث على الإيمان به، نذكر:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(1).

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(2).

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(3).

وثمة سورة كاملة في القرآن هي سورة: «المؤمنون» تتحدث عن أوصاف المؤمنين:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾

---

(1) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠ ـ ١٩١.
(2) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.
(3) سورة يس، الآيات: ٣٨ ـ ٤٠.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾[2].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[3].

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن أوصاف المؤمنين، منها:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[4].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[5]

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[6].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١ ـ ٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٨ ـ ٥٩.

(٣) سورة المؤمنون: الآية: ٦١.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٨.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٢٠.

(٦) سورة التوبة، الآية: ٧١.

ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ﴾[2].

﴿الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[4].

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[5].

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[6].

---

(١) سورة الحجرات، الآيتان: ١١ ـ ١٢.

(٢) سورة الحجرات، الآيتان: ١٤ ـ ١٥.

(٣) سورة البقرة، الآيات: ١ ـ ٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٨.

(٥) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢).

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾(٣)

[أنظر أيضا الآيات الكثيرة التي وردت في سورة المائدة وتتحدث عن أوصاف المؤمنين].

ومن خلال هذه الآيات جميعها يتبين لنا أن الإيمان يعني الطاعة لله ورسوله والعمل بأوامرهما. والذي لا شك فيه أن الإيمان الصحيح شرط

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٨.
(٢) سورة النور، الآيات: ٢١ ـ ٢٢، ٥٢، ٥٤ ـ ٥٦.
(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ٣١ ـ ٣٢.

لصحة الأعمال، والأعمال الخالية من الإيمان ليس لها أدنى اعتبار. وقد جاء عن النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى».

بيد أنه وإن كان الإسلام يربط الإيمان بوجود الله تعالى، بالفطرة الصحيحة، وبالعقل عن طريق التأمل والتبصر في وجود الكون والخلق، فإن ثمة آيات عديدة في القرآن الكريم تشير إلى أن الإيمان هبة ونعمة من الله. فقد جاء في الآيتين ٩٩ ـ ١٠٠ من سورة يونس:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ـ وجاء في الآية ٥٢ من سورة الشورى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ـ وجاء في الآيتين ١١١ و١٢٥ من سورة الأنعام:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ـ وجاء في الآيتين ٣٦ و٣٧ من سورة الزمر:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ

ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

ـ وجاء في الآيتين ١٧٨ و١٨٦ من سورة الأعراف:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وجاء في الآية ١٧ من سورة الكهف:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

ـ وجاء في الآية ٢٧٢ من سورة البقرة والآية ٥٦ من سورة القصص:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ...﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

ولكن بالرغم من أن القرآن الكريم سمى أتباع النبي محمد ﷺ «مؤمنين»، و«الذين آمنوا»، في كثير من الآيات، ومنها على التوالي، الآية ٢٨٥ من سورة البقرة، والآية ٢١ من سورة الطور، والآية ١٠١ من سورة المائدة، والآية ٢٥ من سورة الفتح:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾

﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

فإن القرآن الكريم سماهم أيضا: «المسلمون والمسلمات» لأن «الدين عند الله الإسلام»، كما تشير الكثير من الآيات، ومنها:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1].

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3].

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[4].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٢٦.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾[1].

﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾[2].

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[3].

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[4].

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[5].

بيد أن ثمة آيات في القرآن الكريم تفيد أيضا بأن ثمة تمييزا بين المسلمين والمؤمنين. فقد جاء في الآية ١٤ من سورة الحجرات:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وجاء في الآية ٣٥ من سورة الأحزاب:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ

---

(١) سورة الجن، الآية: ١٤.

(٢) سورة النمل، الآية: ٣١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

(٥) سورة التحريم، الآية: ٥.

وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وجاء في الآية ٨ من سورة البقرة:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ولعل هذا التمييز القرآني بين المسلمين والمؤمنين يعود إلى أن مفهوم الإسلام أعم بالمطلق من مفهوم الإيمان، ومفهوم الإيمان أخص من مفهوم الإسلام، بحيث يمكن القول: إن الإسلام هو أول الطريق إلى الإيمان، وأن الإيمان لا يحصل إلا بالقيام أو العمل بجميع ما أمر به الإسلام من واجبات وطاعات. فعن الرسول ﷺ: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن يتتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله».

وقد سمى القرآن الكريم المسلمين الذين لا يعملون بمقتضى الإسلام ويرتكبون الكبائر **بالفاسقين**. فقد جاء في الآية ٤ من سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾. كما سمى الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر [أي القبيح من العمل والقول وما لا يعرف في شريعة ولا سنة]، ولا ينفقون في سبيل الله أو الخير شيئا، ويقومون بأفعال العبادة المتوجبة عليهم رياء ومداهنة، من دون اعتقاد حقيقي أو إيمان **بالمنافقين والفاسقين**. فقد جاء في الآية ٦٧ من سورة التوبة: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

أشار القرآن الكريم إلى عدة أسماء أو منازل للجنة توحي بأنها عل درجات ومراتب بحسب أعمال المؤمنين المتقين. ومن هذه الأسماء: ج عدن ـ جنة النعيم ـ جنة الفردوس[1] ـ جنة المأوى ـ جنة الخلد.

فقد جاء في الآية ٧٢ من سورة التوبة والآية ٦١ من سورة مريم:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾.

وجاء في الآيتين ١٠٧ من سورة الكهف والآية ١١ من سورة المؤمنون:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وجاء في الآيتين ١٤ و١٥ من سورة النجم:

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾.

وجاء في الآية١٥ من سورة الفرقان:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾.

وجاء في الآية ٦٥ من سورة المائدة والآية ٩ من سورة يونس:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

---

(١) أعلاها درجة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

ومن الآيات الدالة على التفاضل في المنزلة والدرجة في الآخرة بين المؤمنين، نذكر:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١).

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٣).

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(٤).

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٢.
(٢) سورة التوبة، الآيات: ١٩ ـ ٢٢.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ١١.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٩.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2].

وليس التفاضل في المنازل والدرجات وقفاً على المؤمنين فقط، بل هو يطال أيضاً الأنبياء والرسل فيما بينهم. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بالرغم من أن الله تعالى قد اصطفاهم كلهم جميعاً لهداية أقوامهم وزودهم بالعلم والحكمة... الخ. فقد جاء في الآية ٢٥٣ من سورة البقرة:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

وقد نصت الآية ٨١ من سورة آل عمران على أن الله تعالى أخذ على جميع أنبيائه الميثاق بأن يؤمنوا بالنبي محمد ﷺ وينصروه قبل أن يظهر إلى الوجود.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٠.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ٩٥ ـ ٩٦.

وعن النبي محمد ﷺ عن الله سبحانه وتعالى:

«يا ابن آدم أنا أقول للشيء كن فيكون، فأطعني في ما أمرتك، أجعلك تقول للشيء كن فيكون».

«إن عبدي ليتقرب إلي بالنافلة حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها. إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته».

وعنه أيضاً: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

«إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلّا من يحب».

«ليس مؤمناً من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم ذلك».

العلاقة بين الإيمان والعقل

إن تاريخ الفكر الإسلامي شهد نوعين من نظام المعرفة: **النظام الأول** وهو يعتمد على الإيمان بالوحي، أي الإيمان بالله تعالى والتصديق بما جاء به رسله وأنبياؤه، ويمثله علماء الكلام والأصول والمتصوفة، الذين يحلون النقل في المرتبة الأولى والعقل في المرتبة الثانية. **والنظام الثاني** ويمثله الفلاسفة، وعلى رأسهم: الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد، وهم يحلون العقل في المرتبة الأولى، ويرون في الوقت نفسه أن العقل والدين لا يمكن أن يختلفا لأن غاية كل من الدين والفلسفة واحدة، وهي اكتشاف الحقيقة والعمل بموجبها؛ وأن الحقيقة واحدة وإن تعددت السبل والمسالك في طلبها. والحكمة كما يقول إبن رشد في كتابه **فصل المقال**

فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة لها، وهما وجهان لحقيقة واحدة، والحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له. فمصدر الحقيقة الدينية هو الوحي، ومصدر الحقيقة الفلسفية هو العقل. والنصوص الدينية كما أجمع العلماء المسلمون لا يمكن أن تؤخذ كلها على ظاهرها، ويجب ألا تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها ولا أن تخرج كلها عن ظاهرها من طريق التأويل. والتأويل الملجأ إليه حين توهم التعارض بينهما هو إخراج دلالة اللفظ من معناه الظاهري أو دلالته الظاهرية إلى معناه الباطني أو دلالته المجازية. والعالمون بالتأويل هم العلماء والفلاسفة، والله تعالى يقول في الآية ٧ من سورة آل عمران ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾.

وقد حصر إبن رشد التأويل في طائفة الفلاسفة البرهانيين، داعياً إياهم إلى عدم نشر تأويلاتهم في أوساط العامة الذين يأخذون بالظاهر لكي لا يفسدوا عليهم إيمانهم، لأنه بسبب تأويلات المعتزلة للكثير من الآيات القرآنية، وكذلك لتأويلات الأشاعرة وإن كانوا أقل تأويلاً من المعتزلة التي أظهروها للعامة[1]، نشأت الفرق الاسلامية المختلفة، وكفر بعضهم بعضاً، فأوقعوا الناس في تباغض وتنافر وحروب، وفرقوا الشرع، وفرقوا الناس كل تفريق. وقد صنع الغزالي صنيعهم عندما بسط تأويله أمام الخطابيين والجدليين فأفسد إيمانهم وأساء إلى الشريعة والحكمة معاً.

والجدير بالملاحظة ـ برأينا ـ أن الغزالي إذا كان قد ساق هجوماً عنيفاً على الفلاسفة في كتابه **تهافت الفلاسفة** حيث كفرهم في ثلاث مسائل:

---

(١) رأت المعتزلة أن الصفات هي عين الذات، ولذا سميت بالمعطلة. أما الاشاعرة فرأوا أن الصفات قائمة في ذات الله ولكنها ليست عين الذات، ولا يصح أن نقول عنها أنها هي الذات، ولا غير الذات.

١ ـ قدم العالم وأزليته.

٢ ـ إقتصار علم الله على الكليات دون الجزئيات.

٣ ـ إنكار حشر الأجساد.

وبدعهم في سبع عشرة مسألة، فذلك لكونهم ـ بنظره ـ هم الذين أفسدوا على العامة معتقداتهم وإيمانهم بتأويلاتهم التي لا يقرها الشرع. وهو في كتابه **مشكاة الأنوار** رأى أن العقل «أنموذج من نور الله» ولا يوجد في الإسلام شيء يتعارض أو يمكن أن يتعارض مع العقل السليم. كما رأى في كتابه **المنقذ من الضلال** أن الشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان ومتحدان. فالعقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لن يتبين إلّا بالعقل. وما يحكم به الشرع يحكم به العقل، وبالعكس. فالعقل رسول في الباطن، والشرع عقل في الظاهر.

«الشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان بل ومتحدان. ولكون الشرع عقلاً من خارج، سلب الله تعالى اسم العقل عن الكافر في غير موضع من القرآن، نحو قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[1]، ولكون العقل شرعاً من داخل، قال تعالى في صفة العقل: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾[2] فسمى العقل: ديناً. ولكونهما متحدين، قال: نور على نور، أي نور العقل ونور الشرع. إن العقل لن يهتدي إلّا بالشرع، والشرع لن يتبين إلّا بالعقل. فالعقل كالأس، والشرع كالبناء، ولن يغني أسّ ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس. وأيضاً، فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧١.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

ما لم يكن البصر... وأيضاً، فالعقل كالسراج، والشرع كالزيت الذي يمده. فما لم يكن زيت لم يحصل السراج، وما لم يكن سراج لن يضيء الزيت».

ومن هذا النص يتبين لنا أن الغزالي يرى أن ما يحكم به العقل يحكم به الشرع، والعكس صحيح. فالعقل رسول في الباطن، والشرع عقل في الظاهر. فإذا أدرك العقل أن العدل حسن والظلم قبيح، حكم الشرع بأن العدل محبوب لله، والظلم مكروه له.

وقد رأى إبن سينا أن ثمة مصدرين أساسيين للمعرفة: الحس والاستدلال الاستقرائي من ناحية، والفيض والإشراق من العقل الفعال من ناحية أخرى. فعن طريق الحواس الخمس نستمد الصور التي تعلق في أذهاننا عن العالم الخارجي. ومن هذه الصور الجزئية الذهنية نستخلص الصور الكلية للمعقولات أو الكليات بواسطة العقل الفعال الذي هو كناية عن قوة خارجية تحيل الكليات الموجودة بالقوة في جزئيات العالم الخارجي إلى كليات معقولة أو حقائق بالفعل في الذهن. وهذا الأمر، يعني أن المعرفة السينوية حسية في أساسها وعقلية إشراقية في قمتها لا تتم إلّا بعون إلهي. أي أن الحواس ليست إلّا وسائل تهيء العقل الإنساني لقبول فيض العقل الفعال ـ وهو عقل كوني خارج النفس الإنسانية ـ من المعقولات أو صور الماهيات الكلية التي يتلقاها أصلاً من الله مبدع كل شيء. وللكليات ثلاثة أنواع من الوجود:

١ ـ وجود أول في العقل الفعال الذي تنتهي إليه صورة الماهيات أو الكليات من مبدع الكل: الله، وهذا الوجود شبيه بمثل أفلاطون.

٢ ـ وجود عرضي بالقوة في العالم الخارجي من خلال وجودها في أفراده.

٣ ـ وجود في الذهن، منتزع من أفراد العالم الخارجي، وهو وجود تجريدي شبيه بالوجود الذهني الأرسطي.

ومن خلال المعرفة الدائمة ينمو العقل لدى الإنسان ويتقدم. فهو في بدايته كناية عن عقل هيولاني، فإذا ما اكتسب قدراً من المعرفة أضحى عقلاً بالملكة. وإذا زادت معارفه صار عقلاً بالفعل يدرك الصور الذهنية المنتزعة من أفراد العالم الخارجي، كما يدرك المعقولات التي يهبها له العقل الفعال. وإذا تمكن من أن يتصل بالعقل الفعال من دون عناء كبير ولا تعليم بحيث تنكشف له الكليات أو المعقولات كلها، انكشافاً مباشراً، أصبح عقلاً مستفاداً، وهو كمال العقل بالفعل، وأعلى مراتب العقل الإنساني، وهو ضرب من النبوة.

إن الفلاسفة المسلمين: الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد... الخ، حاولوا التوفيق بين الفلسفة والدين. وقد رأوا أن الدين والحكمة يفيض كلاهما عن واجب الوجود على عقول البشر بواسطة العقل الفعال. ولا فرق بين الحكمة والدين لا من جهة مصدرهما وطريق وصولهما إلى الإنسان، ولا من جهة موضوعاتهما، ولا من جهة غايتهما. والفرق بينهما هو أن طريق الدين إقناعي، أما الفلسفة فطريقها يقيني برهاني، وأن وجهة الدين عملية، ووجهة الفلسفة نظرية.

أما الفلاسفة المسيحيون في العصر الوسيط، فقد كان القديس أوغسطينوس (٤٣٠م) أحد آباء الكنيسة الأوائل، يرى أن «ليس ثمة معرفة ولا حقيقة حيث لا إيمان» لاسيما وأن السيد المسيح يقول: «طوبى للذين آمنوا ولم يروا». وكانت فلسفته التي تقوم على التوفيق بين المسيحية والفلسفة الأفلاطونية، تقول: إن العقل يستطيع أن يفرق بين الحق والباطل، ولكن الاشراق الإلهي هو الذي يكشف الحجب بين الإنسان

وربه. أما القديس توما الأكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٠م) الذي كانت فلسفته تقوم على التوفيق بين اللاهوت والفلسفة الأرسطية، فقد دحض نظرية العقل الفعال، وميز بين اللاهوت الذي يرتكز على الوحي وبين الفلسفة التي تستند إلى العقل. ورأى أن الوحي يقنعنا إذا استطعنا تعقل معطياته، وأن العقل لا يضلنا إذا أحسنا استعماله، وأن الفلسفة نافعة وضرورية، ولكن اللاهوت أنفع وأفضل وأكمل.

إن اللاهوت المسيحي إجمالاً، رأى ويرى أن الفلاسفة يغالون في قدرة العقل البشري على إدراك الحقيقة المطلقة والنفاذ إلى جوهر وماهية المسلَّم به. والعقل الذي يسعى إلى المعرفة مهتدياً بنور الإيمان يهبه الله إدراك الأسرار الالهية من دون أن يتمكن من معرفة أو استيعاب كنهها التي تفوق قدرة العقل على معرفتها، بحيث تبقى مكتنفة ببعض الغموض الدامس حتى عندما يتقبلها العقل من طريق الوحي مغشاة بحجاب الإيمان. وما دام العقل لا يعادي الإيمان، فلا يمكن أن يحصل بينهما خلاف، لأن الله الذي يهب الإيمان ويكشف الأسرار، هو الذي يهب الإنسان نور العقل، ولا يمكن للحق أن يناقض الحق أبداً. والعقل البعيد عن غرور الفلسفة لا يمكن أن يكون على خلاف مع الإيمان. إن العقل السوي يبرهن على أسس الإيمان، والإيمان يحرر العقل ويصونه من الأباطيل والأضاليل، ويوفر له الكثير من المعارف الإلهية. ولذلك، فإن الكنيسة لا تعادي العقل ولا العلوم والفنون الإنسانية التي لا تناقض العقيدة الإلهية ولا تبلبل الإيمان، بل على العكس، فهي تشجع تقدم العقل الذي هو هبة من الله، كما تشجع العلوم التي مصدرها الله أيضاً وتعود بالفائدة على حياة البشر، وتستطيع أن تقودهم إلى الله تعالى بمؤازرته ونعمته.

ويمكن القول: إن الإسلام والمسيحية يعتقدان بأن الله تعالى هو الذي وهب العقل للإنسان وفطره على الإيمان به والتسليم بوحيه؛ وأن الإيمان يهدي العقل البشري إلى ما فيه خير الإنسان وصلاحه. وإذا تفرد أو اغتر العقل بالاعتماد على نفسه بعيداً عن الإيمان والوحي، فإنه يضل السبيل، ولا يحصد إلّا الشر والشقاء لصاحبه.

وفي العصر الحديث رأى الشيخ الدكتور مصطفى عبد الرازق (١٨٨٥ ـ ١٩٤٧) أن طبيعة الدين تختلف عن طبيعة الفلسفة. فطبيعة الدين تقوم على الإيمان والتصديق القلبي، وطبيعة الفلسفة تقوم على النظر العقلي والتفكير. لذا، فقد رفض أن تكون الفلسفة خادمة للدين وأن تتخذ وسيلة لتأييده، لأن ذلك يضر بالفلسفة والدين على حد سواء. فالضرر بالدين يتأتى من كون عقائد الدين وحقائقه عواطف قدسية قلبية تملأ نفوس الناس تسليماً وتصديقاً وتدفعهم إلى التضحية والفناء من أجلها، ومحاولة البرهنة عليها والاثبات العقلي يوقع هذه العقائد والحقائق في دائرة الجدل والمتناقضات العقلية مما يفسد جلالها وجمالها. أما الضرر بالفلسفة فيتأتى من جعل بحثها عن الحقائق موجهاً إلى غاية تأييد الدين عن طريق مقدمات معينة تنتج نتائج تقليدية، فتأخذ شكلاً دينياً مقدساً لا يتناسب مع حرية العقل والبحث والنقد. وليس معنى هذا أن الشيخ مصطفى يرى أن ثمة تعارضاً بين الدين والفلسفة؛ وإنما هو يرى أن غاية كل من الدين والفلسفة واحدة، وهي سعادة الإنسان حيث يحققها الدين عن طريق القلب والعواطف، وتحققها الفلسفة من طريق العلم والنظر. وباختصار، يرى الشيخ مصطفى وجوب إبعاد العقل عن الجدل في الأمور العقدية التي تقوم على التسليم والتصديق، ولا سبيل إلى معرفتها معرفة كاملة وإدراك حقيقتها؛ داعياً في

الوقت نفسه إلى النظر في الشرائع الدينية العملية، وضرورة الإيمان بوجود موجود كامل أبدي ليست له حدود ولا يحيط به إدراك العقل المحدود. إن الإسلام دين وشريعة. «أما الدين فقد استوفاه الله كله في كتابه الكريم، ولم يكل الناس إلى عقولهم في شيء منه. وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للنظر الاجتهادي في تفصيلها». وقد نهى القرآن الكريم المسلمين عن الجدل في الأمور الاعتقادية إلّا عند الحاجة وعلى مقدارها. وعلماء الكلام يثبتون العقائد الدينية بالشرع ثم يلتمسون بعد ذلك البراهين العقلية للدفاع عنها بعد أن يفهمها العقل عن الشرع. إن على العقل أن يأخذ دوره في فهم الدين وتعقله. وفهم الدين يكون بالتماس المعنى من وراء صور العبادات والشعائر الدينية والأحكام التي شرعها الدين وفهم الحكمة منها والغاية التي ترمي إليها. وفهم الدين على حقيقته ينتج عنه أنه صديق للعقل والعلم، وأنه بالدين والعقل يستكمل المؤمن نورين: نور العقل ونور الدين. والقرآن والسنة يدعوان إلى العقل وإعمال النظر ولا يعارضان تلك الملكة التي وهبها الله للإنسان وميزه بها عن سائر خلقه، وذلك حتى يؤدي دوره في فهم وإدراك حقائق الدين، وتطهير الاعتقاد من البدع والضلالات والفرقة والتكفير بين المسلمين.

وباختصار، إن ثمة إجماعاً بين العلماء المسلمين بأن العقل والشرع قطبان من مصدر واحد، ولا بد من التوفيق بينهما، وذلك من طريق الاجتهاد العقلي الذي هو السبيل لمواجهة تحديات العصر من دون المساس في جوهر العقيدة الصافية الخالية من البدع والخرافات والأوهام. إن الإسلام يرى أن الله تعالى قد زود الإنسان منذ خلقه بفطرة طبيعية مغروسة في أعماق نفسه، تحب الحق والخير والعدل، وتذعن

لناموس الكون الذي تصرفه المشيئة الإلهية، وهو ناموس التوحيد والإيمان بالله الواحد الذي تدركه بطبيعتها، لأنه مستقر في سنخها، وذلك إذا ما عريت عن الهوى، ولم تقع في مزالق الشيطان؛ فقد جاء في الآية ٣٠ من سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ... ﴿٣٠﴾﴾. وإلى جانب هذه الفطرة الطبيعية التي فطر الله الإنسان عليها والمحكومة بناموس التوحيد، أنعم الله تعالى على الإنسان بنعمة العقل الذي من شأنه أن يميز الحق من الباطل، والخير من الشر، والطيب من الخبيث. فمن سلمت فطرته، وصفت بصيرته، وصح عقله، عرف طريق الصراط المستقيم، وكان من المؤمنين المهتدين، وإلّا كان من الضالين.

وعن النبيﷺ كما جاء في الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». وعنه أيضاً كما جاء في صحيح مسلم: «يقول الله عزَّ وجلَّ: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم».

الفصل الثاني

الإيمان والتكفير عند الكلاميين
والفقهاء المسلمين
قديماً وحديثاً

إن قضية الإيمان بالله الواحد وماهية الإيمان، وهل هو قابل للزيادة والنقصان أو أنه على درجة أو مرتبة واحدة، كانت واحدة من أهم القضايا الخلافية بين المتكلمين المسلمين، ولعلها كانت القضية الخلافية الأولى التي قامت فيما بينهم وأدت إلى تكفير بعضهم بعضاً.

وكان الخوارج المعروفون بالقراء [أي حفظة القرآن] أول من أثار هذه القضية في سنة ٣٧ هجرية، عندما انشقوا عن الإمام علي إبان حربه مع معاوية بن أبي سفيان في صفين، صائحين بعد التحكيم، «لا حكم إلّا لله» ولا يجوز تحكيم الرجال فيما حكم فيه الله. لقد كانوا من أكثر الناس محبة للخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب وأشدهم عداء لمعاوية بن أبي سفيان وأشرسهم قتالاً له. ولكنهم في المقابل، كانوا ـ وعددهم إثنا عشر ألف رجل» ـ هم السبب المباشر في دفع علي «الذي كان من النصر قاب قوسين أو أدنى في صفين»[1] إلى القبول بالتحكيم بينه وبين معاوية بعدما لجأ أنصار الأخير بناء على مشورة عمرو بن العاص إلى حيلة رفع القرآن على أسنة الرماح، داعين إلى أن يكون كتاب الله حكماً بين الفريقين

---

(١) يوليوس فلهوزن، الخوارج والشيعة ـ المعارضة السياسية الدينية ـ، ترجمة وتقديم عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٨، ص١٧ ـ ١٨.

المتنازعين لمعرفة من هو الأحق بالخلافة. لقد أصروا على تسمية أبي موسى الأشعري حكماً من جانبهم خلافاً لرغبة علي الذي كان يريد عبدالله بن عباس. وعندما آلت نتيجة التحكيم إلى ما هو معروف، وما كان علي رافضاً له منذ البداية وحذر منه مسبقاً، أدركوا فداحة ما اقترفوه من ذنب، وأعلنوا توبتهم إلى الله عنه، ودعوا علياً إلى التبرؤ من التحكيم، وأن يحذو حذوهم ويتوب إلى الله عن ذنبه، لأنه قبل أن يضع خلافته موضع الشك والريبة مع أن حكم الله تعالى في معاوية وأنصاره أنهم من البغاة، معروف في الآية ٩ من سورة الحجرات ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾. وطلبوا منه أن ينهض بهم إلى عدوهم ليحاكموه إلى الله بسيوفهم حتى يحكم الله بينهم، وسموا أنفسهم «بالمحكمة»، و«المؤمنون» و«الشراة»، إذ أنهم شروا الدنيا بالآخرة وباعوا أرواحهم في سبيل الله، مستشهدين بالآية ٧٤ من سورة النساء، والآية ١١١ من سورة التوبة:

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

لقد رأى الخوارج أن الإيمان هو التسليم المطلق بوحدانية الله، وتصديق رسوله ورسالته، والعمل بجميع ما أمر به الله ورسوله من

طاعات وما نهيا عنه من معاص. أي أنه التصديق المطلق بالقلب بوحدانية الله، والإقرار باللسان نتيجة التصديق بالجنان، والعمل بالعقائد والعبادات وفق ما أمر به الله ورسوله، ومن بينها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد بالسيف من أجل إعلاء كلمة الله، ودفع المنكر والجور والفساد.

وبناء على ذلك، فقد اعتبر الخوارج أن من ترك ركناً من أركان الإيمان أو لم يعمل به، كترك الصلاة، أو الصيام، أو الحج، أو الزكاة، أو من ارتكب ذنباً من الذنوب أو معصية من المعاصي التي تعد من الكبائر في الإسلام، كارتكاب الزنا، وتعاطي السحت، وشرب الخمر، وشهادة الكذب، فإنه يخرج من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر حتى ولو كان مكرهاً أو مرغماً على فعل المعصية أو ترك الواجب. وإذا دعي إلى التوبة ولم يتب من كفره، فهو كافر يستحق الموت. واستناداً إلى معتقدهم هذا، فقد كفروا الخليفة علي بن أبي طالب لقبوله التحكيم بينه وبين معاوية، وطالبوه بالتوبة عن فعله، ولما لم يستجب لطلبهم، أعلنوا الحرب عليه، وعملوا على اغتياله على يد عبد الرحمٰن بن ملجم. كما كفروا الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وعائشة أم المؤمنين، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وجميع من اشترك في يوم الجمل وحرب صفين. ولم يكتفوا بذلك، وإنما أعلنوا الحرب على كل من لم ير رأيهم من المسلمين، واستحلوا دماءهم ودماء نسائهم وأطفالهم وأملاكهم. وقد اعتبر الأزارقة منهم: [أتباع نافع بن الأزرق] أن ديار مخالفيهم هي ديار كفر، وكل من أقام بها فهو كافر، وأن النار هي مصير أطفال مخالفيهم. ولم يعترفوا جميعهم لا بشرعية الخلافة الأموية ولا العباسية، وكانوا في حالة حرب معهما طيلة عهدهما. وفي المقابل، لم يرشح عن علي بن أبي طالب أنه

كفرهم ولا بدأهم بقتال ولا استحل دماء أطفالهم وشيوخهم ونسائهم وأموالهم، وإنما سعى دائماً إلى محاورتهم، وتمكن من إقناع آلاف كثيرة منهم بوجهة نظره. وقبيل وفاته، أوصى قائلاً «لا تحاربوا الخوارج من بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه».

وهكذا، فالخوارج يرون أن من يقر بوحدانية الله، وبنبوة محمد ورسالته ولا يعمل بمقتضى هذه الرسالة أو يهمل عبادة من العبادات أو شعيرة كبيرة من شعائر الإسلام، هو فاسق كافر، مخلّد في النار في الآخرة، ويستحق القتل في الدنيا. وانتهى الأمر بهم إلى حدّ أنهم زعموا أنهم وحدهم هم المؤمنون وأن ما عداهم من المسلمين قد مرقوا من الدين. وبذلك أضفوا على خلافهم السياسي بينهم وبين الإمام علي وسائر المسلمين، طابعاً دينياً، مما حدا بسائر الفرق الاسلامية التي نشأت بعدهم إلى أن تضفي على آرائها الفكرية والسياسية طابعاً دينياً. ويمكن القول: إن الخوارج كانوا أول فرقة في الإسلام أضفت على خلافها السياسي مع الخليفة، الصبغة الدينية، فكفروا كل من لم يجاريهم من المسلمين في آرائهم، وغلوائهم، وكانوا بذلك أوائل التكفيريين في الإسلام(1). وقد جاء في كتاب **تيارات الفكر الاسلامي**، لمحمد عمارة: «في سنة ١٢٧ هـ حارب في جيش الخوارج، الذي قاده الضحاك بن قيس الشيباني، مائة وعشرون ألفاً من المقاتلين، وحاربت في هذا الجيش نساء كثيرات... وانتصر هذا الجيش على الأمويين بالكوفة في رجب سنة ١٢٧هـ وبواسط في شعبان سنة ١٢٧هـ»(2).

(1) يقول عبد الرحمٰن بدوي في ص٧ من مقدمته لترجمة كتاب الخوارج والشيعة: إن الخوارج «عدوا مخالفيهم مرتدين. وحكم المرتد عن الإسلام القتل...».
(2) بيروت، دار الوحدة، ١٩٨٥، ص٢٦.

« ٢ »

وعندما تمكن معاوية بن أبي سفيان (٢٠ ق.هـ - ٦٠هـ/ ٦٠٣ - ٦٨٠م) من إقامة الدولة الأموية في الشام وتبديل النظام الملكي الوراثي بنظام الشورى والاختيار، ليولي الحكم من بعده إبنه يزيداً - الذي أمر بقتل الحسين بن علي، إبن بنت رسول الله، بعد توليه - طرحت مسألة ماهية الإيمان والعلاقة بين الإيمان القلبي والعمل بقوة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. وكان من الطبيعي أن يروج معاوية وأنصاره لفكرة الفصل التام بين الإيمان والعمل. فالإيمان شيء، والعمل والسلوك بما يقتضيه هذا الإيمان من طاعات، شيء آخر. إن الإيمان هو التصديق القلبي فقط، أي الإيمان بالله وبرسوله، ولا يقدح في صحة هذا الإيمان معصية مهما كبرت، كما لا ينفع مع الكفر طاعة مهما عظمت، لأن الطاعة لا تحيل الكافر مؤمناً، كما أن المعصية لا تجعل المؤمن كافراً. والحكم على عقيدة المرء يجب تركه أو إرجاؤه إلى الله تعالى في الآخرة، لأنه هو وحده العالم ببواطن القلوب، وهو الغفور الرحيم.

وهذا الأمر، يعني إبعاد شبح التكفير عن الحكم الأموي وممارساته الظالمة في الحياة الدنيا، ولاسيما نقله السلطة السياسية من الشورى في عهد الخلفاء الراشدين إلى الملك الوراثي، والإيمان بعقيدة الجبر في كل ما يصيب المسلمين، باعتبار ذلك من قضاء الله. وقد وقف أصحاب هذا الفكر الإرجائي والجبري من مرتكب الكبيرة موقفاً مناهضاً للخوارج. فالخوارج كانوا يرون أن مرتكب الكبيرة، كتارك الصلاة والصيام، والظالم، والزاني، والحالف بالله كذباً... الخ، كافر، يستحق القتل في الدنيا، والنار في الآخرة؛ أما هم - أي المرجئة - فرأوا أنه مؤمن، له حكم

الإيمان في الدنيا، أما في الآخرة فأمره متروك إلى الله تعالى. وقد ذهب بعض أصحاب هذا الفكر السياسي الديني الإرجائي من الكرامية ـ أتباع محمد بن كرام السجستاني ـ إلى القول: إن الإيمان هو التلفظ باللسان فقط حتى وإن اعتقد المتلفظ به الكفر بقلبه[1].

« ٣ »

وإزاء ترويج الحكم الأموي لعقيدتي الجبر والإرجاء للافلات من إدانة معارضيه على الصعيدين الديني والسياسي، أعلن الخوارج عداءهم لشعارات الدولة الأموية السياسية والدينية، وشهروا سلاحهم بوجهها حتى انهيارها.

كما وقف أنصار علي بن أبي طالب وآل البيت عموماً، موقفاً مناوئاً دينياً وسياسياً للدولة الأموية، وقادوا عدة ثورات ضدها، منها: ثورة الحسين بن علي، وثورة التوابين، وثورة المختار الثقفي، (٦٧هـ/ ٦٨٧م)، وثورة زيد بن علي (٧٩ ـ ١٢٢هـ ٦٩٨ ـ ٧٤٠م) بالكوفة ـ ضد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ـ الذي «اجتذبت دعوته تأييد الكثيرين من أبرز الفقهاء والقراء والزهاد المعاصرين... فالإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان [٨٠ ـ ١٥٠هـ ٦٩٩ ـ ٧٦٧م) أيد الثورة، وبايع زيداً، وأسهم في تجهيز جيش الثورة بعشرة آلاف درهم!.. وقال للناس: لقد ضاهى خروج زيد خروج رسول الله يوم بدر؟!.. كما انضم إليها وأيدها... الفقهاء: ... سليمان بن كهيل، والحجاج بن دينار... وسفيان

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ج٢، ط القاهرة، ١٣٣١هـ، ص٦٤ ـ ٦٦. والخوارزمي، مفاتيح العلوم، ط القاهرة ١٣٤٢هـ، ص٢٠ ـ ٢١. [عن محمد عمارة، المرجع السابق، ص٣٩].

الثوري... وكل علماء المعتزلة وفقهائها ومحدثيها، وعلى رأسهم: واصل بن عطاء... وعمرو بن عبيد...»[1] الخ.

وقد وقف الإمام الحسن البصري (٢١ ـ ١١٠هـ/ ٦٤٢ ـ ٧٢٨م) إمام مدرسة أهل العدل والتوحيد في البصرة موقفاً مناوئاً للأمويين، مؤكداً على حرية الإنسان واختياره وقدرته على فعل ما يريد ومن ثم مسئوليته عن أفعاله. كما أدان نصيحة عمرو بن العاص لمعاوية بن أبي سفيان برفع المصاحف في صفين، وكذلك نصيحة المغيرة بن شعبة لمعاوية بالبيعة لابنه يزيد، فضلاً عن انتهاك الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ ـ ٩٥هـ/ ٦٦٠ ـ ٧١٤م) حرمة مكة والمدينة، وضرب الكعبة بالمنجنيق، مخاطباً الحجاج: «يا أخبث الأخبثين، وأفسق الفاسقين، أما أهل السماء فمقتوك، وأما أهل الأرض فغروك... أبى الله تعالى للميثاق الذي أخذه على أهل العلم ليبيننه للناس ولا يكتمونه»[2].

كذلك، وقف غيلان بن مسلم الدمشقي ـ وهو من موالي عثمان بن عفان ـ الذي درس على الحسن بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب (ت١٠٠هـ ٧١٨م)، وكان من قادة أهل العدل والتوحيد في الشام، موقفاً مناوئاً ومناهضاً للدولة الأموية وطروحاتها الدينية السياسية في عقيدتي الجبر والإرجاء، وتحويل الخلافة الراشدة من الشورى الدينية إلى الملك والتوريث، مما أدى إلى استشهاده من أجل معتقده.

وكان للحسن البصري موقف وسط بين إفراط الخوارج الذين كفروا

---

(١) انظر: د. محمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامي، بيروت، دار الوحدة، ١٩٨٥، ص١٠٩.

(٢) المرجع نفسه [نقلاً عن أمالي المرتضى للشريف المرتضى، القاهرة، ١٩٥٤م، ص١٦٠ ـ ١٦١].

مرتكب الكبيرة وأوجبوا قتله في الدنيا إذا لم يتب عن ذنبه، وتفريط المرجئة الذين أثبتوا له الإيمان وأرجأوا الحكم على أفعاله إلى الله تعالى في الآخرة، قائلاً: إن مرتكب الكبيرة المصر عليها ليس بكافر كما يرى الخوارج، وليس بمؤمن كما يرى المرجئة، وإنما هو منافق.

والمنافق هو من كان ظاهره الإسلام وباطنه خال من الإيمان، لا تصدق أعماله أقواله، ويقوم بأفعال العبادة رياء ومداهنة، وله في الدنيا أحكام المسلمين بمقتضى الظاهر، وفي الآخرة هو في الدرك الأسفل من النار بموجب ما يبطنه من كفر. فقد جاء في الآية ١٦٧ من سورة آل عمران:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

وفي تفسير هذه الآية، يقول كثير من المفسرين، إن عبد الله بن أبي بن سلول خرج مع النبي يوم أحد في ثلاثمئة مقاتل، وفي أثناء الطريق رجع هو ومن معه إلى المدينة بقصد التخذيل وتثبيط الهمم، فقال لهم عبد الله أبو جابر الأنصاري: لماذا ترجعون؟ فإن كان لكم دين فقاتلوا عن دينكم، وإن لم يكن لكم دين فدافعوا عن أنفسكم وأهلكم وأموالكم، فأجابوه: لو نعلم أن قتالاً سيقع بينكم وبين المشركين لاتبعناكم. وكان الله تعالى يعلم أنهم منافقون يكتمون كفرهم بالله وبرسوله.

وجاء في الآيات ٦٧ و٦٨ و٧٣ من سورة التوبة:

﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ

ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وجاء في الآيتين ١٤٠ و١٤٥ من سورة النساء: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾. ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

« ٤ »

وعندما جاء أبو حذيفة، واصل بن عطاء الغزال[1] (٨٠ ـ ١٣١هـ ٦٩٩ ـ ٧٤٨م) وهو من موالي بني هاشم إلى البصرة قادماً من المدينة حيث تتلمذ فيها على عبد الله بن محمد بن الحنفية (ت٩٩هـ ٧١٧م)، انضم إلى حلقة الحسن البصري الدينية في مسجد البصرة. وكان أفراد هذه الحلقة يعرفون باسم **أهل العدل والتوحيد**، وكانوا معارضين للحكم الأموي ومظالمه. وتبع انضمام واصل إلى حلقة البصري احتدام الجدل والمناظرات الدينية والسياسية حول مرتكب الكبيرة. وكان رأي واصل أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر كما يقول الخوارج، لعدم وجود نص عليه بالكفر، سواء كان ذلك في القرآن الكريم أو السنة النبوية، ولأن الكافر لا يرث من المسلم ولا يدفن في مقابر المسلمين، ومرتكب الكبيرة لا يُفعل به ذلك. كما أنه ليس بمؤمن خالص كما تقول المرجئة، لأن حكم الله في المؤمن هو الوعد بالجنة، وحكمه في صاحب الكبيرة، اللعنة والعذاب العظيم. وهو ليس بمنافق كما يقول الحسن البصري لزوال حكم المنافقين عنه في سنة رسول الله؛ وإنما هو فاسق، وفي منزلة بين منزلتي

(١) لقب بالغزّال لاشتغاله بصناعة الغزل، أو لسكناه في حي الغزالين.

الكفر والإيمان، لمباينته درجات الكفار وأحكامهم، ودرجات المؤمنين وصفاتهم. وحكمه في الآخرة، هو «الخلود في النار»[1]، ولكن في درجة من العذاب دون درجة الكفار والمشركين. والفاسق هو الذي يقر بوحدانية الله وبنبوة محمد ورسالته، ولكنه لا يعمل بمقتضى ذلك دائماً، فيخرج أحياناً عن طاعة الله ورسوله أو يفحش في ذلك فلا يصلي، أو لا يصوم، أو يشرب الخمر، أو يزني، أو يحلف كذباً، أو يشهد الزور... الخ. ومعنى الفسق ودائرته أعم وأكبر من معنى ودائرة الكفر والنفاق، ومعنى الكفر والنفاق أخص من معنى الفسق. وقد أشار القرآن الكريم في كثير من الآيات إلى أن من معاني الفسق: الكفر، والنفاق، والكذب، ونقض العهد، ومخالفة أوامر الله ونواهيه: فقد جاء في الآية ٩٩ من سورة البقرة، والآية ٤٩ من سورة المائدة، والآية ٤ من سورة النور، والآية ٦ من سورة الحجرات:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾.

وهذه الآية الأخيرة نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط عندما بعثه

---

(١) محمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامي، ص١٣١.

النبي ﷺ إلى بني المصطلق اليهود ليجبي صدقاتهم، فرجع من الطريق قائلاً للنبي ﷺ: إنهم أرادوا قتلي، فأراد النبي ﷺ أن يغزوهم، فأنزل الله تعالى عليه هذه الآية.

وقد وصف الله تعالى في الآية ٦٧ من سورة التوبة المنافقين بأنهم الفاسقون:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۢ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وقد انحاز عمرو بن عبيد (٨٠ ـ ١٤٤هـ ٦٩٩ ـ ٧٦١م) أشهر علماء أهل العدل والتوحيد وأكثرهم علماً وفقهاً وزهداً وفلسفة، ومعه، وبعده كثيرون، إلى جانب واصل بن عطاء، وانشقوا عن الحسن البصري واعتزلوه، متخذين حلقة خاصة بهم في مسجد البصرة برئاسة واصل، فقال الحسن: اعتزلنا واصل، فسموا بالمعتزلة. وكانت أفكار هذه الحلقة تدور حول أصول فكرية أربعة في قبالة أصحاب الفرق الاسلامية الأخرى.

وهذه الأصول هي:

١ ـ **التوحيد التام** لله تعالى بالذات وبالصفات، وتنزيهه عن أي تشبيه خلافاً للمشبهة والمجسمة والحشوية على اختلافها، سواء أكانت إسلامية أو غير إسلامية.

٢ ـ **العدل الإلهي** المتعلق بقدرة الإنسان على خلقه لأفعاله على سبيل الحقيقة لا المجاز مما يقتضي مسئوليته عنها، وأن حسابه عليها عدل من الله، وذلك خلافاً لرأي المجبرة [أهل الجبر] الذين يرون أن الإنسان ليس بخالق لأفعاله، وإنما الخالق لكل شيء هو الله تعالى.

كأن يكره على تناول الخمرة أو التلفظ بالكفر، فيجوز له الخضوع لهذا الاكراه. وهذا الواجب ـ أي إنكار المنكر ـ يرتفع، إذا ما كان يؤدي إلى حصول منكر أشد من المنكر المنهي عنه، كأن يؤدي النهي عن شرب الخمر إلى الفتنة أو القتل، أو يؤدي إلى وقوع ضرر في المال أو النفس للناهي عنه. ولذا، فإن المعتزلة لم يجوزوا الثورة على الإمام الجائر إلّا إذا كان نجاحها أمراً محتملاً، وكان يقودها إمام يقول بقولهم[1].

واستناداً إلى هذا الأصل أو المبدأ ساند المعتزلة ثورات عديدة ضد الأمويين والعباسيين الذين حولوا الخلافة الراشدة إلى الملك الوراثي، وضد مظالمهم الكثيرة ولاسيما التنكيل بآل بيت النبي. ومن هذه الثورات التي ساندوها، تلك التي أعلنها الأمام زيد بن علي بن الحسين (٧٩ ـ ١٢٢هـ/ ٦٩٨ ـ ٧٤٠م) بالكوفة سنة ١٢٢هـ، وكان على صلة وثيقة بواصل بن عطاء الغزال، وأيدها بقوة الإمام أبو حنيفة النعمان (٨٠ ـ ١٥٠هـ/ ٦٩٩ ـ ٧٦٧م) بالقول والمال الكثير [عشرة آلاف دينار] ضد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (٧١ ـ ١٢٥هـ/ ٦٩٠ ـ ٧٤٣م). وكذلك الثورة التي أعلنها يحيى بن زيد بن علي في أواخر سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م ضد الخليفة الأموي الوليد بن يزيد (٨٨ ـ ١٢٦هـ ٧٠٧ ـ ٧٤٤م)، والثورة التي أعلنها عبد الله بن معاوية بن عبد الملك بن جعفر بن أبي طالب سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٤م بالكوفة على مروان بن محمد (٧٢ ـ ١٣٢هـ/ ٦٩٢ ـ ٧٥٠) آخر الخلفاء الأمويين. هذا فضلاً عن الثورة التي قادها قبل كل هذه الثورات العلوية على الأمويين، عبد الرحمن بن الأشعث سنة ٨٥هـ/ ٧٠٤ ضد الحجاج بن يوسف الثقفي والخليفة عبد

(١) مقالات الاسلامين لأبي الحسن الأشعري، ج٢، ص٤٦٦.

الملك بن مروان، وكذلك الثورة التي أعلنها الحارث بن سريج الأزدي ضد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١١٦هـ/ ٧٣٤م. ناهيك عن الثورة التي أعلنها محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية (٩٣ ـ ١٤٥هـ/ ٧١٢ ـ ٧٦٢م) بالمدينة سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م ضد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (٩٥ ـ ١٥٨هـ/ ٧١٤ ـ ٧٧٥م)، والثورة التي أعلنها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن (٩٧ ـ ١٤٥هـ/ ٧١٦ ـ ٧٦٣م) أخو النفس الزكية، بالبصرة ضد الخليفة أبي جعفر المنصور.

وفي قبالة هذا الأصل، الذي يجوز الثورة على الإمام الجائر أو الفاسق، إذا كان نجاحها محتملاً، يورد أبو يعلى الفراء (٣٨٠ ـ ٤٥٨هـ/ ٩٩٠ ـ ١٠٦٦م) في كتابه الأحكام السلطانية[1] قول أحمد بن حنبل إمام أهل الحديث والسلفية في هذا الأمر: «من غلب بالسيف حتى صار خليفة، وسمي أمير المؤمنين، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً عليه، براً كان أو فاجراً، فهو أمير المؤمنين...». وقريباً من رأي إبن حنبل، يذكر أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٣٦م) في كتابه **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**[2] أن «أصحاب الحديث» أو «أهل السنة والجماعة» ومنهم: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك (١٨١هـ) وإبن راهويه (٢٣٨هـ) والإمام البخاري (٢٥٦هـ) وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ) وعبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦هـ)... الخ، اتفقوا على أن استخدام السيف أو القوة في تغيير الإمام «باطل، ولو قتل الرجال وسبيت الذرية، وأن الإمام قد يكون عادلاً، أو يكون غير عادل، وليس لنا إزالته وإن كان فاسقاً، وأنكروا

---

(١) القاهرة، ١٩٣٨، ص٤.

(٢) ط. استانبول، ١٩٢٩، ج٢، ص٤٥١ ـ ٤٥٢.

الخروج على السلطان...». وابن تيمية في كتابه **منهاج السنة**[1] يرى أن السلطان ظل الله في الأرض. ولذا، فإنه لا يحبذ الثورة على الإمام الجائر لأن ضررها أكثر من ضرر الجور «وستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان. والمشهور من مذهب أهل السنة والجماعة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم... لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة...». وابن قيم الجوزية تلميذ إبن تيمية يرى في كتابه **أعلام الموقعين**[2] أن الخروج على الملوك والولاة هو أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر. ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار، عرف أن ذلك من نتيجة هذا الأصل وعدم الصبر على المنكر. وهو يورد «حديث الصحابة الذين استأذنوا الرسول في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها»، ورد الرسول عليهم: «لا، ما أقاموا الصلاة». مع الملاحظة أن هذا الحديث يوحي بجواز قتال الأمراء في حال عدم إقامتهم للصلاة، وتالياً فمن باب أولى وجوب قتالهم في حال ظلمهم الأمة، وجورهم، وفسادهم.

« ٥ »

وفي مواجهة مذهب المعتزلة العقلي الذين لم يقفوا عند ظواهر النصوص بل اجتهدوا في تأويلها وجعلوا العقل حكماً عليها عند تعارضهما، صاغ الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١هـ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م) منهجه الأصولي السلفي وأصوله الخمسة أيضاً، وهي:

---

(١) ط القاهرة، ج٢، ص٨٧. والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ط القاهرة، ١٩٧١، ص١٨٥.

(٢) بيروت، ج٣، ١٩٧٣، ص٤.

أولاً ـ النصوص القرآنية والنبوية التي يجب العمل بها ولا يجوز مخالفتها برأي أو قياس أو عمل من الصحابة.

ثانياً: سنة أو آثار الصحابة فإذا ما وجدت فتوى ولا خلاف بين الصحابة عليها، عمل بها، ولا يجوز مخالفتها برأي أو قياس.

ثالثاً ـ في حال اختلاف الصحابة في أقوالهم، يجب التخير من أقوالهم ما هو أقرب إلى الكتاب والسنة النبوية، وإذا لم يتبين هذا التخير، وجب إيراد أقوالهم جميعها، ولا يجوز الجزم بقول دون آخر.

رابعاً ـ الأخذ بالحديث الحسن والضعيف والمرسل وترجيحه على القياس.

خامساً ـ الأخذ بالقياس عند الضرورة، عندما لا يوجد في مسألة ما، لا نص، ولا حديث مرسل أو ضعيف، ولا قول للصحابة.

وانطلاقاً من هذا المنهج النصي السلفي، رأى أحمد بن حنبل إمام أهل السنة والجماعة، أن القرآن والسنة النبوية قد بينا كل شيء من أمور الدين والدنيا. فقد جاء في القرآن الكريم ﴿...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

وهذا المنهج الذي يعطي الأولوية للنقل على العقل يناهض بقوة منهج المعتزلة الذين لم يقفوا عند ظواهر النصوص بل اجتهدوا في تأويلها وجعلوا العقل حكماً عليها عند تعارضهما. وكان أحمد بن حنبل يرى أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص. يزيد بالطاعات وينقص بالعصيان. ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام بالعصيان، ولا يخرج

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.

من الإسلام إلّا بالشرك بالله أو بجحد فريضة من فرائض الله. فإن ترك إحدى هذه الفرائض تهاوناً وكسلاً كان في مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

« ٦ »

ومع مطلع القرن الرابع الهجري، وبعد وفاة أحمد بن حنبل بأكثر من قرن ونصف القرن، قامت الأشعرية برئاسة أبي الحسن الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ ـ ٨٧٤ ـ ٩٣٦م) الذي انفصل عن المعتزلة بعد ثلاثين سنة قضاها في الاعتزال، حيث تتلمذ على أبي علي الجبائي (٢٣٥ ـ ٣٠٣هـ ٨٤٩ ـ ٩١٦م)، وكان من أشد المدافعين عن أصول الاعتزال. لقد جاء الأشعري بمذهب وسط بين المعتزلة والسلفية. فهو لم يتنكر للعقل، ولم يرفض علم الكلام المعتزلي الذي تمرس فيه ورفضته السلفية اكتفاء بالنصوص، ولم ينحز إلى العقل وتأويل النصوص كما تفعل المعتزلة. كان مذهبه يعتمد على النص والعقل معاً، مع تحكيم النص غالباً عند مخالفته للعقل، خلافاً للمعتزلة الذين يحكمون العقل دائماً في حال تعارضه مع ظواهر النصوص، وخلافاً أيضاً لأصحاب الحديث السلفيين الذين يقدمون النص والحديث المرسل والضعيف على الرأي والقياس. ومذهبه كان تصويب المجتهدين جميعهم في الفروع وعدم تكفير أحد من المسلمين.

وهذه الوسطية الأشعرية بين نصوصية السلفية وعقلانية المعتزلة سرعان ما تطورت وازدادت وسطية وعقلانية فيما يتعلق بقضايا الإيمان والتكفير، وتعارض النصوص مع قواطع أحكام العقل، مع أبي بكر محمد الباقلاني (ت٤٥٣هـ ١٠١٣م)، وإمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني (٤١٩ ـ ٤٧٨هـ ١٠٢٨ ـ ١٠٨٥م)، وحجة الإسلام أبو

حامد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م)، ولاسيما مع الغزالي الذي لم يكن يرى تعارضاً بين أحكام العقل القاطعة ونصوص الشرع الظاهرة. وإذا ما قام مثل هذا التعارض بين النقل والعقل، وجب تأويل النقل عند تعارضه مع براهين العقل الجازمة. فهو يقول في كتابه **الاقتصاد في الاعتقاد** عن مذهب الأشاعرة بعد تطوره: «[لقد] تحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من ظن من الحشوية وجوب الجمود على التقليد، واتباع الظواهر، ما أتوابه إلا من ضعف العقول وقلة البصائر. وأن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل، حتى صادموا به قواطع الشرع، ما أتوا به إلّا من خبث الضمائر. فميل أولئك إلى التفريط وميل هؤلاء إلى الإفراط. وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط. بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد والاعتماد على الصراط المستقيم. فكلا طرفي قصد الأمور ذميم. وأنّى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر... وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر... فالمعرض عن العقل مكتفياً بنور القرآن مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور... وكل ما ورد السمع به ينظر فإن كان العقل مجوزاً له وجب التصديق به قطعاً إن كانت الأدلة السمعية قاطعة في متنها ومستندها لا يتطرق إليها احتمال، ووجب التصديق بها ظناً إن كانت ظنية... وأما ما قضى العقل باستحالته فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به ولا يتصور أن يشتمل السمع على قاطع مخالف للمعقول. وظواهر أحاديث التشبيه أكثرها غير صحيحة، والصحيح منها ليس بقاطع بل هو قابل للتأويل، فإن توقف العقل في

شيء من ذلك فلم يقض فيه باستحالة ولا جواز وجب التصديق أيضاً لأدلة السمع، فيكفي في وجوب التصديق انفكاك العقل عن القضاء بالإحالة وليس يشترط اشتماله على القضاء بالتجويز»[١].

وبناء على هذه الوسطية الغزالية الأشعرية المتطورة، وسطية النقل والعقل المعتدلة، رفض الغزالي تكفير المسلمين وفرقهم المصلين إلى القبلة، المصرحين بشهادة: لا إله إلّا الله محمد رسول الله، المخالفين برأيه لعقيدة أهل الحق والسنة، أو بحسب عبارته «لعصابة الحق وأهل السنة»، لأن هؤلاء المكفرين هم إما من العوام، أو من أهل الكلام المجتهدين المعذورين في اجتهادهم، الذين لا ينكرون أصلاً من أصول الدين، ولا ركناً من أركانه، كالصلاة والصيام، والمعادين للفلاسفة المسلمين الذين يقولون بقدم العالم، ويعلم الله للكليات دون الجزئيات، وبالمعاد الروحي لا الجسدي، داعياً إلى الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلاً، لأن استباحة دماء وأموال المصلين إلى القبلة، المؤمنين بالله ورسوله، خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم، وقد قال النبيﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله محمد رسول الله، فإذا قالوها، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[٢].

ورأيي أن موقف الإمام الغزالي الأشعري المعبر عن رأي أهل السنة والجماعة في قضية الإيمان والتكفير التي عصفت بالمسلمين منذ القرن الأول للهجرة، بعد وفاة الرسولﷺ، في عهد الخليفة الأول مع أهل

---

(١) الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، مطبعة صبيح وأولاده، مصر، ١٩٧١، ص٣، ٧ ـ ٨.
(٢) المصدر نفسه، ص١٢٦.

الردة، وفي عهد الخليفة الرابع بخاصة، والتي تذر اليوم برمادها في ديار المسلمين منذ عقد من الزمن، بتكفير بعضهم لبعض من دون وازع ديني، ولا رادع عقلي وأخلاقي، هو - أي موقف الغزالي - موقف يستحق الوقوف عنده والبحث فيه، لأنه الفيصل في هذه القضية أو المسألة، مسألة: **الإيمان والكفر في الاسلام.**

« ٧ »

يقول الغزالي في كتابه **الاقتصاد في الاعتقاد وكتابه إحياء علوم الدين** (الجزء الأول): **أن الإيمان في الإسلام إسم مشترك يطلق على ثلاثة معان. المعنى الأول**: التصديق بالقلب بالله وبالرسول ﷺ على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر، ومن غير نظر في أدلة الوحدانية أو برهان، وهو إيمان العوام أو الخلق كلهم إلّا الخواص منهم. وكان رسول الله ﷺ يقبل من الناس مثل هذا الايمان عند نطقهم بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. وهذا الإيمان قد يقوى ويشتد تارة وقد يضعف ويتراخى تارة أخرى، كالعقدة على الخيط، ولا يمكن لأحد أن يجحد التفاوت فيه لاختلاف المصدقين في أنفسهم وفي أحوالهم. ولا شك في أن فعل الطاعات يؤثر في زيادة هذا الإيمان في القلب كتأثير الماء في النبات، كما يؤثر التشكيك والتخويف من نقصانه. وقد جاء في كتاب الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[1]. كما جاء عن النبي ﷺ: «الإيمان يزيد وينقص»[2]. وعن علي بن أبي طالب كرم الله

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٤.

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، وابن عباس، وأبي الدرداء.

وجهه: «إن الإيمان في القلب ليبدو لمعة بيضاء، فإذا عمل المؤمن الطاعات نمت وزادت حتى يبيض القلب كله».

المعنى الثاني: التصديق بالقلب والعمل معاً. ولا يمكن لأحد أن ينكر أثر التفاوت في الأعمال زيادة أو نقصاناً، وصحة أو فساداً، وأن المواظبة والتعود على الطاعات تزيد من طمأنينة النفس وتؤكد الاعتقاد التقليدي ورسوخه في القلب والنفس بحيث تصبح النفس عصية على التشكيك. والدليل على مثل هذا الايمان، قول الله تعالى في الآية ١٦٣ من سورة آل عمران، والآية ١٠ من سورة الحديد، من كتابه الكريم:

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وكذلك قول الرسول ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون باباً أدناها إماطة الأذى عن الطريق»(١)، وقوله أيضاً: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(٢). وقول الرسول ﷺ هذا، يعني ارتباط كمال الإيمان بالطاعات، ومنها: الوفاء بالعهد، والصبر على الشدائد، والتقوى، والزهد، والتواضع... الخ، وبراءته عن النفاق، والشرك الخفي، استناداً إلى قوله ﷺ: «أربع من كنّ فيه فهو منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن: من إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر». ومن حديث لأبي سعيد الخدري عن

---

(١) رواه الإمام البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة.
(٢) رواه أبو هريرة [الإحياء، ج١. ص١١٩].

النبيﷺ: القلوب أربعة: قلب أجرد وفيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن. وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق...». وعن النبيﷺ: أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها»[1].

والنفاق نفاقان: أحدهما يخرج صاحبه من الدين ويلحق بالكافرين ويكون في زمرة الخالدين في النار. والثاني يفضي بصاحبه إلى النار مدة أو ينقص من درجته في الجنة. وأصل هذا النفاق التفاوت بين القلب واللسان أو الظاهر والباطن؛ ولا يخلو من ذلك إلا الصديقون. وقد سئل الحسن البصري أمؤمن أنت؟ فقال: إن شاء الله. وكان يقول ما يدريني أن يكون الله سبحانه قد اطلع عليّ في بعض ما يكره فمقتني، وقال: إذهب لا قبلت لك عملاً. ويروى عن النبيﷺ: أنه «كان جالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً وأكثروا الثناء عليه. فبينا هم كذلك، إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء، وقد علق نعله بيده، وبين عينيه أثر السجود، فقالوا يا رسول الله: هو هذا الرجل الذي وصفناه، فقالﷺ: أرى على وجهه سفحة من الشيطان، فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم. فقال النبيﷺ: نشدتك الله، هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك، فقال: اللهم نعم»[2].

وثمة سورتان في القرآن الكريم، إحداهما تسمى: **المنافقون** تتحدث عن بعض أوصاف المنافقين، والأخرى، تسمى: **المؤمنون** تتحدث عن بعض أوصاف المؤمنين.

المعنى الثالث: التصديق اليقيني البرهاني المتأتي عن معرفة الله تعالى

---

(١) رواه أحمد والدارقطني من حديث أنس. [أنظر: كتاب إحياء علوم الدين، ج١، ص١٢٢].

(٢) المصدر نفسه، [الإحياء...] ص١٢٣.

بالدليل، أو التصديق اليقيني المتأتي من الكشف وانشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة. ومن كان حاله هذا الإيمان ومات ولو عقب إيمانه مباشرة، فإن حكمه حكم المؤمن. وهذا الإيمان لا يتصور زيادته ولا نقصانه، لأن اليقين الكامل إن حصل فلا مزيد عليه، وإن لم يحصل فليس بيقين.

والأمر الذي لا شك فيه برأي الغزالي، أن النفوس تتفاوت في درجات طمأنينتها، وأن ما قاله السلف من أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، حق، استناداً إلى قول الرسول ﷺ: «أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»[١]. وهذا معناه أن الإيمان في الأصل لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان. وأن العمل ليس من أجزاء الإيمان ولا من أركان وجوده، بل هو مزيد عليه يختلف حاله بعد الوجود زيادة أو نقصاناً، لأن الشيء لا يزيد بذاته، فلا يجوز القول: إن الإنسان يزيد برأسه، بل يقال: يزيد بوزنه، ولا يجوز أن يقال: إن الصلاة تزيد بالركوع والسجود، بل تزيد بالخشوع والتقوى[٢].

« ٨ »

ويرى الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين[٣] أن من معاني الإيمان:

١ ـ الإيمان بالله الواحد الأحد، الحي، العالم بكل شيء، الخالق، القادر، الرازق، المريد، السميع، البصير...

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري وأنس [الإحياء، ج١، ص١١٦ ـ ١١٨].
(٢) الاقتصاد في الاعتقاد، ص١١٤، والإحياء، ج١، ص١١٩.
(٣) ج١، ص٨٩، ٩٢ ـ ٩٣.

٢ ـ الإيمان بالثواب والعقاب الجسدي في الآخرة، وبأن الله معلوم الوجود بالعقول، ومرئي الذات بالأبصار يوم القيامة.

٣ ـ القيام بالأعمال الصالحة، والإيمان «باخراج الموحدين من النار» بعد العقاب، بحيث لا يبقى أو يخلد في جهنم موحد بالله تعالى بفضله وكرمه.

٤ ـ الإيمان بشفاعة الأنبياء أولاً، والعلماء ثانياً، والشهداء ثالثاً، ثم سائر المؤمنين كل بحسب منزلته عند الله تعالى. ومن كان من المؤمنين في النار، ولم يكن له شفيع، أخرجه الله تعالى بفضله من النار، بحيث لا يخلد في النار مؤمن، ويخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان. ويستند الغزالي في كلامه عن إخراج الموحدين من النار حتى لا يبقى فيها موحد يقول لا إله إلا الله، إلى الصحيحين: صحيح البخاري وصحيح مسلم من حديث أبي هريرة. كما يستند في شفاعة الأنبياء والعلماء والشهداء وسائر المؤمنين إلى إبن ماجه من حديث عثمان بن عفان، وإلى الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري. وقد جاء في حاشية الجزء الأول من كتاب الإحياء[1] وكذلك في الهامش منه، أن من لا شفاعة له في الآخرة فإن الله تعالى يخرجه من النار حتى ولو «لم يعمل حسنة قط» على تقدير أن الإيمان لا يقتضي الأعمال.

والذي لا شك فيه، أن الغزالي قد استند في ما يقوله وفي رأيه هذا، إلى الآيات القرآنية الكثيرة التي تتحدث عن رحمة الله الواسعة التي تسع كل شيء، إلى حدّ أن الشيطان، برأي البعض، يطمع في رحمة الله في الآخرة والدخول إلى الجنة، وأن ما من أحد إلا داخلها إلّا من أبى. ومن هذه الآيات نذكر على التوالي: الآية ٥٣ من سورة الزمر، والآية ١٤٣ من

(١) ص٩٣.

سورة البقرة، والآية ١٢ من سورة الأنعام، والآية ٤٨ من سورة النساء، والآية ١٥٦ من سورة العنكبوت، والآية ١٥٦ من سورة الأعراف.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ويناقش الغزالي في كتابه الإحياء[1] مسألة «الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان»، فيرى أن السلف قد اختلفوا فيما إذا كان الاسلام هو الإيمان أو غيره،

---

(١) ج١، ص١١٥.

وإن كان غيره، فهل هو منفصل عنه يوجد دونه أو هو مرتبط به ملازم له. فبعضهم رأى أنهما شيء واحد، وبعضهم الآخر رأى أنهما شيئان منفصلان لا تواصل بينهما، والبعض الثالث رأى أنهما شيئان متصلان يرتبط أحدهما بالآخر.

وقد بحث الغزالي هذه المسألة في ثلاثة مباحث:

الأول عن المراد بالإيمان والإسلام في اللغة.

الثاني عن المراد بهما في الشرع.

الثالث عن حكمهما في الدنيا والآخرة.

١ ــ الإيمان والإسلام في اللغة

رأى الغزالي أن الإيمان هو التصديق لقوله تعالى ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي بمصدق. والتصديق محله القلب، واللسان ترجمانه. أما الاسلام فمعناه التسليم والاستسلام والاذعان والانقياد، وهو عام في القلب واللسان والجوارح. وكل تصديق بالقلب هو تسليم واعتراف باللسان، والطاعة والانقياد بالجوارح. وهذا الأمر يعني أن كل تصديق هو استسلام وتسليم، وليس كل تسليم [كالاعتراف باللسان] تصديقاً، ما يعني أن الإسلام في اللغة أعم، والايمان أخص وهو أشرف أجزاء الإسلام.

٢ ــ الإيمان والإسلام في الشرع

لقد ورد ذكر الإيمان والإسلام في القرآن الكريم على سبيل **الترادف**، كما ورد على سبيل **الإختلاف**، وعلى سبيل **التداخل**.

أ ـ أما ورودهما على سبيل الترادف، ففي قوله تعالى ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾. كذلك جاء عن الرسول ﷺ: بني

الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام شهر رمضان، وحج بيت الله الحرام». وعندما سئل ﷺ عن الإيمان، أجاب بهذه الخمس، ما يعني أن الإسلام كناية عن التسليم بالقلب والظاهر معاً، بحيث يدخل فيه الإيمان، لأن التسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن.

ب ـ وأما ورودهما على سبيل الاختلاف، ففي قوله تعالى في الآية ١٤ من سورة الحجرات ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ... ﴿١٤﴾﴾. ما يعني أن الإيمان هنا هو التصديق بالقلب، وأن الإسلام هو التسليم ظاهراً باللسان والجوارح. وعن النبي ﷺ عندما سأله جبرائيل ﵇ عن الإيمان؟ أجابه: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره». وعندما سأله عن الإسلام؟ أجابه بذكر الخصال الخمس أعلاه[1]، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام شهر رمضان، وحجّ بيت الله الحرام.

جـ ـ وأما ورودهما على سبيل التداخل، ففي قول النبي ﷺ عندما سئل عن أي الأعمال أفضل، فقال: الإسلام. وعندما سئل عن أي الإسلام أفضل، أجاب: الإيمان[2]. وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل معاً، «لأن الإيمان عمل من الأعمال وهو أفضلها، والاسلام هو التسليم إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالجوارح، وأفضلها الذي بالقلب وهو التصديق، الذي يسمى: إيماناً»[3].

(١) الاحياء، ج١، ص١١٥ ـ ١١٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١١٦.
(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

يقول الغزالي في الفصل الرابع من كتاب **قواعد العقائد**... في كتابه **إحياء علوم الدين** (ص١١٦) «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان». وقد اختلف المتكلمون في تعريف الإيمان. فمنهم من رأى أنه مجرد الانعقاد في القلب، ومنهم من رأى أنه الانعقاد في القلب والشهادة باللسان، ومنهم من رأى أنه الانعقاد في القلب، والشهادة باللسان، والعمل بالأركان. وهو يرى أن من جمع بين القلب واللسان والعمل، فلا خلاف في أن مأواه الجنة، وهذه درجة من درجات الإيمان. والدرجة الثانية تتمثل في من جمع بين الاعتقاد في القلب والنطق باللسان وقام ببعض الأركان، ولكنه ارتكب كبيرة أو أكثر. وقد رأت المعتزلة أنه يخرج بذلك عن الايمان ولكنه لا يدخل في الكفر، «وهو على منزلة بين المنزلتين، وهو مخلد في النار»[1]. وهذا باطل في رأيه، لأن القائل بهذا القول من المعتزلة يُسأل: هل من آمن بقلبه وشهد بلسانه ومات في الحال هو من أهل الجنة؟ ولا بد أن يكون الجواب: نعم، وهو حكم بوجود الإيمان دون العمل. وإذا قلنا له أنه لو بقي حياً حتى دخل عليه وقت صلاة واحدة ولم يصل ثم مات، أو زنى ثم مات، فهل يخلد في النار؟ فإن قال نعم. فهذا رأي المعتزلة، وإن قال لا، فهو حكم بأن العمل ليس ركناً من نفس الإيمان ولا شرطاً في وجوده ولا في استحقاق الجنة. وإن قال: يجب أن يعيش مدة طويلة لمعرفة فيما إذا كان لا يقوم بالطاعات من صلاة وصيام، فإننا نسأله ما هي تلك المدة بالضبط، وما عدد تلك الطاعات التي بتركها يبطل الإيمان، وما عدد الكبائر التي بارتكابها يبطل

(١) المصدر نفسه، ص١١٧. مع الاشارة إلى أن المعتزلة كانوا يعتبرون صاحب هذه الدرجة فاسقاً مخلداً في النار في درجة من العذاب دون درجة عذاب الكفار.

الإيمان؟. والدرجة الثالثة تشمل من جمع بين التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون القيام بالأعمال أو الطاعات. وقد اختلفوا في حكمه. فأبو طالب المكي في كتابه **قوت القلوب** رأى أن العمل بالجوارح من الإيمان ولا يتم بدونه، مدعياً الاجماع في ذلك، ومستدلاً بأدلة تشعر بنقيض ما ذهب إليه، كقول الله تعالى في الآية ٢٥ من سورة البقرة ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. إذ إن هذه الآية تدل على أن العمل يأتي بعد الإيمان، وبالتالي، ليس هو من نفس الإيمان، وإلا فيكون العمل في الآية في حكم المكرر أو المعاد. هذا بالإضافة إلى أنه يذكر قول النبيﷺ: «لا يكفر أحد إلّا بعد جحوده لما أقربه»، وينكر على المعتزلة قولهم بالتخليد في النار بسبب الكبائر، مع أن قوله يماثل قوله المعتزلة في مرتكب الكبائر.

والدرجة الرابعة: تشمل من صدق بالقلب ومات، قبل أن ينطق باللسان أو يشتغل بالطاعات، فهل يا ترى مات مؤمناً عند الله تعالى؟ وهذا أيضاً مما اختلف فيه. فمن شرط النطق باللسان لتمام الإيمان قال: إيمانه فاسد لأنه مات قبل النطق به. وهذا القول فاسد لأن النبيﷺ قال: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان». وهذا الذي صدق بالقلب قبل أن ينطق باللسان أو يشتغل بالطاعات، قلبه طافح بالايمان بالله تعالى وملائكته وكتبه واليوم الآخر، فكيف يخلد في النار وجبريلعليه السلام في حديثه لم يشترط للايمان إلّا التصديق بذلك؟.

والدرجة الخامسة تشمل من صدق بالقلب ولكنه لم ينطق بكلمتي الشهادة مع علمه بوجوبها ووجود متسع من الوقت لإعلانها قبل وفاته. وفي هذه الحالة يحتمل أن يكون امتناعه عن النطق كامتناعه عن الصلاة، ونحكم بأنه مؤمن غير مخلد في النار، لأن الإيمان هو التصديق المحض

بالقلب، واللسان ترجمانه، ولا بد أن يكون الإيمان موجوداً أولاً قبل أن يترجمه اللسان، لقول الرسولﷺ: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان». ولا ينعدم الإيمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب، كما لا ينعدم بالامتناع عن فعل الطاعات الواجبة. وقد ذهب المرجئة إلى القول بأن النطق بالشهادة ليس إخباراً عن القلب بل هو ركن آخر وإنشاء عقد آخر، وابتداء شهادة والتزام، ولذا، فإنه لا يدخل النار أصلاً، لأن المؤمن وإن عصى لا يدخل النار، وهذا رأي باطل بالطبع.

والدرجة السادسة تشمل من نطق بكلمتي الشهادة : لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولكن لم يصدق بقلبه. ولا شك في أن هذا حكمه في الآخرة: من الكفار وأنه مخلد في النار؛ ولكن لا شك في أن حكمه في الدنيا عند الأئمة والولاة من المسلمين: أنه مسلم، لأن لا أحداً مطلع على قلبه، وعلينا أن نظن به خيراً، وأن ما قاله بلسانه يعبر عما هو في قلبه. ولكننا نشك في الحكم الدنيوي فيما بينه وبين الله تعالى إذا مات له في الحال قريب مسلم، ثم صدق بعد ذلك بقلبه، ثم استفتى في حاله، قائلاً: كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت، والميراث الآن في يدي، فهل يحل لي بيني وبين الله تعالى؟ أو إذا ما نكح مسلمة ثم صدق بقلبه، فهل تلزمه إعادة النكاح؟ وهذا محل نظر، لأنه يمكن القول إن أحكام الدنيا منوطة بالقول الظاهر ظاهراً وباطناً، ويمكن القول: إنها منوطة بالظاهر في حق غيره لأن باطنه غير ظاهر لغيره بل هو ظاهر له في نفسه وبينه وبين الله تعالى، «والأظهر في ذلك والعلم عند الله تعالى» أنه لا يحل له ذلك الميراث، ويلزمه إعادة النكاح؛ ولذلك كان حذيفة بن اليمان الأنصاري لا يحضر جنازة من يموت من المنافقين، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يراعي ذلك ولا يحضر إذا لم يحضر حذيفة. والاسلام

بمعصية واحدة. أما الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ فتعني قتل المؤمن لايمانه، وقد وردت على مثل هذا السبب. ثم إن النبي ﷺ يقول: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»[1]. فإن قال أحد: قد مال الاختيار إلى أن الإيمان يحصل دون العمل، ولكن اشتهر عن السلف قولهم: الإيمان عقد وقول وعمل، فما معنى ذلك؟ فالجواب، أنه لا يبعد أن يعد العمل من الإيمان لأنه مكمل له ومتمم، كما يقال: الرأس واليدان والقدمان من الإنسان، ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنساناً بعدم الرأس، ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد أو الرجل،... الخ. وكذلك الحال بالنسبة إلى القول بأن التسبيحات والتكبيرات من الصلاة وإن كانت لا تبطل من دونها. فالتصديق بالقلب من الإيمان كالرأس من وجود الإنسان، ينعدم بعدمه، وبقية الطاعات كالأطراف من الإنسان بعضها أعلى من بعض. وقد قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حيث يزني وهو مؤمن»[2]. والصحابة رضي الله عنهم لم يذهبوا مذهب المعتزلة في الخروج عن الإيمان بالزنا، وإنما اعتبروا ذلك، عدم الإيمان إيماناً تاماً كاملاً. فإن قيل: إن السلف اتفقوا على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وعليه، فإذا كان التصديق هو الإيمان، فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان، فالرد، أن السلف هم الشهود العدول وما ذكروه حق، ولكن يجب فهم ما قالوه، وفيه دليل على أن العمل ليس من أجزاء الإيمان ولا من أركان وجوده، بل هو مزيد عليه يزيد به، والزائد موجود والناقص موجود، والشيء لا يزيد بذاته، فلا يقال: إن الإنسان يزيد بقدميه أو برأسه، بل يقال: يزيد بنصاحته أو بلحيته،

---

(١) حديث متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) حديث متفق عليه من حديث أبي هريرة، ص١١٩ من الاحياء.

ولا يقال: إن الصلاة تزيد بالركوع والسجود، بل تزيد بالتأدب والخشوع، ما يعني أن الإيمان له وجود مستقل بذاته، وبعد هذا الوجود يختلف حاله بالزيادة أو النقصان[١]. فإن قيل أو قلت كيف يزيد أو ينقص التصديق وهو «خصلة واحدة» أو كيفية واحدة؟ فالجواب عند الغزالي هو ترك الجدل والمشاغبة في هذه المسألة التي يرتفع الاشكال فيها من خلال معرفة أن الإيمان إسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه، كما سبق القول[٢].

« ١٠ »

وفي كتابه القسطاس المستقيم[٣] يناقش الغزالي المعتزلة في قبائح نتائج الرأي «الباطل» الذي يأخذون به، حيث يجيبون على الله تعالى فعل الأصلح لعباده لأن العقل يستحسن ذلك، مقايسين الخالق على الخلق، ومشبهين حكمة الخالق بحكمتهم. وهو يرى أن استحسان العقل من الآراء لا يمكن التعويل عليه، لأن القرآن يشهد بفساده، كما في إيجابهم على الله بأن يفعل الأصلح لعباده، إذ لو كان فعل الأصلح واجباً على الله تعالى لفعله وخلقهم في الجنة وتركهم فيها، لأن ذلك أصلح لهم حتماً، وهو لم يفعله، فدل ذلك على أنه غير واجب، لأن الواجب لا يمكن تركه. والمنكر لذلك، إما أن يقول: تركهم في الجنة، فيتبين كذبه، أو يقول: كان الأصلح لهم أن يخلقهم في الدنيا دار البلايا لا أن يخلقهم في الجنة، دار الخلد وتركهم فيها، لأن نعيمهم في الجنة إذ ذاك لا يكون لاستحقاقهم ذلك، بل يكون منّة من الله عليهم، «والمنة ثقيلة»، وإذا أطاعوا كان ما أخذوه جزاء وأجرة لا منّة فيها. وهذا الأمر برأي الغزالي

---

(١) الاحياء، ج١، ص١١٩.
(٢) المرجع نفسه، ص١١٩.
(٣) دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٦٢م.

هراء لا يستحق الجواب، وهو ينزه السمع واللسان عن حكاية وسماع مثل هذا الكلام الذي هو من قبائح نتائج الرأي. وهو يورد مثالاً آخر على فساد وبطلان رأي وكلام المعتزلة في أن الله تعالى يفعل الأصلح لعباده، قائلاً: نحن نعلم أن الله تعالى ينزل الصبيان إذا ماتوا في منزل الجنة دون منازل البالغين المطيعين، فإذا احتجوا قائلين: «إلهنا أنت لا تبخل علينا بالأصلح لنا أن تبلغنا درجتهم»، فإن الله تعالى يجيبهم على زعم المعتزلة: «كيف أبلغكم درجاتهم وقد بلغوا وتعبوا وأطاعوا، وأنتم متم صبياناً؟» فيجيبون: «أنت أمتنا فحرمتنا طول المقام في الدنيا، ومعالي الدرجات في الآخرة، وكان الأصلح لنا والأصلح بنا أن تبلغنا درجتهم، وأن لا تميتنا، فلم أمتّنا»، فيرد الله تعالى على رأي المعتزلة: «إني قد علمت أنكم لو بلغتم لكفرتم واستحققتم النار خالدين فيها، فعلمت أن الأصلح لكم الموت في الصبا». وعند هذا ينادي الكفار البالغون الخالدون في النار، ربهم، قائلين: ربنا، أما علمت أنا إذا بلغنا كفرنا، فهلا أمتنا في الصبا، فإنا نرضى «بعشر عشر درجات الصبيان». وهنا لا يبقى للمعتزلي جواب يجيب به عن الله تعالى، «فتكون الحجة للكفار على الله سبحانه، تعالى الله عن قول الظالمين علواً كبيراً».وخلاصة الكلام عند الغزالي أن قول المعتزلة: يجب على الله تعالى فعل الأصلح لعباده، من قبائح الكلام، وأن «الفعل الأصلح سر يستمد من معرفة سر الله تعالى في القدر» الذي لا ينظر المعتزلي إلى ذلك الأمر من هذا الأصل[1].

كما يناقش في كتابه أيضاً، المجسمة أو المشبهة، الذين يعتمدون القياس للتدليل على أن الله تعالى وتقدس، هو جسم، بقولهم: كل فاعل صانع جسم، والله تعالى فاعل صانع، فهو إذن جسم، قياساً على سائر

(١) المصدر السابق، ص٨٥ ـ ٨٧. أنظر أيضاً الجزء الأول من الأحياء، ص١١١.

الصناع والفاعلين، كالبنائين والنجارين والخياطين والاسكافيين... الخ. فهذا القياس بنظره هو قياس باطل لأنه ليس قياساً يقينياً يعتمد في أصله على تصفح كل الصناع الفاعلين، وإنما يعتمد على تصفح بعض الصناع، والبعض لا يلزم عنه الكل، إذ إنه لم يتصفح مثلاً صانع السماوات والأرض، تماماً كمن يحكم بأن كل حيوان يمشي برجل، استناداً إلى الحصان والفيل والإبل والحشرات والطيور التي تمشي برجل، ولم ينتبه إلى أن الحية والدود لا يمشين برجل، وكمن يحكم أيضاً بأن جميع الحيوانات تحرك فكها الأسفل عند المضغ، ولم ير التمساح الذي يحرك فكه الأعلى[1].

« ١١ »

وفي كتابه **فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة**[2] يعالج الغزالي مسألة تكفير الناس بعضهم بعضاً، مبرهناً على ما به يكون الإنسان مؤمناً أو زنديقاً. وهو ـ بداية ـ يحذر من عماية التقليد في التكفير، ومن الزعم بأن حدّ الكفر هو ما يخالف مذهب الأشعري أو مذهب المعتزلي أو مذهب الحنبلي ، أو غيرهم، ويصف من يذهب هذا المذهب بأنه غرّ بليد وأعمى من العميان، قد قيده التقليد ولا تنفع معه محاولة في إصلاحه. والحجة في مواجهة كل مكفر مقابلة دعواه بدعوى خصومه من التكفيريين، وسؤاله من أين ثبت له أن الحق وقف عليه حتى قضى بكفر من يخالفه الرأي. ولعل من الانصاف، القول: إن من جعل الحق وقفاً على واحد من النظار بعينه يكون إلى الكفر أقرب، لأنه نزله منزلة النبي المعصوم من الزلل الذي لا يثبت الإيمان إلّا بموافقته ويلزم الكفر بمخالفته. ومن عرف من غيره أنه

(١) المصدر السابق، ٨٧ ـ ٨٩.
(٢) مطبعة الترقي، مصر، ١٩٠١م.

مصدق لرسول الله ﷺ ثم كفره فيكون كافراً، لقول رسول الله: إذا قذف أحد المسلمين صاحبه بالكفر فقد باء به أحدهما[1].

وهو يرى أن الكفر لا يقوم إلّا بتكذيب الرسول ﷺ مما جاء به، وأن الإيمان تصديقه في جميع ما جاء به. «فاليهودي والنصراني كافران لتكذيبهما الرسول ﷺ»[2]. والبرهمي [الهندي].. والدهري كافران بالطريق الأولى، لأنهما ينكران الرسول ﷺ وسائر الرسل[3]. ولأن الكفر حكم شرعي، ومعناه إباحة الدم والخلود في النار، فإن مدركه شرعي إما بنص وإما بقياس على نص. «وقد وردت النصوص في اليهود والنصارى والتحق بهم بالطريق الأولى البراهمة والثنوية». كما وردت في الدهريين والزنادقة المجوس القائلين بوجود خالقين: أحدهما إله الخير والثاني إله الشر، فضلاً عن الزنادقة العرب الذين ينفون وجود الله أو يثبتون له شريكاً. وهؤلاء كلهم مشركون مكذبون للرسول. وكل مكذب للرسول فهو كافر، وكل كافر مكذب للرسول[4].

أما المتأولون للقرآن والسنة من المسلمين على اختلاف فرقهم فلا يلزم من تأويلهم كفرهم ما داموا يلزمون قانون التأويل، «ولأن كل ما قضى العقل باستحالته فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به لأنه لا يمكن تصور مخالفة السمع لقاطع مخالف للمعقول، وظواهر أحاديث التشبيه أكثرها غير صحيحة وهي قابلة للتأويل»، ولأن ما من فريق من المسلمين إلا وهو مضطر إليه. فالحنبلي، والأشعري، والمعتزلي، وغيرهم، كلهم

---

(١) المصدر نفسه، ص١١ ـ ١٣، ١٨.
(٢) المصدر نفسه، ص١٩ ـ ٢٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٠ ـ ٢١، ٢٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٨ ـ ٣٣، ٧٠.

مضطرون إلى التأويل ومجاوزة ظواهر بعض الآيات والأحاديث إلى البواطن. وكيف ما كان، فلا ينبغي أن يكفر فريق من المسلمين غيره، ويجب على الفرق الاسلامية الابتعاد عن الغلو والاسراف في تكفير بعضها بعضاً[1].

بيْدَ أنه قد يخطىء فريق من المسلمين فيما ذهب إليه من تأويل، فيسمى في هذه الحالة إما:

١ ـ ضالاً أخطأ في البرهان الصحيح، كالخطأ المتعلق بالإمامة، التي لا توجب التكفير، لأنه ليس في ذلك تكذيب للرسول، قائلاً: «واعلم أن الخطأ في أصل الإمامة وتعيينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيء منه تكفيراً. فقد أنكر إبن كيسان أصل وجوب الإمامة ولا يلزم تكفيره، ولا يلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة ويجعلون الإيمان بالإمام مقروناً بالإيمان بالله وبرسوله، ولا إلى خصومهم المكفرين لهم، بمجرد مذهبهم في الإمامة، فكل ذلك إسراف، إذ ليس في واحد من القولين تكذيب للرسول ﷺ أصلاً...».

٢ ـ أو يسمى كافراً، «بغير الظاهر بغير برهان قاطع، كالذي ينكر حشر الأجساد، وينكر العقوبات الحسية في الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان قاطع... إذ لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد وذكر ذلك عظيم الضرر في الدين.. وكذلك يجب تكفير من قال إن الله تعالى لا يعلم إلا نفسه أو لا يعلم إلّا الكليات»[2].

٣ ـ أو يسمى: مبتدعاً من حيث لم يعهد من السلف الصالح ما ذهب إليه، كنفي المعتزلة الرؤية الحسية عن الله تعالى في الآخرة، وعدم إثبات

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٣ ـ ٣٤. انظر أيضاً، الاقتصاد في الاعتقاد، ص١٠٨.
(٢) فيصل التفرقة، ص٥٣، ٥٧.

الصفات له. ثم إن التأويل إذا لم يكن يتعلق بأصول العقائد، كالإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر، وردّ الأرواح إلى الأجساد، وعلم الله للكليات والجزئيات، فلا يجوز التكفير فيه ولا التبديع. كما أنه لا تكفير في الفروع أصلاً إلا في حال إنكار أصل ديني علم من الرسول بالتواتر، ولا تكفير لمن يقول بوجوب الإمامة ومن يجعل الإيمان بها مقروناً بالإيمان بالله وبرسوله، لأن من يقول ذلك ويؤمن به ليس تكذيباً للرسول ﷺ يوجب الكفر، وليس فيه ضرر على الدين وإنما الضرر على من يعتقده[1].

وهو - أي الغزالي - يروي عن النبي ﷺ قوله: «ستفترق أمتي بضعاً وسبعين فرقة كلهم في الجنة إلا الزنادقة وهي فرقة»[2]. كما يروي حديثاً [غريباً!!] للتدليل على رحمة الله تعالى: «عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فقدت النبي ﷺ ذات ليلة فابتغيته فإذا هو في مشربة يصلي، فرأيت على رأسه أنواراً ثلاثة. فلما قضى صلاته، قال: مهيم من هذه؟ قلت: أنا عائشة يا رسول الله. قال: أرأيت الأنوار الثلاثة؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: إنّ آت أتاني من ربي فبشرني أن الله تعالى يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب. ثم أتاني في النور الثاني آت من ربي فبشرني أن الله تعالى يدخل الجنة من أمتي مكان كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب. ثم أتاني في النور الثالث آت من ربي فبشرني أن الله تعالى يدخل الجنة من أمتي مكان كل واحد من السبعين ألفاً المضاعفة سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب، فقلت: يا رسول الله لا تبلغ أمتك هذا. قال: يكملون لكم من الأعراب ممن لا

(١) المصدر نفسه، ص٥٧، ٦٥ ـ ٦٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٥. و: إحياء علوم الدين، ج١، ص٩٦.

يصوم ولا يصلي»(١). وهو يرى أن رحمة الله تشمل كثيراً من الأمم السالفة وإن كان أكثرهم يعرضون على النار إما عرضة خفيفة حتى في لحظة أو في ساعة... بل إن أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان تشملهم الرحمة إن شاء الله تعالى [أي] الذين هم في أقاصي الروم والترك ولم تبلغهم الدعوة، وهم ثلاثة أصناف: صنف لم يبلغهم إسم محمد ﷺ أصلاً، فهم معذورون. وصنف بلغهم إسمه ونعته وما ظهر عليه من المعجزات، وهم المجاورون لبلاد الإسلام والمخالطون لهم، وهم الكفار الملحدون. وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم إسم محمد ﷺ ولم يبلغهم نعته وصفته بل سمعوا أيضاً منذ الصبا أن كذاباً ملبساً إسمه محمد ادعى النبوة... وهؤلاء عندي في معنى الصنف الأول...»(٢). كما رأى أن رحمة الله والنجاة المطلقة تصيب كل من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، وأن الهلاك يلحق من خلا عنهما. وأن من كان مصدقاً بالله وبرسوله وصاحب خطأ في بعض التأويل أو صاحب شك فيهما، أو صاحب خلط في الأعمال فلا مطمع له في النجاة المطلقة(٣). بَيْدَ أن المخلدين في النار نادر، لقول النبي ﷺ: «أول ما خط الله في الكتاب الأول: أنا الله لا إله إلّا أنا سبقت رحمتي غضبي، فمن شهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً عبده ورسوله فله الجنة»(٤). مع الاشارة إلى أن الغزالي بالرغم من أنه كان يرى عدم التعرض لأهل القبلة

---

(١) المصدر نفسه، ص٧٤. وهو حديث مستغرب. مع الملاحظة أن ابن الجوزي كان يرى أن الغزالي لم يكن أميناً في رواية الحديث [انظر: الفيلسوف الغزالي، للأعسم، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٧٧، ص٥٨ ـ ٥٩].

(٢) المصدر نفسه، ص٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٧٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٧٨.

بالتكفير، وأن التسرع إلى التكفير يغلب على طباع الجهلة، إلا أنه في كتابه هذا، كفر بعض الباطنية في كلامهم: «إن الله تعالى واحد بمعنى أنه يعطي الوحدة ويخلقها، وعالم بمعنى أنه يعطي العلم لغيره ويخلقه، وموجود بمعنى أنه يوجد غيره، وأما أن يكون واحداً في نفسه وموجوداً وعالماً على معنى اتصافه فلا. وهذا كفر صراح لأن حمل الوحدة على اتحاد الوحدة ليس من التأويل في شيء، ولا تحتمله لغة العرب أصلاً ولو كان خالق الوحدة يسمى واحداً لخلقه الوحدة، لسمي ثلاثاً وأربعاً لأنه خلق الأعداد أيضاً...»[1]. كما كفّر كل «من نسب عائشة رضي الله عنها إلى الفاحشة، وقد نزل القرآن ببراءتها»[2]. هذا فضلاً عن أنه كفر «ما يدعيه بعض من يدعي التصوف أنه قد بلغ حالة بينه وبين الله تعالى أسقطت عنه الصلاة وحل له شرب الخمر والمعاصي وأكل مال السلطان، فهذا ممن لا شك في وجوب قتله وإن كان في الحكم بخلوده في النار نظر، وقتلُ مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر إذ ضرره في الدين أعظم وينفتح به باب من الإباحة لا ينسدّ، وضرر هذا فوق ضرر من يقول بالإباحة مطلقاً فإنه يمنع عن الاصغاء إليه لظهور كفره. وأما هذا فإنه يهدم الشرع من الشرع ويزعم أنه لم يرتكب فيه إلّا تخصيص عموم إذ خصص عموم التكليفات بمن ليس له مثل درجته في الدين، وربما يزعم أنه يلابس ويقارف المعاصي بظاهره وهو بباطنه بريء عنها ويتداعى هذا إلى أن يدعي كل فاسق مثل حاله وينحل به عصام الدين...»[3].

---

(١) المصدر نفسه، ص٦١ ـ ٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٠ ـ ٦١.

ومما تقدم، نستنتج أنه لعل من الأصوب والمفيد معاً، قبل أن يحكم أحد منا على الآخر بالكفر أو الخروج من الملة والتخليد في النار، أن يتصفّح كتاب الله تعالى وبعض آياته البينات، ومنها الآية ٤٨ من سورة النساء والآية ٥٣ من سورة الزمر والآية ١٢ من سورة الأنعام والآية ١٥٦ من سورة الأعراف والآية ١٤٣ من سورة البقرة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) بعض العلماء يعقبون على هذه الآية بقولهم: حتى الشيطان في الآخرة يطمع برحمة الله تعالى.

« ١٢ »

الغزالي والإمامة، ومن يجب تكفيره من الفرق الإسلامية

ولأن الإمامة من الأمور التي فرقت المسلمين في عصر الغزالي ـ وما زالت للأسف ـ فقد تطرق إليها الغزالي في الباب الثالث من كتابه **الاقتصاد في الاعتقاد** قائلاً: إنها من الفقهيات، وهي مثار للتعصبات، والمعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض وإن أصاب، فكيف إذا أخطأ. وقد رأى أن نظام أمر الدين لا يحصل إلا بإمام مطاع، لأن الدين والسلطان توأمان. فالدين أس والسلطان حارس، وما لا أس له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع. ولذا، فإن وجوب نصب الإمام من ضرورات الشرع لما فيه من الفوائد للأمة ودفع المضار عنها. ولا بد من أن يكون أهلاً لتدبير الأمة بحيازته شروط الكفاية، والعلم، والورع، والعدالة، والنسب القرشي... الخ. وتوليته إما أن تكون من التنصيص عليه من جهة النبي ﷺ، أو من جهة إمام العصر، أو من تفويض من رجل ذي شوكة ومبايعة الأمة. وإذا انعقدت الإمامة لسبب ما، لرجل لا تتوفر فيه شروط الإمامة، كالعلم مثلاً، فلا يقضى ببطلان إمامته لأن الضرورات تبيح المحظورات، رعاية لمصالح الأمة ودفعاً للفتنة والقتال. كما رأى أن النبي ﷺ لم ينص على شخص معين للإمامة كما تدعي الإمامية. والقول بأن التنصيص على الإمام إنما هو لقطع الاختلاف والنزاع، يعارض بأن البيعة تقطع دابر النزاع والاختلاف، والدليل على ذلك عدم الاختلاف في زمان أبي بكر وعثمان وقد توليا بالبيعة، وكذلك تولية علي رضي الله عنه[١].

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، مصر ١٩٧١، ص١١٨ - ١٢٢.

وفي التأكيد على بيان من يجب تكفيره من الفرق الاسلامية الذي جاء في الباب الرابع من كتابه **الاقتصاد في الاعتقاد**، رأى الغزالي أن كل من أنكر نبوة محمد وكذبه، فهو كافر مخلد في النار بعد الموت، ومستباح الدم والمال في الحياة. إلّا أن التكذيب على مراتب.

المرتبة الأولى تكذيب اليهود والنصارى وأهل الملل كلهم من المجوس وعبدة الأوثان وغيرهم. وهؤلاء تكفيرهم منصوص عليه في القرآن الكريم ومجمع عليه من الأمة.

المرتبة الثانية تكذيب البراهمة المنكرين لأصل النبوات، والدهريين المنكرين لله والنبي وغيره من الأنبياء. وهؤلاء بالتكفير أولى من اليهود والنصارى.

المرتبة الثالثة الذين يؤمنون بالصانع والنبوة ويصدقون النبي، ولكنهم يعتقدون أموراً تخالف نصوص الشرع، كقولهم إن النبي لم يقدر على التصريح بالحق لكلال أفهام الخلق على درك الحق. وهؤلاء هم الفلاسفة، ويجب القطع بتكفيرهم في ثلاث مسائل:

١ ـ إنكارهم حشر الأجساد، والتعذيب بالنار، والتنعم في الجنة بالحور العين، والمأكول والمشروب والملبوس.

٢ ـ قولهم: إن الله لا يعلم الجزئيات، وإنما يعلم الكليات، والجزئيات إنما تعلمها الملائكة السماوية.

٣ ـ قولهم: إن العالم قديم، وإن الله متقدم على العالم بالرتبة مثل تقدم العلة على المعلول. وهم جميعاً ـ أي الفلاسفة ـ يرون أن اللذات العقلية تقصر الأفهام عن دركها، فمثلها القرآن لهم باللذات الحسية، وهذا كفر صريح، لأنه إبطال لفائدة الشرائع واستبعاد الثقة بأقوال الرسل والنبي محمد، وتكذيبهم.

المرتبة الرابعة المعتزلة والمشبهة، والفرق كلها سوى الفلاسفة. وهم الذين يصدقون النبي ﷺ ولا يجوزون الكذب من قبله لمصلحة أو غير مصلحة، وإنما يشتغلون بالتأويل، وهم مخطئون في تأويلهم. وهؤلاء أمرهم في محل الاجتهاد. وينبغي الاحتراز من تكفيرهم. فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول: لا إله إلّا الله محمد رسول الله، خطأ. والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة، أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم، وقد قال ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله محمد رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها. والثابت في النص، تكفير المكذب للرسول، وهؤلاء ليسوا مكذبين له، ولم يثبت أن الخطأ في التأويل موجب للتكفير، بل ثبت أن العصمة منه مستفاد من قول: لا إله إلا الله قطعاً.

المرتبة الخامسة الذين يتحرزون عن التكذيب الصريح للنبي ﷺ ولكنهم ينكرون أصلاً من أصول الشرع أو الدين المعلومة بالتواتر من رسول الله، كقولهم: الصلوات الخمس غير واجبة، ولسنا نعلم فيما إذا كان الرسول قال ذلك. وقولهم: الحج واجب، ولكن لا ندري أين مكة، وأين الكعبة، ولا ندري إذا كان البلد الذي يحج الناس إليه هو البلد الذي حجه النبي ﷺ.

المرتبة السادسة الذين يخالفون إجماع التابعين على أن ما أجمع عليه الصحابة حق مقطوع به لا يمكن خلافه، كقول الرسول ﷺ: لا نبي بعدي: وقوله تعالى: خاتم النبيين، حيث فهم المسلمون بالاجماع من ذلك، أنه لا نبي ولا رسول، بعده أبداً، وأن ذلك، لا يقبل التأويل، ومنكر ذلك منكر للإجماع، وإنكار من أنواع الهذيان(١).

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، ص١٢٤ ـ ١٢٨.

وقد بحث الغزالي أيضاً في قضية الإمامة، والإمام وشروطه، والتكفير، في كتابه المشهور **المستظهري في فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية**[1]، فرأى أولاً أن الباطنية ثمانية أصناف:

(١) نسبة إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله (٤٨٧هـ) الذي طلب من الغزالي أن يحارب الباطنية في معتقداتهم وأفكارهم، مما جعل الباطنية يعدونه العدو اللدود لهم.
والباطنية المقصودة في كتاب الغزالي، فرقة من الإمامية تسمى الإسماعيلية، نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق، كانت تمثل تياراً سياسياً وعقائدياً معارضاً للسلطة القائمة حينذاك وللعقيدة الأشعرية. وقد جاء في إحدى الحواشي على كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، للغزالي (ص٥١ ـ ٥٢)، أن الباطنية «قوم يتسترون بالاسلام وهم خارجون عنه. ولهم ألقاب كثيرة، منها: الملاحدة، والقرامطة، والباطنية، والاسماعيلية، والنصيرية، والحزمية، والمحمرة... وظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض، لأنهم لا يؤمنون بنبي من الأنبياء والمرسلين، لا بنوح ولا إبراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا محمد صلوات الله عليهم أجمعين،.... ولا يقرون بأن للعالم خالقاً خلقه، ولا بأن له ديناً أمر به، ولا أن له داراً يجزي الناس فيها على أعمالهم سوى دار الدنيا، ويبنون عقائدهم تارة على قول الفلاسفة، وتارة يؤوّلون الكتاب والسنة، ويقولون بأن الصلوات الخمس عبارة عن خمسة أسماء وهي: علي والحسن والحسين ومحسن وفاطمة، وأن ذكر أولئك الخمس يجزيهم عن الغسل من الجنابة والوضوء وبقية شروط الصلاة. والصيام عندهم عبارة عن اسم ثلاثين رجلاً واسم ثلاثين امرأة يعدونهم في كتبهم. ويقولون يدا أبي لهب هما: أبو بكر وعمر. والنبأ العظيم هو علي بن أبي طالب. ولهم في معاداة الإسلام وقائع مشهورة وكتب مصنفة... وأخذوا مرة الحجر الأسود وبقي عندهم باليمن ثم أعيد، ومنهم صاحب قلعة الموت حسن الصباح ونصير الدين الطوسي.
ومن مذهبهم أن لا ينصحوا مسلماً ولا أحداً من أهل الذمة. ولهم ضرر على المسلمين كثير، وفي غدرهم لخليفة بغداد وقتل المسلمين كفاية. ومن أراد تفصيل معتقداتهم والحكم في معاملتهم فليرجع لكتاب المستظهري للمؤلف [الغزالي] أو لرسالة شيخ الإسلام إبن تيمية في الرد على النصيرية... الخ» (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، اعتنى بطبعه وتصحيحه وبعض التعليقات عليه مصطفى القباني الدمشقي، مطبعة الترقي، مصر، ١٩٠١م). كما جاء في كتاب: الفكر السياسي عند الباطنية، تأليف أحمد عرفات القاضي (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص٢٣) أن الغزالي لقَّب الباطنية بالتعليمية لأنهم كانوا يدعون إلى إبطال الرأي، والتعلم من الإمام المعصوم الذين كانوا ينزلونه منزلة الرسول. وأنه قد أهمل

١ ـ البله من أجلاف العرب والأكراد وجفاة الأعاجم والسفهاء ممن ضعفت عقولهم وبصائرهم، واستحوذ عليهم الشيطان، واعتقدت طائفة منهم أن علياً هو إله السماوات والأرض ورب العالمين، وبعضهم عبدوا البشر وزعموا أنهم ورثوا الربوبية عن آبائهم.

٢ ـ طائفة من الموتورين من المجوس الذين انقطعت دولتهم بدولة الإسلام، وكانوا ينتظرون الفرص ليثأروا من الإسلام والمسلمين.

٣ ـ أصحاب المطامح وبعض الحاقدين على الإسلام.

٤ ـ بعض الخلق الذين جبلوا على حب التميز عن العامة والترفع عن مشابهتهم، وزعموا اطلاعهم على الحقائق.

٥ ـ المقلدون الذين يحبون التشبه بالحكماء والمشهورين.

٦ ـ الرافضة الذين «نشأوا بين الشيعة والروافض» واعتقدوا التدين بسبِّ الصحابة.

٧ ـ الملاحدة من الفلاسفة والثنوية وأهل الحيرة من المجوس، الذين لفقوا أصول المذهب وقواعد الجدل.

٨ ـ أصحاب النحل من الشرائع الذين يتحينون الفرص للتخلص منها.

كما رأى ـ أي الغزالي ـ ثانياً، أن حكم الشرع في عقائد الباطنية،

ذكر فرقتين من الطوائف التي انشقت عن الاسماعيلية الباطنية، وهما: النصيرية، والدروز، كما جاء في كتاب مذاهب الإسلاميين ٢/٩ وبغية المرتاد ضمن فتاوى إبن تيمية ٣٥/١٥٢ ط٣، ١٤٠٣هـ.

ينقسم إلى قسمين: قسم يوجب التخطئة والتضليل والتبديع، وقسم يوجب التكفير والتبري.

والقسم الأول يشمل اعتقادهم بأن أهل البيت أحق بالإمامة من غيرهم، واعتقادهم بأن إمام الباطنية هو المستحق للإمامة، وأنه معصوم؛ ولكنهم لا يستحلون دماء المسلمين ولا يكفرونهم، وإنما يعتبرونهم أهل البغي، والعادلين عن طريق الحق ظلماً وعناداً. ومثل هذه العقائد لا توجب التكفير وبالتالي لا تستحل دماً. ومن يعتقد منهم فسق الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، هو أولى بالتفسيق، لمخالفته لاجماع الأمة.

[وقد جاء في كتاب العلم للغزالي (تحقيق وتعليق الدكتور أحمد عمر هاشم، دار المقطم، القاهرة، ١٩٨٨، ص٧)، أن الباطنية أو التعليمية، فرقة من غلاة الشيعة الاسماعيلية. وقد رد الغزالي عليهم في مؤلفات خاصة، مثل: حجة الحق، والقسطاس المستقيم، والمستظهري].

والقسم الثاني يشمل اعتقادهم بكفر المسلمين، واستباحة أموالهم، وسفك دمائهم. وهؤلاء يجب تكفيرهم حتماً، وكذلك تكفير من ينكر منهم الحشر، ويجحد الجنة والنار، لأن في ذلك تكذيباً لكتاب الله وللرسول. والواجب يقضي بقتلهم، وتطهير الأرض منهم، ما عدا صبيانهم ونسائهم، إلّا إذا صرحت نساءهم بما يوجب كفرهن. ومن تاب منهم وعاد إلى الإسلام من دون حرب ولا اضطرار تقبل توبته.

والجدير بالذكر أن الغزالي الذي نبذ التكفير في الفروع في كتابه فضائح الباطنية إلّا في حال إنكار أصل ديني علم من الرسول ﷺ بالتواتر، قائلاً بالتخطئة في بعضها كما في الفقهيات، وبالتبديع في بعضها،

كالإمامة، ونفي المعتزلة الرؤية عن الله في الآخرة، وموصياً بعدم التعرض لأهل القبلة بالتكفير، يتفق مع عبد القاهر البغدادي الذي لم يعدّ في كتابه الفرق بين الفرق الاختلافات الفقهية من قبيل الكفر، وإنما رأى أن من كان على بدعة الباطنية أو الخطابية... الخ، الذين يعتقدون ألوهية الأئمة أو ألوهية بعض الأئمة، أو كان على مذاهب أهل التناسخ، أو على مذهب الميمونية من الخوارج، أو على مذهب الزيدية الإباحية: إباحة ما نصّ القرآن على تحريمه وتحريم ما أباحه القرآن نصاً لا يحتمل التأويل، فليس من أمة الإسلام ولا كرامة له... الخ. كما أن الشاطبي في كتابه الإعتصام ينبذ التكفير في الفروع كتكفير الشيعة والمعتزلة، ويرى أنه لا يجوز إلّا في الأصول فقط، قائلاً: إن الإبتداع الكثير في الفروع يجري مجرى الإنحراف عن الأصول. وقد حدّد إبن تيمية في كتابه العقيدة الواسطية، الفرقة الناجية من المسلمين في حديث الرسول ﷺ: «ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة الناجية منها واحدة»، بأنها التي تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، والقدر خيره وشره؛ مما يعني برأيي، أن الفرقة الناجية ليست فرقة معيّنة بحدّ ذاتها يمكنها ادّعاء النجاة حصراً، وإنما هي الفرقة التي تضمّ كلّ من يؤمن بدين الله، وهم من جميع الفرق كافة، وبذلك، تكون الفرقة الناجية أكبر الفرق الإسلامية عدداً.

ولعل ما يستحق التوقف عنده هو تساؤل أو إمكانية تساؤل البعض عن عدم تكفير الغزالي للفلاسفة الذين يؤمنون بمبدأ أو قانون السببية الطبيعية وما يترتب عليه من التسليم بأن الكون يحكمه نظام محدد دائم، وبقدرة الله المحدودة فيه، ونفي المعجزات، والاعتراف بإرادة الإنسان وقدرته على خلق أفعاله لإيجاب الثواب والعقاب عليه في الآخرة، وتبديعهم في ذلك فقط، في كتابه تهافت الفلاسفة، بعنوان: في إبطال

قولهم باستحالة خرق العادات، حيث قال: إن الفلاسفة يحكمون بأن الاقتران المشاهد في الوجود بين الأسباب والمسببات هو اقتران تلازم بالضرورة، وليس في المقدور ولا في الامكان إيجاد السبب دون المسبب، ولا وجود المسبب دون السبب، ويلزم من ذلك، نفيهم إثبات المعجزات، مثل: قلب العصا ثعباناً، وإحياء الموتى، وشق القمر، وتأويل ما في القرآن من إحياء الموتى، قائلين: أراد به إزالة موت الجهل بحياة العلم. وأما شق القمر فربما أنكروا وجوده، وزعموا أنه لم يتواتر. وهم لا يثبتون من المعجزات الخارقة للعادات إلّا في ثلاثة أمور:

١ ـ في القوة المتخيلة، فإنهم زعموا أنها إذا قويت واستولت على النفس ولم تستغرقها الحواس، اطلعت على اللوح المحفوظ وانطبعت فيها صور الجزئيات الكائنة في المستقبل، وذلك في اليقظة للأنبياء ولسائر الناس في النوم. وهذه خاصية النبوة بالقوة المتخيلة.

٢ ـ في القوة العقلية النظرية وهي خاصية راجعة إلى قوة الحدس، وهو سرعة الانتقال من معلوم إلى مجهول في جميع المعقولات وفي أسرع الأوقات. وللنبي مثل هذه المعجزة من القوة النظرية، فلا يحتاج في المعقولات إلى تعلم بل كأنه متعلم من نفسه.

٣ ـ في القوة النفسية العملية التي قد تنتهي إلى حدّ تتأثر بها الطبيعة وتتسخر. فالنفس إذا توهمت شيئاً خدمتها الأعضاء والقوى التي فيها بالتحرك إلى الجهة المتخيلة المطلوبة. ويختلف ذلك باختلاف صفاء النفوس وقوتها. فلا يبعد أن تبلغ قوة النفس من حيث صفائها وقوتها عند النبي إلى حدّ تخدمها القوة الطبيعية في غير بدنه، لأن نفسه ليست منطبعة في بدنه، بحيث إذا تطلعت نفسه إلى هبوب ريح أو نزول مطر أو تزلزل

أرض، فإن ذلك يحصل، وتتولد هذه الأمور من غير حضور سبب طبيعي قاهر، ويكون ذلك معجزة للنبي؛ ولكن هذا الحصول إنما يتم في هواء مستعد للقبول، ولا ينتهي إلى أن ينقلب الخشب حيواناً، أو ينشق القمر الذي لا يقبل الانخراق. فهذا مذهبهم في المعجزات، ونحن لا ننكر شيئاً مما ذكروه، وأن ذلك مما يكون للأنبياء، وإنما ننكر إقتصارهم عليه، ومنعهم قلب العصا ثعباناً، وإحياء الموتى، وغيره، وادعاء استحالة ذلك.

لقد رأى الغزالي كأسلافه من متكلمي الأشاعرة، وعلى رأسهم: أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٣٦م)، وإمام الحرمين: أبو المعالي الجويني[١] (٤١٩ ـ ٤٧٨هـ/ ١٠٢٨ ـ ١٠٨٥م)، والباقلاني (ت١٠١٣)، والبغدادي (ت١٠٣٧)... الخ، فضلاً عن سائر المتكلمين عامة، باستثناء المعتزلة وخاصة أصحاب أبي الهذيل العلاف، أن الصلة أو الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً بين شيئين، ليس ضرورياً، لأن إثبات أحدهما لا يتضمن أو يستلزم إثبات الآخر ولا نفيه يتضمن أو يستلزم نفي الآخر، وليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر، مثل: الشفاء وشرب الدواء، وإسهال البطن واستعمال المسهل، والموت وجزّ الرقبة، والنور وطلوع الشمس، والاحتراق ولقاء النار، والشبع والأكل، والري والشرب، وهلم جراً في كل المقترنات في الطب والصناعات... الخ، وأن اقترانهما يعود لما سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوق في الاقتران، لا لكون هذا التساوق ضرورياً في نفسه غير قابل للفوت أو عدم الحصول؛ إذ في مقدور الله تعالى خلق الموت دون جز الرقبة، وإدامة الحياة مع جز الرقبة، وخلق الشبع دون الأكل، وعدم احتراق

(١) كان أستاذاً للغزالي.

القطن مع ملاقاة النار، وحدوث انقلاب القطن رماداً محترقاً دون ملاقاة النار.

بيد أن الفلاسفة ينكرون هذه الأقوال، ويرون أن فاعل الاحتراق في القطن هو النار فقط، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار، ولا يمكنه الكف عما هو في طبعه بعد ملاقاته لمحل أو شيء قابل له. ولكل الأشياء جميعها ذوات وصفات ثابتة معينة اقتضت الأفعال الخاصة بكل منها. ولو لم يكن لكل شيء موجود، فعل يخصه، لم يكن له طبيعة تخصه. ولو لم يكن له طبيعة تخصه لما كان له إسم يخصه، وكانت الأشياء كلها شيئاً واحداً، ما ينفي الاتفاق العرضي والاحتمال والجواز والامكان في فعل كل موجود من الموجودات، بحيث يستحيل انقلاب الموجود من نوع إلى نوع ومن جنس إلى آخر بانقلاب طبيعته الخاصة به، كانقلاب النار ماء، والعصا ثعباناً. وقد صنع الله الكون كما يقول إبن رشد (٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ/ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م) الذي جاء بعد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١١١م)، على أتقن ما يكون من الترتيب والنظام، بحيث أن كل موجوداته جارية وفق نظام معين وحكمة معينة وغائية معينة. وهذا الاتقان في الخلق يتنافى مع القول بالجواز والاتفاق والإمكان في ما عليه الكون من دوام وثبات. والله تعالى يقول في الآية ٨٩ من سورة النحل: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾. ويقول في الآية ٦٢ من سورة الأحزاب ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾. ويقول في الآية ٤٣ من سورة فاطر ﴿...فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

والعقل يدرك أسباب الموجودات الطبيعية، ومن رفع الأسباب فقد رفع العقل، وإذا رفع العقل بطل العلم.

وهذا الكلام، مما أنكره الغزالي، قائلاً: «إن الطبيعة مسخرة لله تعالى [خالقها] لا تعمل بنفسها، بل هي مستعملة من جهة فاطرها. والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته»[1]. وإن فاعل الاحتراق هو الله تعالى: إما بواسطة الملائكة أو بغير واسطة. فالنار جماد لا فعل لها. والفلاسفة لا دليل عندهم على أنها الفاعل سوى مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار. ولكن المشاهدة تدل على الحصول عنده، ولا تدل على الحصول به، أو أنه لا علة سواه. وليس ثمة خلاف ـ مثلاً ـ في أن الأب ليس بفاعل أو خالق الجنين بايقاع النطفة في الرحم، ولا هو فاعل حياته وبصره وسمعه وروحه. ومعلوم أن هذه الصفات موجودة عند الجنين، ولم يقل أحد أنها موجودة به، بل وجودها إما من الله تعالى بغير واسطة وإما بواسطة الملائكة الموكلين بهذه الأمور الحادثة. وهذا مما يقطع به الفلاسفة القائلون بوجود الصانع، وما يدلل بالتالي أن الوجود عند الشيء لا يدل على أنه موجود به. ولهذا «اتفق محققوهم» على أن هذه الأعراض والحوادث التي تحصل عند وقوع الملاقاة بين الأجسام إنما تفيض من عند واهب الصور، وهو ملك أو ملائكة، حتى إنهم قالوا إن انطباع صور الألوان في العين يحصل من جهة واهب الصور، ووجود الشمس والحدقة السليمة والجسم المتلون، معدات ومهيئات لقبول المحل هذه الصورة؛ ولكنهم لم يعترفوا بهذا في كل حادث، مما يبطل دعواهم أن النار هي الفاعلة للاحتراق، والخبز هو الفاعل للشبع، والدواء هو الفاعل للشفاء... الخ.

---

(١) المنقذ من الضلال، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٥٥، ص١٠٤.

وهذا الأمر، يعني أن السبب الحقيقي لفعل الموجودات في الكون هو الله تعالى وإرادته المطلقة وقدرته على كل شيء، وليس للطبائع الخاصة بهذه الموجودات التي تقتضي فعالها بالضرورة العقلية، كالنار والاحراق، والأكل والشبع.

ولذا، فإن العلاقة الجارية بين الأشياء أو الموجودات الطبيعية ليست علاقة سببية طبيعية ضرورية عقلية، وإنما هي كناية عن علاقة «عادة» مشاهدة الاقتران المتكرر بينها، بحيث إن الله تعالى يمكنه خرقها إذا ما شاء، كأن يلقى نبي في النار ـ كما هو حال إبراهيم ـ فلا يحترق، إما بتغيير صفة في النار يجعل سخونتها مقتصراً على جسمها وتكون على صورة النار وحقيقتها، من دون أن تتعداه، وإما بتغيير صفة في بدن النبي يدفع أثر النار. فإنا نرى من يطلي نفسه بالطِلَّق، ثم يقعد في تنور موقد، ولا يتأثر به، والذي لم يشاهد ذلك، ينكره. وإنكار قدرة الله على إثبات صفة من الصفات في النار أو تغيير صفة في النار أو في البدن تمنع الاحراق، كانكار من لم يشاهد الطِلَّق. والله قادر على أن يخلق الصور التي يريد في مادة الأجسام التي يمكن أن يكون فيها من الاستعدادات والقابلية لذلك، ما لا نعرف كنهه ولا سبيل إلى حصره. إن المادة قابلة لكل شيء في مقدورات الله. فالتراب وما فيه من عناصر ـ مثلاً ـ يتحول إلى نبات، والنبات يتحول عند أكل الحيوان له إلى دم. والدم يتحول إلى منيّ، والمني ينصب في الرحم، فيتخلق حيواناً، وهذا بحكم العادة يقع في زمان متطاول، فلم لا يسلم الخصم أن يكون في مقدور الله تعالى أن يدبر المادة في هذه الأطوار في وقت أقرب مما عهد فيه، ويحصل به ما هو معجزة للنبي إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وصار الخير متعيناً فيه لإثبات النبي نبوته.

ورداً على الفلاسفة الذين يرون أن إنكار مبدأ السببية الطبيعية والتلازم العقلي الضروري بين الأسباب والمسببات يؤدي إلى التسليم بلوازم هذا الانكار، ومنه القبول بالمحالات الشنيعة، فإن الغزالي يجيب بأن هذه المحالات الشنيعة ليست ضرورية الوقوع وإنما هي ممكنة الوقوع يجوز أن تقع ويجوز أن لا تقع، ولكن الله تعالى لا يفعلها. وقد خلق لنا علماً بأن هذه المحالات الممكنة الوقوع لم يفعلها على الرغم من قدرته على ذلك؛ ونحن لم ندع أنها من الأمور الواجبة، والله تعالى لا يخرقها إلّا على يد الأنبياء فقط، وفي بعض الأوقات وقت اللزوم حين استحقاق حصولها وتعين الخير في ظهورها. ولذا، فإن الغزالي لا ينفي الجريان الدائم بين الأشياء في نظريته عن العادة، ولا الاستمرار الدائم في السنن الطبيعية التي أرادها الله في خلقه لحكمة معينة والتي ترسخ في أذهاننا جريانها المستمر وفق ما هي عليه، ويسميها الفلاسفة: الأسباب الطبيعية، التي تقضي بالتلازم بين الأسباب والمسببات، كالأكل والشبع، والنار والإحراق، وجز الرقبة والموت؛ وإنما يرى أن القول بعلاقة ضرورية طبيعية عقلية دائمة بين الأشياء أمر يقيد أو يحدّ من إرادة الله المطلقة في سنته في خلقه وقدرته على فعل ما يريد. ولكنه يرى أيضاً أن ثمة محالات لا يفعلها الله على الاطلاق محصورة فيما يسمى بالتناقض أو التضاد، أو ما يرجع إليهما، كإثبات الشيء مع نفيه، أو إثبات الإثنين معاً، أو إثبات الأخص مع نفي الأعم. فالجمع بين السواد والبياض، أو كون الشخص الواحد في مكانين في آن معاً، وانقلاب الأجناس، كانقلاب السواد بياضاً، والصوت رائحة، محالات غير مقدور عليها، لا لنقص في قدرة الله تعالى، وإنما لعدم استعداد المحل وقابليته لهذه

المحالات، أو تعاقب الصور عليه، وهو ما يعترف به أيضاً القائلون بالسببية الطبيعية.

بيْدَ أن مبادىء الاستعدادت في الطبيعة فيها غرائب وعجائب لا نعرف لها سبباً، فنحن نرى أجناساً من الحيوانات تتولد من التراب ولا تتوالد قط، كالديدان. ومنها ما يتولد ويتوالد جميعاً، كالفأر، والحية، والعقرب، مما يعني أن الطبيعة مسخرة لله تعالى، لا تعمل بنفسها، بل تعمل من جهة خالقها، فاطر السماوات والأرض.

وهكذا، فالغزالي أراد من خلال إحلال نظرية العادة مكان السببية الطبيعية الضرورية، وتلازم الأسباب والمسببات العقلية، إثبات قدرة الله المطلقة على كل شيء في هذا العالم، لأنه هو الخالق له: مادة وصورة، من العدم؛ وهو الخالق أيضاً للزمان؛ والعالِم بنظام الكون وأسراره «ومن جعل بعض مخلوقاته شرطاً لبعض»، بحيث إذا أراد شيئاً، يقل له: كن فيكون، وليس لإرادته راد لها على الإطلاق ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]. ومن خلال إثبات هذه القدرة المطلقة لله تعالى، أثبت له المعجزات الخارقة للعادة التي أجراها على يد أنبيائه لاثبات نبواتهم والدفاع عنهم، مهفتاً بذلك اعتقاد الفلاسفة بتلازم الأسباب والمسببات، وإنكارهم قلب العصا حية على يد موسى، وإحياء الموتى على يد عيسى، وتحول النار برداً وسلاماً على إبراهيم... الخ، قائلاً: إن ما نراه من الاقتران أو التعاقب الظاهر بين شيئين أو حادثتين ليس دليلاً قاطعاً على أن الأولى سبب للثانية، والثانية مسببة عن الأولى، وإنما لما سبق من تقدير الله لذلك على الاقتران أو التعاقب. فالله هو

(١) سورة النحل، الآية: ٤٠.

الذي يشفي المريض إذا أراد له الشفاء، وما الدواء إلّا وسيلة أرادها الله ليجعلها سبباً لشكر مخلوقاته عليها. وقد يشرب المريض دواء ولا يشفى. فالله وحده هو المسبب الحقيقي لكل شيء وليس للسبب الظاهر في الحوادث أي تأثير. وهو الذي يختصر الزمن الذي خلقه لكي يجعل بعض الأجسام مستعدة لقبول صورة لم تكن مستعدة لقبولها، وتكون المعجزة على يد أنبيائه، كانقلاب العصا حية. فقد يتفق مثلاً أن تطمر عصا في الأرض فتحلل بالرطوبة، وتقع قرب العصا المطمورة حبة قمح، فتنبت وتنمو من عناصر تلك العصا، وتصبح سنبلة، ويأتي عصفور فيأكل من حب هذه السنبلة. ويتفق أن تأكل حية هذا العصفور فيتحول في بدنها دماً فمنياً تلقح به بويضة من حية أخرى، وتضع الحية الأخرى بيضة، ثم يخرج عن هذه البيضة فرخ حية. وهكذا تكون العصا أو جزئية من العصا قد تحولت إلى حية. فإذا كان تحول العصا حية ممكناً في الطبيعة في زمن طويل، فما المانع من أن يتم هذا التحول في وقت قصير جداً، في ثانية من قبل الله الخالق القادر على كل شيء(١).

والذي لا شك فيه، أن الغزالي قد استند في نظريته «العادة» إلى الآيات الكثيرة التي جاءت في القرآن الكريم، والخالية تماماً من ذكر أي نص على أن الله تعالى قد جعل لكل شيء سبباً طبيعياً دائم الفاعلية أبداً، مما يعني أن الله تعالى هو مسبب الأسباب وعلة العلل، وأي سبب مباشر ظاهر أو غير مباشر لأي حادثة من الحوادث، يعود إليه في الأصل، ولا شيء بمستحيل عليه، لأن وجود الأشياء لا يحتاج إلّا إلى كلمة منه: كن، فيكون. ولذا، فإن برد النار أو حرّها، مثلاً، يتبع إرادته، لأنه هو من خلقها

---

(١) عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى إيام ابن خلدون، بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٣، ص٥٠٣.

وأوجدها وخلق الطبيعة كلها وأوجدها. فقد جاء في الآية ٤٠ من سورة النحل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وجاء في الآية ٨٢ من سورة يس ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. وجاء في الآية ٤٧ من سورة آل عمران ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وجاء في الآيات ١١٠، ١١٤ ـ ١١٥ من سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وجاء في الآيتين ٦٩ ـ ٧٠ من سورة الأنبياء: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾. وجاء في سورة الأنبياء: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾.

وجاء في الآيات ١٧ ـ ٢٤ من سورة طه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ

خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

وجاء في الآيات ٧ ـ ٩ من سورة مريم: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾.

وجاء في الآية ١٧ من سورة الأنفال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وعلاوة على هذه الآيات الكثيرة التي تؤيد وجهة نظر الغزالي، لا يمكن أن يكون قد غرب عنه الحديث القدسي الشريف: «عبدي أطعني تكن مثلي، تقل للشيء: كن، فيكون».

ومن خلال ما تقدم، يتبين لنا، أن الغزالي بدّع الفلاسفة في مسألة السببية الطبيعية بسبب إنكارهم المعجزات الطبيعية، وقولهم إن الاقتران بين الأسباب والمسببات أمر ثابت ودائم. ورأى أن الاقتران الضروري الثابت يقتصر على علوم المنطق والرياضيات، كالتلازم في علم المنطق: بين الشرط والمشروط، والفوق والتحت، واليمين والشمال، والعام والخاص... الخ، والتلازم في الرياضيات: بأن الاثنين ضعف الواحد، وعدم إثبات الاثنين مع نفي الواحد... الخ. أما الاقتران بين ما يعرف بالسبب والمسبب في الطبيعة، كالنار والاحراق، فهو اقتران عرضي لا ضروري، يعود إلى التساوق بين حدثين متتاليين في الزمان والمكان، بحيث يترسخ في الذهن بأن التلازم بين النار والاحراق ضروري، ويكون

منشأ هذا التلازم هو العادة. ولكن المشاهدة في التساوق لا تدل على حصول الشيء بشيء آخر بل على حصوله عنده أو معه. والعقل يشير إلى أن إسناد الفعل إلى الأشياء الجامدة كالنار في الاحراق إنما هو تعسف. فالنار جماد. والجماد لا فعل له، لأن الفعل من صفات الكائن الحي. ولما بطل أن تكون النار فاعلة وجب إسناد فعل الاحراق إلى الله تعالى بواسطة الملائكة أو بغير واسطة، فهو رب الأرباب، ومسبب الأسباب، ولا فاعل سواه. فإذا شاء، استمرت الأفعال في الأشياء على ما هي عليه، وإذا شاء، غيَّر هذه السنة، وكانت المعجزات.

بَيْدَ أن الغزالي الذي جهد في نقض السببية الطبيعية من خلال إثبات قدرة الله المطلقة على خرقها في أمور كثيرة، لم يكن ليخفى عليه بأن لله تعالى سنناً طبيعية في خلقه لا تتغير ولا تتبدل إلّا في بعض الأوقات بإرادته على يد أنبيائه ﴿...سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[1]. ويمكن القول: إن هذه السنن الطبيعية قد تعادل في معناها الأسباب الطبيعية عند الفلاسفة الذين لم ينكروا برأي الغزالي نفسه، حصول بعض المعجزات على يد الأنبياء في ثلاثة أمور:

١ ـ في القوة المتخيلة.

٢ ـ في القوة العقلية النظرية.

٣ ـ في القوة النفسية العملية.

كما لم يتعرضوا في كتاباتهم إلى المعجزات التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، ولا أخالهم كانوا منكرين لها.

وإذا كان ابن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨م/ ٥٩٥هـ) الذي جاء بعد

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

الغزالي (١٠٥٩ ـ ١١١١م/ ٥٠٥هـ) يقول في كتابه **تهافت التهافت** (القسم الثاني): إن إنكار وجود الأسباب الفاعلة المشاهدة في المحسوسات أمر سفسطاني لأن المنكر لذلك إما جاحد بلسانه لما في جنانه، أو منقاد لشبهة سفسطائية عرضت له في ذلك، والمنكر لذلك ليس يقدر أن يعترف أن كل فعل لا بد له من فاعل، ـ فإنه يقول أيضاً: وأما أن هذه الأسباب مكتفية بنفسها في الأفعال الصادرة عنها، أو تتم أفعالها بسبب من خارج، إما مفارق وإما غير مفارق، فأمر ليس معروفاً بنفسه، وهو مما يحتاج إلى بحث وفحص كثير؛ وإذا كان من المعروف أن للأشياء ذوات وصفات هي التي اقتضت الأفعال الخاصة بموجود موجود، وهي التي من قبلها اختلفت ذوات الأشياء وأسماؤها، فإن السؤال: هل هذه الأفعال الصادرة عن موجود موجود ضرورية الفعل فيما شأنه أن يفعل فيه... فمطلوب يستحق الفحص عنه. وإذا كان قد حمل على **نظرية العادة**، متسائلاً عما يريد الغزالي بهذا الاسم: هل هي عادة الفاعل؟ أم عادة الموجودات؟ أم عادتنا عند الحكم على هذه الموجودات؟ قائلاً: من المحال أن يكون لله تعالى عادة، فإن العادة ملكة يكتسبها الفاعل توجب تكرار الفعل منه على الأكثر، والله تعالى يقول: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، ـ فإنه ـ أي ابن رشد ـ رأى أن الحكماء من الفلاسفة لم يجوزوا التكلم في مبادىء الشرائع «وفاعل ذلك عندهم محتاج إلى الأدب الشديد»، «والاعتراض على معجزة إبراهيم ﷺ لم يقله إلّا الزنادقة من أهل الاسلام، ولذلك وجب قتل الزنادقة». ومبادىء الشرائع أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية ولا بد أن يعترف بها مع جهل أسبابها، لأنها مبادىء تثبيت الشرائع، و«أن ما لا سبيل للعقل إلى إدراكه فسبيل إدراكه الشرع». وكذلك، لا نجد أحداً من القدماء تكلم في

المعجزات. «ولا يشك أحد من الفلاسفة في أن الاحراق الواقع في القطن من النار، وأن النار هي الفاعلة له، **لكن لا باطلاق**، بل من قبل مبدإ من خارج، هو شرط في وجود النار، فضلاً عن إحراقها، وإنما يختلفون في هذا المبدأ ما هو؟». وهم يرون أنه من الممكن التسليم «بأن صفات الشيء يمكن أن توجد ولكن لا يكون لها التأثير التي جرت به عادتها، مثل النار، فإنه يمكن أن توجد الحرارة لها، ولا تحرق ما يدنو منها وإن كان شأنه أن يحترق إذا دنت منه النار»[١].

والجدير بالذكر، أن رفض الغزالي لقانون السببية الطبيعية الذي لا يقبل التغير لوجود علاقة ضرورية بين طبيعة السبب وطبيعة المسبب، يشبه رفض الفيلسوف الانكليزي داڤيد هيوم في القرن الثامن عشر (١٧١١ ـ ١٧٧٦) لهذه السببية الطبيعة. فهو يقول: إن العقل لا يدل على أن بين السبب والمسبب علاقة ضرورية. وإن مثل هذا الاعتقاد إنما ينشأ لدينا من العادة. فالتجربة الحية تعلمنا أن كرة البلياردو حين تصطدم بأخرى تحركها وتدفعها إلى اتجاه معين. ولكننا لا نعرف مسبقاً بالفطرة أو العقل، أنها ستتحرك، ولا نعرف اتجاه حركتها، لأن حركتها مستقلة تماماً عن حركة الكرة الأولى. وليس بين ما نسميه سبباً أو علة، وما نسميه مسبباً أو معلولاً، أية صلة ضرورة طبيعية توجد لدينا بالفطرة أو بالعقل، وكل ما نعرفه هو أن الأشياء تتتابع على نسق معين. فنحن نرى الحرارة تصاحب اللهب، ولكننا لا نعلم ما العلاقة بينهما؟ هل هذه العلاقة متأتية من الأشياء الخارجية أم من التأمل الباطني للنفس؟ والواقع لا هذا ولا ذاك، فإن معنى السببية لا يدل على شيء. فالسببية لفظ من الألفاظ الفلسفية التي

---

(١) أنظر: تهافت التهافت، القسم الثاني، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٨١، ص٧٩١، ٧٩٣، ٩٨٧ ـ ٩٩٢.

اخترعناها. وكل ما يمكن أن نقوله هو أن السببية كناية عن عادة نشأت عندنا من خلال مشاهدة شيئين بينهما علاقة تتابع دائمة من خلال الملاحظة والتجربة. فنحن نقيم الأسباب والمسببات على أساس التجارب السابقة، فنتصور أن رغيف الخبز الذي أشبعنا اليوم سيشبعنا حتماً غداً، حتى ولو قدم إلينا شيء يشبه الرغيف ويماثله في صفاته. وهكذا، فالسببية ليست هي التي تبيح لنا توقع الأحداث ذاتها، وإنما العادة وحدها هي التي تجعلنا نتوقع دائماً في المستقبل ما سبق وشاهدناه في الماضي. فنحن نشاهد كرة البليياردو تضرب الكرة الثانية فتحركها، ولكننا لا نشاهد في الكرة الأولى هذه القوة الطبيعية التي يمكن أن تؤثر في الكرة الثانية بحيث تكون سبباً في تحريكها، أي أننا لا نشاهد لا قوى ولا أسباباً تجعلنا نجزم أو نقول إنها هي من يحرك الكرة الثانية، وإنما نشاهد ظواهر متعاقبة فقط، حتى إذا ما صدمتنا الطبيعة بزلازلهاوبراكينها وخوارقها، عجزنا عن التعليل والتمسنا ذلك في قوى غير منظورة.

وإذا كان هيوم قد نفى السببية وأحل محلها العادة من دون أن يجعل الله علة الأشياء، فإن الفيلسوف الفرنسي رينه ديكارت René Descartes (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠)، وكذلك الفيلسوف الفرنسي مالبرانش Malebranche (١٦٣٨ ـ ١٧١٥م) قالا: إن الله هو علة كل شيء، وعلة كل الحوادث التي تجري في العالم، وما الأسباب الظاهرة التي نشاهدها سوى مناسبات لعلة العلل، وهو الله، الخالق باستمرار وفي كل لحظة لهذا العالم. هذا، مع الملاحظة أن العلم الحديث يؤثر الابتعاد عن السببية.

ولتوضيح معنى كل من السبب والعلة، والجامع المشترك بينهما، عند كل من الغزالي والفلاسفة، فقد جاء في كتاب التعريفات للجرجاني:

١ ـ إن السبب ما يحصل الشيء عنده لا به، والعلة ما يحصل الشيء به.

٢ ـ إن المعلول ينشأ عن علته مباشرة بلا واسطة بينهما ولا شرط، بحيث إذا وجدت العلة وجد المعلول حكماً بدون تراخ في الزمن.

٣ ـ إن السبب يفضي إلى المسبب بواسطة أو بوسائط، بحيث إن المسبب لا ينوجد مباشرة عن سببه وحده إلّا إذا وجد الشرط أو الواسطة.

٤ ـ إن السبب أعم من العلة، وهذه أخص من السبب. فكل علة هي سبب، والعكس غير صحيح. وقد جاء في كتاب الهوامل والشوامل لمسكويه: إن السبب هو الأمر الداعي إلى الفعل ولأجله يفعل الفاعل. أما العلة فهي الفاعلة عينها[1].

وقد اعتبر الفقهاء المسلمون أن السبب في الشريعة هو ما يكون طريقاً أو وسيلة للوصول إلى الحكم الشرعي من دون تأثير فيه. أما العلة فهي الوسيلة المؤثرة لحصول الحكم الشرعي مباشرة. أما ابن سينا في كتبه المنطقية، مثل: الجدل، والبرهان، وكذلك ابن رشد في شرحه على أرسطو، فقد رادفا بين السبب والعلة. وليس في كتب إبن سينا ما يشير إلى أنه كان منكراً للمعجزات كما جاءت في القرآن الكريم. أما ابن رشد فإنه يعترف في كتابه تهافت التهافت بالمعجزات كما جاءت على يد الأنبياء.

وقد رأى المعتزلة أن الإنسان فاعل محدث ومنشئ على وجه الحقيقة لا المجاز لأفعاله. وأن هذه تصدر عنه إما مباشرة وإما بالتوالد. ومعنى التوالد عندهم أن يوجب فعل لفاعله فعلاً آخر، كحركة اليد والمفتاح. فإن حركة اليد أوجبت لفاعلها حركة المفتاح. فكلتاهما صادرتان عنه:

---

(١) الموسوعة الفلسفية العربية، المجلد الأول، مادة: سبب. ص٤٧٢ ـ ٤٧٤.

الأولى: بالمباشرة.

والثانية: بالتوليد.

وقد أوجب المعتزلة قدرة الإنسان على خلق أفعاله وحريته في ذلك، من أجل الدفاع عن عدالة الله المطلقة ومشروعية الثواب والعقاب في الآخرة. أما الغزالي والأشاعرة فقد رأوا أن العلة الحقيقية أو السبب الحقيقي لا الظاهري لجميع الممكنات من الحوادث ولكل أفعال الإنسان، هو الله تعالى، الخالق لكل شيء، وللإنسان وأفعاله، وأن لا علاقة ضرورية بين الحوادث المتعاقبة، وأن الإنسان يسأل عن أفعاله، المخلوقة له من الله، من خلال نظرية الكسب، أي النية التي قصدها أو أرادها من وراء أفعاله، ومكّنه الله من القيام بها، إن خيراً فيجزى خيراً، وإن شراً فيجزى شراً، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1]. ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]. وعن النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى». ما يفيد أو يعني أن التعاقب بين الأشياء ليس ضرورة ذاتية في الأشياء صادرة منها، وإنما هي ضرورة وافدة عليها، إقتضتها إرادة الله، لحكمة ما أو مصلحة.

وفي العصر الحديث، رأى الإمام الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥): «إن القول بنفي الرابطة بين الأسباب والمسببات جدير بأهل دين ورد في كتابه أن الإيمان وحده كاف في أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل: تحول عن مكانك، فيتحول الجبل، يليق بأهل دين يعد الصلاة وحدها، إذا

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ - ٨.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

أخلص المصلي فيها، كافية في إقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصري. وليس هذا الدين هو دين الإسلام. دين الإسلام هو الذي جاء في كتابه ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾. ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ وأمثالها... وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسببية إلّا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله.. إن لله في الأمم والأكوان سنناً لا تتبدل... وهي التي تسمى شرائع، أو نواميس، أو قوانين...»[1].

وقصارى القول: إن الغزالي قد عالج مشكلة السببية الفلسفية الطبيعية بصورة مسهبة ودقيقة، ما جعله يبدع الفلاسفة فيها بدلاً من تكفيرهم.

« ١٤ »

آراء بعض العلماء المسلمين قديماً وحديثاً في قضية الإيمان والتكفير

(أ)

لا شك في أن المسلمين قد ابتلوا حديثاً بداء تكفير بعضهم بعضاً. وهذا الابتلاء المقيت مما لم يعد يخفى على أحد. وقد انغمس فيه للأسف، بعض العلماء من على شاشات الفضائيات، إما جهلاً، وإما تعصباً، وإما لمأرب ما، متناسين أو متجاهلين قول النبيﷺ «**إياكم والغلو** في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين». وهو يذكرنا بما قاله هنري كيسنجر مهندس السياسة الأمريكية سنة ١٩٧٤ ـ

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، ج٣، دراسة وتحقيق محمد عمارة، بيروت، ١٩٧٢، ص٢٨٤، ٥٠٢.

١٩٧٥: إذا أردنا أن تعيش إسرائيل بسلام، فإن علينا أن نشجر الخلاف المذهبي الديني والسياسي بين السنة والشيعة، فينصرفوا إلى مقاتلة بعضهم بعضاً، على مدى قرن من الزمن[١].

وقد أذاعت محطة الإذاعة البريطانية: البي - بي - سي، في نشرة الساعة السادسة صباحاً من نهار يوم الجمعة الواقع في ١١/ ٥/ ٢٠١٢، أن رئيس أركان الجيوش الأمريكية، وبناءً على القيم الأمريكية، أمر بإيقاف تدريس مادة اختيارية عن الإسلام، في الكلية العسكرية بفرجينيا، يدرسها ضابط برتبة مقدم، يدعى: ماتيوس دولّي، يعلم الطلاب الضباط بأن الإسلام هو العدو اللدود للولايات المتحدة، وأن كل المسلمين إرهابيون، وعليهم محاربتهم من أجل استئصالهم من العالم، محبذاً استعمال الأسلحة النووية لإبادة المدن الاسلامية المقدسة بكاملها من على الأرض.

وأنا من الذين ينبذون بقوة هذه الظاهرة الخبيثة المستجدة البالغة الخطورة على العرب والمسلمين، وينفرون منها، ويندّدون بها، وبالتفرقة بين المسلمين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم وأعراقهم، على اعتبار أن الاختلاف السياسي الأول الذي وقع بين المسلمين الأوائل حول خلافة الرسول، منذ أكثر من ألف وأربعمائة وثلاث وعشرين سنة هجرية، لم يكن أصلاً بين ما يسمى بالمسلمين السنة والمسلمين الشيعة، لأن المذاهب الفقهية لم تكن بعد قد ظهرت. ولا يوجد اليوم ثمة خلافة إسلامية حتى يختلف المسلمون حولها. ولا خلاف حالياً كما في الماضي حول كتاب الله الواحد وشريعته من: صلاة، وصام، وزكاة،

---

(١) هنري كسينجر: هو شيخ المفكرين الاستراتيجيين الأمريكيين. يبلغ من العمر حالياً، ٩١ عاماً.

وحج،... الخ، ولا خلاف حول سنة نبيه الصحيحة. والاختلاف الحاصل بينهم في بعض الأصول غير الأساسية، كالإمامة أو الخلافة، وفي بعض فروع الدين، هو اختلاف موجود حتى في داخل المذهب الواحد وبين علمائه. وهذا أمر طبيعي لاختلاف العقول في فهم النصوص وطرق الاستنباط، وهو لا يضرّ الإيمان ولا الدين، فالرسول ﷺ يقول: «اختلاف أمتي رحمة». و«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد لها دينها». و«إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد». و«كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه». وقوله لأسامة بن زيد الذي قتل مشركاً في المعركة بعدما قال: لا إله إلّا الله: «يا أسامة! أقتلته بعدما قال: لا إله إلّا الله؟»[1]. وعنه ﷺ: «من قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيّوم وأتوب إليه ثلاث مرات، غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر، وإن كانت عدد ورق الشجر، وإن كانت عدد رمل عالج، وإن كانت عدد أيام الدنيا»[2]. و«من قال حين يأوي إلى فراشه: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر، غفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر»[3] والله تعالى يقول في كتابه الكريم ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾. ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا

---

(١) وفي رواية أخرى: «هلا شققت عن قلبه؟».

(٢) رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري، وقال: إنه حديث حسن. [نقلاً عن الإمام الشهيد حسن البنّا، المأثورات، ط٢، دار الشهاب، القاهرة، ١٩٧٥، ص٧٧ ـ ٧٨].

(٣) رواه ابن حبان عن أبي هريرة. [نقلاً عن المأثورات للشهيد حسن البنا، . . . ص٧٨ ـ ٧٩].

﴿مَقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾. كما يخاطب نبيه ﷺ بالقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾. وهو الذي يصف نفسه في كتابه الكريم بأنه ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ ﴿...وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

فهل تكفير الناس بعضهم لبعض، وهدر دمائهم، واستباحة أموالهم، هو من «الرحمة»؟ وماذا عن الأحاديث التي تروى عن النبي ﷺ: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان». «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون». «إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين». «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلاّ الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». «من شهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله، حرم الله عليه النار».

وفي هذا الصدد، يقول الإمام الغزالي في كتابه الاقتصاد في الاعتقاد: «والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم»[1]. فكيف والحال هذه يتجرأ بعض الذين ينسبون أنفسهم إلى الإسلام، على الاجتهاد في دين الله، وتكفير كل من لا يدين بفقههم الديني والسياسي، وتحليل دمه، والاسلام أصلاً يدعو إلى الإلفة والمودة والوحدة والإخاء والعدل والسلام والتسامح، ليس بين المسلمين فيما بينهم وحسب، وإنما بينهم وبين غيرهم من أهل الكتاب، من واقع أنهم جميعاً يدينون بدين واحد، وإن تعددت شرائعه.

ثم إن الله جل جلاله يشير في كتابه الكريم إلى اختلاف الأنبياء فيما

---

(١) مرجع سابق، ص١٢٦.

بينهم. فالآيات ٩٢ ـ ٩٤ من سورة طه، والآية ١٥٠ من سورة الأعراف، تحدثنا عن اختلاف النبي موسى مع أخيه هارون: ﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾. ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا...﴾ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. والآيتان ٧٨ ـ ٧٩ من سورة الأنبياء تحدثنا عن اختلاف النبي داود مع ابنه سليمان ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ﴾.

ومن حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «كانت امرأتان معهما إبناهما. جاء الذئب فذهب بابن احداهما. فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى. فخرجتا على سليمان ابن داود فاخبرتاه. فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما. فقالت الصغرى: لا تفعل، يرحمك الله. هو إبنها. فقضى به للصغرى»[1].

وقد جاء في كتاب الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين، باب آفات العلم وبيان علماء الآخرة والعلماء السوء «قال بعض السلف: ما جاءنا عن رسول الله ﷺ قبلناه على الرأس والعين، وما جاءنا عن الصحابة رضي الله عنهم فنأخذ منه ونترك. وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال. وإنما فضل الصحابة لمشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله ﷺ واعتلاق قلوبهم أموراً أدركت بالقرائن فسددهم ذلك إلى

(١) رواه مسلم في كتاب: الأقضية. ورواه البخاري في كتاب: الأنبياء.

الصواب من حيث لا يدخل في الرواية والعبارة إذ فاض عليهم من نور النبوة ما يحرسهم في الأكثر عن الخطأ...»[1].

وفي كتابه: **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، يقول الإمام الغزالي: «إعلم أن شرح ما يكفر به وما لا يكفر به يستدعي تفصيلاً طويلاً يفتقر إلى ذكر كل المقالات والمذاهب وذكر شبهة كل واحد ودليله ووجه بعده عن الظاهر ووجه تأويله وذلك لا يحويه مجلدات... فاقنع الآن بوصية وقانون: أما الوصية فان تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ما داموا قائلين لا إله إلّا الله محمد رسول الله، غير مناقضين لها، والمناقضة تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ... فإن التكفير فيه خطر والسكوت لا خطر فيه. وأما القانون فهو أن تعلم أن النظريات قسمان: قسم يتعلق بأصول القواعد وقسم يتعلق بالفروع. وأصول الإيمان: ثلاثة: الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر، وما عداه فروع. واعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً إلّا في مسألة واحدة وهي أن ينكر أصلاً دينياً علم من الرسول ﷺ بالتواتر، لكن في بعضها تخطئة كما في الفقهيات، وفي بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة. واعلم أن الخطأ في أصل الإمامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيء منه تكفيراً... ولا يلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة ويجعلون الإيمان بالإمام مقروناً بالإيمان بالله وبرسوله ولا إلى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم في الإمامة، فكل ذلك إسراف إذ ليس في واحد من القولين تكذيب للرسول ﷺ أصلاً...»[2].

كذلك، يقول في كتابه **الاقتصاد في الاعتقاد**: «واعلم أنك في هذا

---

(١) الاحياء، ج١، ص٧٨.

(٢) فيصل التفرقة، مرجع سابق، ص٥٦ ـ ٥٧، ٧٤ ـ ٧٥.

المقام بين أن تسيء الظن بمسلم وتطعن عليه وتكون كاذباً، أو تحسن الظن به وتكف لسانك عن الطعن وأنت مخطىء مثلاً، والخطأ في حسن الظن بالمسلم أسلم من الصواب بالطعن فيه، فلو سكت إنسان مثلاً عن لعن إبليس أو لعن أبي جهل أو أبي لهب أو من شئت من الأشرار طول عمره لم يضره السكوت، ولو هفا هفوة بالطعن في مسلم مما هو بريء عند الله تعالى منه فقد تعرض للهلاك...»[1].

(ب)

وفي كتيب صغير الحجم، عنوانه: **ظاهرة الغلو في التكفير**[2] يعالج رئيس الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين، وعضو مجلس البحوث الاسلامية في الجامع الأزهر الشريف، الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، ظاهرة الغلو في التكفير التي شهدتها مصر في الثمانينيات من القرن الماضي من قبل ما يسمى «جماعة التكفير»، أو «جماعة الكهف»، أو «جماعة الهجرة». فمنهم من يكفر مرتكب الكبيرة، ومنهم من يكفر المصر عليها فقط، ومنهم من يقول: إن الذين يسمون اليوم مسلمين ليسوا مسلمين[3]. وهو بالرغم من قوله بأنّه يتفهم الأسباب التي دفعت هذه الجماعات إلى تكفير من لا يرى رأيهم[4]، فإنه ينكر على أفراد هذه الجماعات اتجاههم التكفيري الذي يدل على عدم التعمق «في العلوم الاسلامية واللغوية، الأمر الذي جعلهم يأخذون

(١) مرجع سابق، ص١٢٣.
(٢) القاهرة، الجماعة الاسلامية بجامعة القاهرة، ١٣٩٧هـ، [٧٢ صفحة] توزيع: دار الجهاد ـ دار الاعتصام.
(٣) المرجع أعلاه، ص١٣ ـ ١٤.
(٤) المرجع نفسه، ص٣ ـ ٥، ١٧ ـ ١٩.

ببعض النصوص دون بعض... أو يأخذون بالجزئيات ويغفلون القواعد الكلية، أو يفهمون بعض النصوص فهماً سطحياً سريعاً...»[١]. وهو يتبنى قول حسن البنا مؤسس حركة الاخوان المسلمين: «لا نكفر مسلماً أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما برأي أو معصية إلا إذا أنكر معلوماً من الدين بالضرورة أو كذب صريح القرآن أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب العربية بحال، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر». ويروي عن إبن عباس، حديث النبيﷺ: «إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين».

ولأنه يرى «أن الحكم بالكفر على إنسان ما، حكم جد خطير، لما يترتب عليه من آثار هي في غاية الخطر، منها: أنه لا يحلّ لزوجته البقاء معه. [و] ان أولاده لا يجوز أن يبقوا تحت سلطانه. [و] فقد حق الولاية والنصرة على المجتمع الإسلامي... [و] إذا مات لا تجري عليه أحكام المسلمين...»[٢]، يقول تحت عنوان «**بماذا يدخل الإنسان في الإسلام؟**

الحقيقة أو القاعدة الأولى «إن الإنسان يدخل الإسلام بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فمن أقر بالشهادتين بلسانه فقد دخل في الإسلام، وأجريت عليه أحكام المسلمين، وإن كان كافراً بقلبه، لأنا أمرنا أن نحكم بالظاهر، وأن نكل إلى الله السرائر».

القاعدة الثانية إن من مات على التوحيد (أي على: **لا إله إلا الله**) استحق عند الله أمرين:

الأول: النجاة من الخلود في النار، وإن اقترف من المعاصي ما

---

(١) المرجع نفسه، ص١٩.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٣ ـ ٢٤.

اقترف، سواء ما منها ما يتعلق بحقوق الله كالزنا، أو بحقوق العباد كالسرقة. وإن دخل بذنوبه النار فسيخرج منها لا محالة، ما دام في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان.

الثاني: دخول الجنة لا محالة، وإن تأخر دخوله... بسبب عذابه في النار لمعاصي لم يتب منها ولم تكفر عنه بسبب من الأسباب...»[1].

وتحت عنوان: **نواقض الإسلام** يقول:

القاعدة الثالثة إن الإنسان بعد أن يدخل في الإسلام بالاقرار بالشهادتين، يصبح ـ بمقتضى إسلامه ـ ملتزماً بكافة أحكام الاسلام. والالتزام يعني الإيمان بعدالتها وقدسيتها، ووجوب الخضوع والتسليم لها، والعمل بموجبها... مثل فريضة الصلاة والزكاة... وحرمة القتل والزنا وأكل الربا وشرب الخمر ونحوها من الكبائر... فمن أنكر شيئاً من هذه الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة، أو استخف بها واستهزأ، فقد كفر كفراً صريحاً وحكم عليه بالردة عن الإسلام... إلّا من كان حديث عهد بالاسلام، أو نشأ ببادية بعيدة عن أمصار المسلمين، ومظان العلم، فهذا يعذر إذا أنكر هذه الضروريات الدينية، حتى يعلم ويفقه في دين الله...».

القاعدة الرابعة إن المعاصي والكبائر ـ وإن أصر عليها صاحبها ولم يتب منها ـ تخدش الإيمان وتنقصه ولكنها لا تنقضه من أساسه ولا تنفيه بالكلية. والدليل على ذلك: أنها لو كانت تهدم الإيمان من أصله، وتخرج صاحبها إلى الكفر المطلق، لكانت المعصية والردة شيئاً واحداً، وكان العاصي مرتداً، ووجب أن يعاقب عقوبة المرتد ولم تتنوع عقوبات الزاني والسارق وقاطع الطريق وشارب الخمر والقاتل...».

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٥، ٣٠.

القاعدة الخامسة إن الذنب الذي لا يغفر هو الشرك بالله تعالى، وما عداه من الذنوب ـ صغرت أو كبرت ـ فهو في مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾. ومثله الكفر الأكبر: أعني كفر الجحود والإنكار [كمن جحد نبوة محمد أو أنكرها، أو أنكر ما علم من الدين بالضرورة، كالصلاة مثلاً]...

القاعدة السادسة إن الكفر في لغة القرآن والسنة قد يراد به الكفر الأكبر، وهو الذي يخرج الإنسان من الملة بالنسبة لأحكام الدنيا، ويوجب له الخلود في النار بالنسبة لأحكام الآخرة. وقد يراد به الكفر الأصغر، وهو الذي يوجب لصاحبه الوعيد دون الخلود في النار، ولا ينقل صاحبه من ملة الإسلام، إنما يدمغه بالفسوق أو العصيان... والكفر بالمعنى الثاني يشمل... المعاصي التي يخالف بها أمر الله تعالى...

القاعدة السابعة إن الايمان قد يجامع شعبة أو أكثر للكفر أو الجاهلية أو النفاق. وهذه الحقيقة قد خفيت على كثيرين في القديم والحديث، فحسبوا أن المرء إما أن يكون مؤمناً خالصاً أو كافراً خالصاً، ولا واسطة بينهما... لاعتقادهم أن الإيمان لا يجامع شيئاً من الكفر أو النفاق بحال. وأن الإسلام والجاهلية ضدان لا يجتمعان. وهذا صحيح إذا نظرنا إلى الإيمان المطلق [أي الكامل] والكفر المطلق، وكذلك الإسلام والجاهلية والنفاق... ففي الصحيح أن النبي ﷺ قال لأبي ذر رضي الله عنه: إنك امرؤ فيك جاهلية! هذا وهو أبو ذر في سابقته وصدقه وجهاده. وفيه: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق». [والله تعالى يقول عن يوم أحد] «هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان». ولهذا

قال [النبي ﷺ] «ويخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»، فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد في النار، وأن من كان معه كثير من النفاق، فهو يعذب على قدر ما معه من ذلك، ثم يخرج من النار. وعلى هذا فقوله تعالى للأعراب: «لم تؤمنوا ولكن قولوا: أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم» نفى حقيقة دخول الإيمان في قلوبهم، وذلك لا يمنع أن يكون فيهم شعبة منه، كما نفاه عن الزاني والسارق، ومن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومن لا يأمن جاره بوائقة وغير ذلك... وعلى هذا،... فبعض الناس يكون معه شعبة من شعب الكفر، ومعه إيمان أيضاً. وعلى هذا، ورد عن النبي ﷺ تسمية كثير من الذنوب كفراً، مع أن صاحبها قد يكون معه أكثر من مثقال ذرة من إيمان، فلا يخلد في النار. كقوله: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، وقوله: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»... ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، فبين أن هؤلاء لم يخرجوا من الإيمان كلية، ولكن فيهم ما هو كفر، وهو هذه الخصلة كما قال بعض الصحابة: كفر دون كفر...

القاعدة الثامنة... إن مراتب الناس متفاوتة في امتثالهم لأمر الله تعالى، واجتنابهم لنهيه... فمن الخطأ الفاحش تصور الناس جميعاً ملائكة أولي أجنحة، بلا أخطاء ولا خطايا، ناسين العنصر الطيني الذي خلقوا منه، والذي يشدهم إلى الأرض لا محالة. وهذه الحقيقة... قد قررها القرآن الكريم، كما أكدتها سنة رسول الله ﷺ. قال تعالى في سورة فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ...﴾ فقد قسم الله عزّ وجل الأمة التي أورثها الكتاب، واصطفاها من عباده، ثلاثة أصناف:

١ ـ ظالم لنفسه، وهو كما قال إبن كثير، المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب بعض المحرمات.

٢ ـ ومقتصد: وهو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات.

٣ ـ وسابق بالخيرات، وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

فهؤلاء الثلاثة على ما في بعضهم من عوج وتقصير وظلم للنفس داخلون في الذين اصطفاهم الله من عباده. وهؤلاء الأصناف الثلاثة ينطبقون على الطبقات أو المراتب الثلاث المذكورة في حديث جبريل المشهور، وهي: «الإسلام»، و«الإيمان»، و«الإحسان». وأخبر الله تعالى عن هؤلاء الأصناف الثلاثة ـ وفيهم الظالم لنفسه ـ بأنهم من أهل الجنة.

وصحَّ عن إبن عباس في تفسير سورة فاطر، قوله: هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب...

على أن المسلم مهما يكن مقتصداً أو ظالماً لنفسه، فعليه أن يكره الكفر والفسوق والعصيان، ولا يرضى بالمنكر الذي تطفح به الحياة من حوله. فإن أدنى درجات الإيمان أن يغير المسلم المنكر بقلبه، أي يكرهه ويتألم له ويسخط عليه، وأرفع من ذلك درجة أن يغيره بلسانه إن استطاع، وأرفع من هذه أن يغيره بيده إن إستطاع. وهذا ما جاء به الحديث الصحيح المشهور على الألسنة «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». فإذا كان التغيير بالقلب أضعف الإيمان، فمعنى هذا أن من فقد

هذه الدرجة ـ درجة أضعف الإيمان ـ فقد الإيمان كله، ولم يبق له منه شيء[1].

وهكذا، فالشيخ القرضاوي، العالم الكبير والجليل، يحذر بقوة من تكفير أحد من أهل الإسلام ولو أخطأ في حق الله أو كان مبتدعاً في بعض الأمور، ويدين بشدة المتعسفين في التأويل، المسرفين في التكفير، الذين يكفرون الأفراد والحكام والمجتمعات، ويدعو إلى الاحتراز عن التكفير ما أمكن ذلك، لأن استباحة دماء وأموال المصلين إلى القبلة خطأ جسيم وأمر عظيم. وهو يدلل على صحة موقفه وما يقوله بالنقولات التي يرويها عن الفقهاء القدماء من أشاعرة ومالكية وشافعية وحنابلة، وذلك علاوة على النصوص الدينية التي ساقها. **فشيخ الإسلام إبن تيمية في** الصفحتين ١٩٩ و٢٠١ من الجزء الخامس من **مجموعة الرسائل والمسائل** يقول: «ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله، ولا بخطأ أخطأ فيه، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة. والخوارج المارقون الذين أمر النبيﷺ بقتالهم، قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين، واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولم يكفرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم، ولم يقاتلهم علي حتى سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على أموال المسلمين، فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم، لا لأنهم كفار. ولهذا لم يسب حريمهم ولم يغنم أموالهم. وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والاجماع، لم يكفروا، مع أمر الله ورسوله بقتالهم، فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم؟ فلا يحل لاحدى هذه الطوائف أن

---

(١) المرجع نفسه، ص٣٢ ـ ٥٥.

تكفر الأخرى أيضاً... والغالب أنهم جميعاً جهال بحقيقة ما يختلفون فيه. والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض، لا تحل إلا بإذن الله ورسوله. وإذا كان المسلم متأولاً في القتال أو التكفير لم يكفر بذلك... فالسلف قاتل بعضهم بعضاً من أهل الجمل وصفين ونحوهم، وكلهم مسلمون مؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾... إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾. وقد بين الله تعالى أنهم ـ مع اقتتالهم، وبغي بعضهم على بعض ـ إخوة مؤمنون، وأمر بالاصلاح بينهم بالعدل[1].

وعضد الدين الايجي الأشعري يقول في كتابه المواقف: «جمهور المتكلمين والفقهاء مجمعون على أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة [بذنب]، فإن الشيخ أبا الحسن [الأشعري] قال في أول كتابه مقالات الاسلاميين: اختلف المسلمون بعد نبيهم ﷺ في أشياء، ضلل بعضهم بعضاً، وتبرأ بعضهم من بعض، فصاروا فرقاً متباينين، إلّا أنّ الإسلام يجمعهم ويعمهم. فهذا مذهبه، وعليه أكثر أصحابنا. وقد نقل عن الشافعي أنه قال: لا أرد شهادة أحد من أهل الأهواء ـ البدع ـ إلّا الخطابية، فإنهم يعتقدون حلّ الكذب.

والإمام الشاطبي المالكي يقول في كتابه الاعتصام: وقد اختلفت الأمة في تكفير هؤلاء الفرق أصحاب البدع العظمى [مثل الخوارج وغيرهم]، ولكن الذي يقوى في النظر، وبحسب الأثر، عدم القطع بتكفيرهم، والدليل عليه عمل السلف الصالح فيهم... وحكي عن الإمام أبي حنيفة أنه لم يكفر أحداً من أهل القبلة. والإمام الطحاوي الحنفي

(١) المرجع نفسه، ص٦٩ ـ ٧١.

يقول: لا يخرج الرجل من الإيمان إلّا جحود ما أدخله فيه... والعلامة الشوكاني في كتابه **السيل الجرار** يقول: إعلم أن الحكم على الرجل المسلم، بخروجه من دين الإسلام، ودخوله في الكفر، لا ينبغي لمسلم مؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه، إلّا ببرهان أوضح من شمس النهار، فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية من طريق جماعة من الصحابة أن «من قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما»[1].

(ج)

بيْدَ أن الشيخ القرضاوي يرى في كتابه تحت عنوان: **تكفير من يستحق التكفير**، أنه «ينبغي أن نكفر من يجاهرون بالكفر دون استحياء» ونكف عمن ظاهره الاسلام وباطنه خراب من الإيمان، لأن من كان هذا شأنه يسمى في الإسلام بـ **المنافق** الذي يؤمن بلسانه دون قلبه، ولا تصدق أعماله أقواله، وله في الدنيا أحكام المسلمين بمقتضى الظاهر، وهو في الآخرة في الدرك الأسفل من النار بموجب ما يبطنه من كفر. ومن **«الكفرة الذين يجب»** أن يوسموا **«بالكفر دون مواربة ولا استخفاء، الأصناف التالية»**:

١ ـ «الشيوعيون المصرون على الشيوعية، الذين يؤمنون بها فلسفة ونظام حياة، رغم مناقضاتها الصريحة لعقيدة الإسلام وشريعته وقيمه، والذين يؤمنون بأن الدين ـ كل دين ـ أفيون الشعوب، ويعادون الأديان عامة، ويخصون الإسلام بمزيد من العداوة والنقمة، لأنه عقيدة ونظام وحضارة كاملة.

٢ ـ الحكام العلمانيون، ورجال الأحزاب العلمانية الذين يرفضون

---

(١) المرجع نفسه، ص٥٩ ـ ٦٢ ، ٦٥، ٧١.

جهرة شرع الله، وينادون بأن الدولة يجب أن تنفصل عن الدين، وإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله، أبوا وامتنعوا، وأكثر من ذلك، إنهم يحاربون أشد الحرب من يدعون إلى تحكيم شريعة الله، والعودة إلى الإسلام.

٣ ـ أصحاب النحل التي مرقت من الاسلام مروقاً ظاهراً مثل: الدروز والنصيرية والاسماعيلية، وأمثالهم من الفرق الباطنية، الذين قال عنهم الإمام الغزالي وغيره: ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، وقال عنهم شيخ الإسلام إبن تيمية: إنهم أكفر من اليهود والنصارى، وذلك لانكارهم قطعيات الاسلام وأساسياته وما علم منه بالضرورة. ومثلهم في عصرنا: البهائية، التي هي دين جديد قائم برأسه. ويجاريهم القاديانية التي جاءت بنبوة بعد محمد ﷺ الذي ختم الله به النبيين»[(١)]. إلّا أن الشيخ القرضاوي يرى أن هناك أمراً «يجب أن نلتفت إليه، وهو ما قرره المحققون من العلماء من وجوب **التفرقة بين الشخص والنوع في قضية التكفير**. ومعنى هذا: **أن** نقول مثلاً: الشيوعيون كفار، أو الحكام العلمانيون الرافضون لحكم الشرع كفار، أو من قال كذا أو دعا إلى كذا فهو كافر، فهذا وذاك حكم على النوع. فإذا تعلق الأمر بشخص معين، ينتسب إلى هؤلاء أو أولئك، وجب التوقف للتحقق والتثبت من حقيقة موقفه، بسؤاله ومناقشته حتى تقوم عليه الحجة، وتنتفي الشبهة، وتنقطع المعاذير...»[(٢)].

(د)

وفي كتابه غير المسلمين في المجتمع الاسلامي يقول الشيخ القرضاوي في كلامه عن العلاقة التي يجب أن تسود بين المسلمين ومخالفيهم في الدين:

---

(١) المرجع نفسه، ص١٩ ـ ٢١.

(٢) المرجع نفسه، ص٢١.

١ ـ إن المسلم يعتقد أن اختلاف الناس في الدين عائد إلى مشيئة الله تعالى الذي جعل الإنسان حراً مختاراً فيما يريد ويفعل. فالله تعالى يقول في الآية ٢٩ من سورة الكهف ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. كما يقول تعالى في الآية ١١٨ من سورة هود: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

والمسلم يؤمن بأن مشيئة الله لا راد لها. ولذا، لا يحق له أن يكره الآخرين على الاسلام، لأن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ في الآية٩٩ من سورة يونس: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

٢ ـ إن المسلم ليس مكلفاً بمحاسبة الكافرين على كفرهم أو معاقبة الضالين على ضلالهم. فهذا الأمر لا يعود إليه، وإنما يعود فقط إلى الله تعالى في الآخرة. فالله تعالى يقول في الآيتين ٦٨ ـ ٦٩ من سورة الحج ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

(هـ)

والذي لا شك فيه، أن الشيخ القرضاوي عالم إسلامي كبير، ضليع في معرفة الإسلام وعلومه، وفقيه جليل بين الفقهاء المسلمين، وليس بالأمر اليسير معارضته أو مجادلته في الاسلام وفرقه ونحله، وهو العالم الموسوعي المتمكن من علوم الاسلام والفقه وآراء السلف. ويمكننا استخلاص عدة أمور من آرائه:

١ ـ إنه يتبنى كما غيره من العلماء المعاصرين، مذهب السلف فيما

(١) بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٦، ١٩٩٤، ص٤٩.

يتعلق بأصحاب النحل. ولكن أصحاب بعض هذه النحل، اليوم، يرفضون وسمهم بالكفر المحض، وبأنهم أكفر من اليهود والنصارى، قائلين بأنهم موحدون بالله تعالى ومسلمون. وهو نفسه، يقول في كتابه **ظاهرة الغلو في التكفير** «إن من مات على التوحيد: أي على لا إله إلا الله، استحق عند الله أمرين. **الأول**: النجاة من الخلود في النار، وإن اقترف من المعاصي ما اقترف... **الثاني**: دخول الجنة لا محالة، وإن تأخر دخوله.. (لأن) الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله...»(١)

٢ ـ إنه يؤمن بأن اختلاف الناس في أديانهم يعود إلى مشيئة الله الذي أراد أن يكون الإنسان حراً في اختياره. ولذا لا يحق للمسلم أن يكره أحداً على اعتناق الاسلام، لأن الله لو شاء لجعل الناس كلهم مسلمين، وهو ما نؤمن به ونوافق عليه.

٣ ـ إنه يستند إلى الآيتين ٦٨ ـ ٦٩ من سورة الحج لاثبات أن محاسبة الكافرين على كفرهم، أو معاقبة الضالين على ضلالهم، إنما يعود فقط إلى الله تعالى في الآخرة، وهو محق في ذلك، إلّا أنه قد أغفل الآية ١٧ من سورة الحج، والآية ٦٢ من سورة البقرة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

---

(١) مرجع سابق، ص٣٠ ـ ٣١.

(٢) لمزيد من التفصيل حول معاني هاتين الآيتين، راجع كتابنا، الخطاب الغربي المعاصر تجاه الاسلام والمسلمين. . . ص٨٧ ـ ٨٨، ١١٥.

٤ ـ إنه يرى أن المسلم ليس مكلفاً بمحاسبة الكفار على كفرهم، وهو ما نؤيده، إلّا أنه لم يبين لنا فيما إذا كان هذا الأمر، يسري على الدول العربية والاسلامية التي تتبنى نظام الشريعة الاسلامية في الحكم، وتطبق حدودها.

وإذا كان ثمة قول يمكن إيراده فيما يتعلق بظاهرة الغلو في التكفير البالغة الخطر على الاسلام والمسلمين، لأنها خطيئة دينية، وخطيئة علمية، وخطيئة أخلاقية، وخطيئة اجتماعية، وخطيئة سياسية وطنية فادحة، وخطيئة إنسانية قاتلة، فهو قول الله تعالى في كتابه الكريم كما سبق ذكره:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾(١).

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾(٢).

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾(٣).

وكذلك أيضاً، قول نبي الإسلام ﷺ:

ـ «إياكم والغلو في الدين فإنه قد أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين».

ـ «من شهد أن لا إله إلّا الله، فقد عصم مني دمه، وماله، وحسابه على الله».

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٩.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٨.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

ـ و«عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة سيئة مثلها، أو أغفر... ومن لقيني بقُراب الأرض خطيئة، ثم لا يشرك بي شيئاً، لقيته بمثلها مغفرة»(١).

ـ و«عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ... يقول الله تعالى: أخرجوا من [النار] من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها...»(٢).

وعلينا أن لا ننسى على الاطلاق، أن الاسلام يدعو إلى المحبة والرحمة والاخاء والتعاون والعدل والتسامح والحوار والسلام... الخ، ليس بين المسلمين فيما بينهم فحسب، وإنما بينهم وبين غيرهم من الأمم الذين لا يدينون بدين الاسلام.

ولذا، فإن الواجب الديني والسياسي والوطني والخلقي والاجتماعي والانساني يدعو العلماء المسلمين المجتهدين إلى أن يقاوموا فكر التعصب لمذهب دون آخر، والتكفير والتفرقة بين المسلمين، فيكونوا رحمة وبلسماً لأمتهم. وعلى الحكام المسلمين وأولي الأمر فيهم أن يؤازروا العلماء في هذا الواجب الديني والوطني والإنساني الذي يرضي الله ورسوله، سواء أكان ذلك عن طريق سنّ التشريعات القانونية التي تحرِّم التكفير وتجرِّمه، أو ملاحقة المتعصبين المغالين في فكرهم الذين يجوِّزون استخدام العنف مع مخالفيهم في الدين، مسلمين، وغير مسلمين.

---

(١) رواه الترمذي والنسائي. أنظر: الأحاديث القدسية، تأليف لجنة من العلماء، القاهرة، مؤسسة المختار، ٢٠٠١، ص٤٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٩١ ـ ٢٩٢.

الفصل الثالث

الأصولية الاسلامية

معناها ومبادئها

الأصولية

أولاً ــ معنى الأصولية

الأصولية في اللغة، نسبة من الأصول. مفردها: أصل، وجمعها أصول. وأصل الكلام: ما يبتنى عليه من الكلام.

والأصول في اللغة والعلوم: تعني المبادىء والأسس. فالأصول والمبادىء تتطابقان في المعنى.

وفي الاسلام، يمكن التميز بين الأصول والمبادىء.

فأصول الدين في الإسلام هي: التوحيد - النبوة - الإيمان باليوم الآخر - الثواب والعقاب.

وفروع الدبن هي: الصلاة - الصيام - الزكاة - الحج - الجهاد - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأصول الفقه في الاسلام، هي: القرآن - السنة - الاجماع - القياس - العقل - الاستحسان - الاستصلاح - الاستصحاب... الخ.

أما المبادىء، فهي غير ذلك، مثل: مبدأ الشورى - مبدأ حق الملكية - مبدأ المساواة - مبدأ العدالة - مبدأ تكافؤ الفرص - مبدأ الحرية... الخ.

ثانياً ــ التعريف الفرنسي للأصولية

١ - يرى المفكر الفرنسي مكسيم رودنسون **Maxime Rodinson** أن

الأصولية الاسلامية تعني العودة الأمينة إلى العقائد الإسلامية. وأن الأصوليين مجموعات في العالم الإسلامي تعتبر أن حل مشكلات العالم الإسلامي، والعالم كله، يتم عن طريق النظام الإسلامي. وهم يطالبون المسلمين بالعودة إلى ما كانوا عليه في صدر الإسلام، ويؤكدون أن كل مشاكل العالم الإسلامي تكمن في ابتعادهم عن سنة النبي في حياته العملية.

وهو يرجع ظاهرة الأصولية الاسلامية إلى فشل الأنظمة الليبرالية والاشتراكية السائدة في البلاد الاسلامية، وهيمنة الغرب عليها، ويرى أنها: حركة إيديولوجية تنطوي على نظرة كلية إلى الإنسان والمجتمع وتتضمن حلولاً لمشكلاتهما، مستلهمة في ذلك، مثال المدينة الأولى زمن النبي محمد ﷺ.

٢ ـ يرفض المستشرق الفرنسي **جاك بيرك** Jacques Berque تعبير الأصولية الإسلامية، ويقترح بدلاً منه استخدام لفظ **الاسلاموية** LIslamisme. والاسلامويون هم الذين يعتبرون الاسلام **فلسفة عملية**، قادرة على إيجاد الحلول المناسبة لمشاكل الحياة اليومية، وبناء الدولة والمؤسسات في المجتمعات الاسلامية، وذلك بالاضافة إلى طبيعة الاسلام الدينية. وهم يدعون إلى إعادة تأويل القرآن باعتباره قادراً على تقديم الحلول لمشاكل العالم المعاصر وللمجتمعات التي وضعت نفسها منذ مائة سنة في أحضان الغرب، ولم تحقق النجاحات المطلوبة منها.

وهو يرى أن كلمة «**الأصولية**» متأتية أصلاً من النزاعات التي شهدتها الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية في داخلها.

٣ ـ يميز المستشرق **دومينيك شوڤاليه** Dominique Chevalier بقوة

بين الأصولية المسيحية والأصولية الاسلامية. ويرى أن لفظ الأصولية في الأوساط الفكرية والسياسية الفرنسية، يدل على معنى التطرف. وهو وصف للحركة الأصولية داخل المسيحية. أما الأصولية الاسلامية فتعني الرجوع إلى الينابيع، وهي ظاهرة تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر. وبعض مفكري الأصولية والحركات الاسلامية يرجع إلى محمد عبده أو رشيد رضا أو آخرين.

وهو يرى أن قوة الاصوليين الاسلاميين تكمن في أنهم يمتلكون برنامجاً أخلاقياً.

٤ ـ يرى المفكر الفرنسي **روجيه غارودي** R. Garoudy أن الأصولية سواء كانت مسيحية أو يهودية أو إسلامية... تقوم على معتقد ديني أو سياسي مع الشكل الثقافي أو المؤسساتي الذي تمكنت من ارتدائه في عصر سابق من تاريخها. وهي تعتقد أنها تمتلك الحقيقة المطلقة المتعالية على الزمان بحيث يصبح الماضي والحاضر والمستقبل واحداً عندها. وهي جميعها تدعو إلى العودة إلى النصوص المقدسة وإلى الكتابات التي يفترض أنها نابعة منها.

٥ ـ الكاتب الفرنسي **بول بلطا** Paul Balta يرى في كتابه **الاسلام في العالم** L, Islam dans le monde أن الأصوليين الاسلاميين يطالبون بالعودة إلى ينابيع الاسلام. وأن عدوهم هو التقليد، وليس الحداثة.

٦ ـ الكاتب الصحافي **جيل كيبل** Gilles Kepel المتخصص في الحركات الأصولية الاسلامية والمسيحية واليهودية، يرى أن الحركات الأصولية تعني إعادة أسلمة المجتمعات الاسلامية، وإعادة تنصير المجتمعات المسيحية، وإعادة تهويد اليهود [حركة أغوش أمونيم].

ثالثاً ـــ التعريف الأنكلو سكسوني للأصولية

في مطلع القرن العشرين أطلق في الولايات المتحدة الأمريكية تعبير: **الأصولية** على فرق إنجيلية تدعو إلى العودة إلى أصول المسيحية والتمسك بالنص الحرفي للكتاب المقدس. ومن المفكرين الأمريكيين ـ الإنكليز، الذين عالجوا موضوع الأصولية، نذكر:

١ ـ **نيكي كيدّي** NiKKi Keddie أستاذ التاريخ في جامعة كاليفورنيا، يميز بين مصطلح Intégrisme ومصطلح Fondamentalisme. فالأول يدل في المفهوم الفرنسي على الممارسات التقليدية للكنيسة الكاثوليكية. أما الثاني فيدل في الاستخدام الأنكلو سكسوني على الإيمان بالمعنى اللفظي بالكتاب المقدس والأنبياء.

٢ ـ **جون إيسبوسيتو** Jhon Isposytho الاستاذ في جامعة جورج تاون، يؤثر استعمال تعبير: **الصحوة الاسلامية** في الكلام على الأصولية الاسلامية. وهو يرى أن الأصولية الاسلامية ردّ فعل على إخفاق العلمانية في الدول الاسلامية، وعلى إسراف الحكومات الاسلامية في الاعتماد على الغرب أو في سياساتها القائمة على التغريب. والصحوة الاسلامية نابعة من الأزمة السياسية والاقتصادية والدينية التي يعيشها العالم الاسلامي. وهي ليست معادية للحداثة من جميع وجوهها، وإنما هي معادية لبعض أوجه الحداثة التي لا تتفق مع الاسلام.

٣ ـ المفكر الانكليزي **فرد هاليداي** Fred Haliday يرى أن الأصولية **ظاهرة عالمية**، لا ينفرد بها العالم العربي. وهي موجودة في الولايات المتحدة الأمريكية، وإيرلندا، وإسرائيل، والهند... الخ. والحركات الاسلامية جميعها تدعو إلى العودة إلى النصوص المقدسة

وإلى الكتابات النابعة من هذه النصوص المقدسة. وهي تشترك جميعها في ثلاثة أمور:

أ ـ هي تحاول تعبئة أو تحشيد الجماعات الدينية لغايات سياسية.

ب ـ هي تقدم برنامجاً سياسياً عن التنمية الاقتصادية والاستقلال السياسي استنداً إلى التقاليد الدينية الماضية.

جـ ـ هي، تهدف إلى غاية واحدة: الوصول إلى السلطة السياسية. وهي بدرجات متفاوتة، متعصبة، ومستعدة لاستخدام العنف في سبيل الوصول إلى غايتها.

٤ ـــ خلاصة:

من خلال ما تقدم من تعاريف للأصولية الاسلامية، يمكن أن نرد الأصولية الاسلامية إلى عوامل أو أسباب راهنة، وعوامل تاريخية تكمن في ثنائية الدين والدنيا في الاسلام، ووجوب العودة إلى ينابيع الاسلام الأولى: القرآن أولاً، والسنة ثانية.

رابعاً ـــ تعريف الأصولية عند المفكرين المسلمين

أ ـ لفظ «**الأصولية**» مصطلح غربي لا عربي. والأصوليون في الفكر الغربي الأمريكي، جماعة في الولايات المتحدة الأمريكية ترى الإنسحاب من الحياة العامة لتعيش عيشة المسيحيين الأوائل في بساطة وطهارة. فبين عام ١٩٠٠ و١٩١٥ نشر عدد من علماء اللاهوت مجموعة من الكتيبات عرفت باسم: «**الأصول: شهادة على الحق**» بينوا فيها ما اعتبروه، الأصول المطلقة والصحيحة للمسيحية، وهي: عصمة الإنجيل

من الخطأ، وحرفية الايمان والمعتقد، وألوهية السيد المسيح وبعثه الجسدي... الخ. وقد عرف مؤيدو آرائهم، بالأصوليين.

والأصولية الاسلامية حركة تدعو إلى العودة إلى أصول الدين: القرآن والسنة. وهدفها إعادة الاسلام إلى الوجود في جميع أوجه الحياة.

والأصوليون المسلمون يريدون تجديد الاسلام بالعلم والعمل، وتنقيته من البدع والاعتقادات الدخيلة عليه، والتوفيق بينه وبين حاجات العصر.

ب ــ تعريف حسن حنفي للأصولية الاسلامية.

يعرف حسن حنفي في كتابه **الحركات الاسلامية في مصر**: الأصولية، بقوله: هي البحث عن الأساس أو الشرعية. إذ إن كل نظام يقوم على أساس. ولفظ الأصول لفظ معروف في علمي أصول الدين وأصول الفقه. وهي موجودة على مدى التاريخ الاسلامي. لها جذورها التاريخية، وروافدها الفكرية، وانفجاراتها السياسية المتكررة دائماً. وهي لا تعني بالضرورة: المحافظة، والتخلف، ومعاداة المدنية الحديثة، والتعصب، ورفض الحوار، والانغلاق على الذات، ولا التمسك بالمظاهر، وإطلاق اللحى، وارتداء الحجاب، وبناء المساجد. فقد ولدت الحركات الأصولية حركات تحرير الشعوب ضد الاستعمار. وقد دفع الرئيس المصري الراحل: السادات، حياته، ثمناً لفهمه المشوه عن الأصولية. وكانت سخريته في خطابه الأخير ـ قبل اغتياله ـ من المرأة التي تمكث في المنزل، مثل الكرسي، والخيمة التي تضعها **«الأخت المؤمنة»** على الرأس، أحد الأسباب المباشرة التي أدت إلى اغتياله في ٦ تشرين الأول ١٩٨١، كما ثبت من التحقيقات العسكرية.

جـ ـ مفهوم الأصولية عند أبو الأعلى المودودي وحسن البنا وسيد قطب

يرى المفكرون الأصوليون: أبو الأعلى المودودي، وحسن البنا، وسيد قطب... الخ، أن الاسلام دين ودنيا، شريعة وحضارة. وهو معطى إلهي يصلح لكل مكان وزمان. وكما كان صالحاً في عهد النبي ﷺ والصدر الأول للإسلام، حيث العهد الذهبي للإسلام، فهو صالح الآن وفي كل آن. وعلى المسلمين الرجوع إلى الشريعة الاسلامية، إلى مبادئها العامة وتشريعاتها الكلية، يستلهمون منها حلولاً عملية لمشكلاتهم المعاصرة.

ومن خلال شعار حسن البنا[1]، مؤسس جماعة «الإخوان المسلمون» عام ١٩٢٨م: «الله غايتنا ـ والرسول قدوتنا ـ والقرآن شرعتنا أو دستورنا ـ والجهاد سبيلنا ـ والموت في سبيل الله أسمى أمانينا ـ»؛ وكذلك من خلال دعوة المودودي، وسيد قطب (١٩٠٦ ـ ١٩٦٦) إلى أن تكون العبادة والحاكمية العليا في الأرض لله وحده، يمكن أن نحدد العناصر الرئيسية في مفهوم الأصولية الاسلامية:

١ ـ هي حركة تدعو إلى العودة إلى أصول الإسلام: القرآن، والسنة.

٢ ـ هي حركة تجديد في الفكر الاسلامي، وليست حركة توفيقية ولا حركة إصلاحية، تنظر إلى القضايا الاجتماعية والسياسية من منطلق الشريعة الإسلامية.

٣ ـ هي حركة سياسية ترمي إلى إعادة بناء المجتمعات الاسلامية وأنظمة الحكم فيها وفقاً لتعاليم الإسلام.

---

(١) استشهد في ١٢ شباط/فبراير سنة ١٩٤٩م.

د ـــ خلاصة:

يمكن أن نقول: إن ثمة نوعين من الأصولية الإسلامية:

أ ـ الأصولية السلفية المعتدلة.

ب ـ الأصولية السلفية المتطرفة التكفيرية.

أ ـ إن الأصولية الإسلامية المعتدلة حركة **دينية فكرية سياسية تجديدية تحريرية**، ـ تجديدُ الإسلام بالعلم والعمل والاجتهاد الفقهي، وتحريره من الاستعمار وعبودية الحكام والاستعباد، والتخلف والفقر والفساد ـ تدعو المسلمين بالطرق السلمية للعودة إلى الإيمان الصحيح بالإسلام: عقيدة، وشريعة، ونظاماً، والعمل بموجبه في جميع مناحي حياتهم: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقضائية. والدولة التي تدعو إليها ليست دولة دينية وإنما دولة مدنية تقوم على أساس احترام القانون وحرية الاختيار، ومسؤولية الحاكم أمام الأمة [مثال على ذلك: حزب: **الإخوان المسلمون في مصر**].

ب ـ إن الأصولية **الإسلامية التكفيرية** تدعي الفهم الحقيقي للاسلام: عقيدة، وعبادة، وأخلاقاً، ونظاماً. وهي معادية للحضارة المعاصرة في مختلف وجوهها، وتدعو إلى إعادة أسلمة المجتمعات الاسلامية الجاهلية الكافرة المتغربنة؛ وتكفر الآخر المختلف عنها دينياً وعقدياً، وسياسياً؛ وتجيز استعمال العنف والارهاب ضده؛ وتلجأ إلى جميع وسائل القوة على اختلافها من أجل الوصول إلى السلطة. [مثال على ذلك: جماعة التكفير والهجرة، التي قامت في أوائل السبعينيات في مصر، بقيادة شكري مصطفى، وكذلك جماعة تنظيم القاعدة حالياً، فضلاً عن كل الجماعات الجهادية الاسلامية التكفيرية، التي تلجأ إلى استعمال

العنف والقوة مع الغير سواء أكان مسلماً أم غير مسلم، وتقوم بتفسير القرآن الكريم والسنة النبوية، تفسيراً خاصاً، يؤيد توجهاتها].

الأصول الدينية للأصولية الإسلامية المعتدلة والأصولية التكفيرية

يقوم الفكر الديني الأصولي إجمالاً على الإيمان العميق بعقيدة التوحيد الاسلامية الخالية من كل ألوان الشرك الوثني الجاهلي، والمتمثلة بشهادة أن: «لا إله إلا الله ـ محمد رسول الله».

وهذه الشهادة تعني الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق الكون والإنسان والحياة والموت. ولا إله غيره، ولا سلطان إلّا سلطانه في الأرض كما في السماء. وهي توجب التسليم له وحده بالعبادة والعبودية الخالصة، والحاكمية التشريعية المطلقة، والعمل بمقتضى شريعته في العقائد والمعاملات، كما بلغها عنه رسوله محمدﷺ إلى الناس. كما تقتضي الرفض المطلق والتام لكل ما يمت بصلة إلى الجاهلية الجديدة القائمة من شرائع وعادات، وثقافة، وفنون، وآداب.. الخ، والعمل على تقويضها بكل السبل الممكنة، مهما كانت التضحيات.

ويعتمد الفكر الديني الأصولي الجهادي التكفيري لتأييد وجهة نظره الدينية كما السياسية، على فهم خاص لمجموعة من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، وهي:

أ ــ الآيات القرآنية

وهي تتمثل بآيات الحاكمية والجهاد الواردة في القرآن الكريم، ونصرة الله للمجاهدين في سبيل إعلاء دينه، ومنها:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ

بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[1].

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[2].

﴿... وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[3].

﴿... وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[4].

﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[5].

﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[6].

﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[7].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[8].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٥.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٧.
(٦) سورة المائدة، الآية: ٥٠.
(٧) سورة يوسف، الآية: ٤٠.
(٨) سورة النساء، الآية: ٦٥.

وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[2].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[3].

﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[4].

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[5].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[6].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[7].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧٤.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ٩٥.
(٥) سورة النساء، الآية: ٧٤.
(٦) سورة التوبة، الآية: ١١١.
(٧) سورة التوبة، الآية: ١٢٣.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾(٢).

ب ــ الأحاديث النبوية الشريفة

١ ـ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلّا بحق الإسلام، وحسابهم على الله».

٢ ـ «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد».

٣ ـ «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان».

٤ ـ «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك».

٥ ـ «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقوله فقد كفر بما أنزل الله على محمد».

٦ ـ «من بدل دينه فاقتلوه»

٧ ـ «جاء عن بشر بن الخصاصية أنه أراد أن يبايع النبي على الإسلام دون أن يتصدق أو يجاهد، فكف يده عنه وقال: يا بشر، لا جهاد ولا صدقة، فبما تدخل الجنة إذن».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

١ ـ رفض المبدأ السياسي الديمقراطي: «الشعب هو مصدر السلطة»، وتالياً، رفض مبدأ: حاكمية العباد للعباد. [عند الأصولية التكفيرية].

٢ ـ الله وحده هو المصدر الحقيقي لكل أنواع السلطة. وله وحده الحاكمية العليا والمطلقة في الأرض كما في السماء.

٣ ـ السياسة والحكومة ركن من أركان الإسلام، وجزء منه لحراسة الناس في دينهم ودنياهم. وهي من **العقائد والأصول** لا من **الفقهيات** والفروع. وهذا هو رأي: إبن تيمية، وإبن قيم الجوزية، والوهابية، والقاعدة، والشيخ محمد الغزالي، وأبو الأعلى المودودي، وأبو الحسن الندوي، والشيخ يوسف القرضاوي، والشيخ محمد رشيد رضا، وحسن البنا، وسيد قطب، وسعيد حوى، ومصطفى السباعي، وتقي الدين النبهاني، ومحمد باقر الصدر، والإمام الخميني... الخ. أما الخوارج، والغزالي، والإمام الجويني، وابن خلدون... الخ، فلا يعتبرونها من الأصول وإنما من الفروع.

٤ ـ الإسلام بنظر الشيخ حسن البنا مؤسس حركة الأخوان المسلمين، هو كالهيكل المبني على دعائم أربع، والمسوّر بسورين عظيمين. أما **الدعائم** فهي:

أ ـ العقيدة الصافية، عقيدة السلف الصالح في عصر النبوة والخلفاء الراشدين.

ب ـ العبادة الصحيحة والعمل الصالح.

جـ ـ وحدة الأمة التي لا تفرقها النزاعات السياسية، ولا المذاهب الدينية، ولا العصبيات القومية.

د ـ التشريع العادل والقانون الصالح المستمد من كتاب الله وسنة رسوله.

وأما السوران، فهما:

١ ـ **الحكومة**، التي تقوم على حراسة الناس في دينهم ودنياهم.

٢ ـ **الجيش**، الذي يحفظ استقلال الأمة والدفاع عنها تحت عنوان: الجهاد.

وقد شبه البنّا الإسلام بحجرة لها أربعة جدران، وسقف، وباب.

الجدار الأول: الإيمان بالله.

الجدار الثاني: العبادة الصحيحة.

الجدار الثالث: الأخوة الكاملة بعيداً عن العنصرية الجنسية.

الجدار الرابع: الأحكام العادلة.

أما السقف: فهو الجهاد في سبيل الله، وهو أعلى ما في الإسلام، حيث به تشدّ أركانه. ومن الواجب إعداد جيش قوي مستعد دائماً في البر والبحر والجو للدفاع عن أحكامه وحماية دولته.

والباب: هو الحكومة الصالحة التي تحكم بما أنزل الله، وتحفظ لكل ذي حق حقه.

٥ ـ على المسلمين جميعاً بنظر البنا أن يعملوا بجدّ من أجل إقامة الدولة الاسلامية. وإذا لم يعملوا من أجل ذلك، «**فإنهم جميعاً آثمون**»، ومسئولون أمام الله «عن تقصيرهم في إقامتها، وقعودهم عن إيجادها».

٦ ـ الأمة بنظر البنا هي خليفة الله في الأرض. وعليها أن تتصرف

وفق شرع الله وتختار الحاكم المناسب لها لتنفيذ شرع الله والحكم بمقتضاه. ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وهذا الأمر يعني أن الأمة هي التي تولي الخلفاء أو الحكام، وتراقبهم، وتحاسبهم، وتعزلهم. وأن سند أو شرعية السلطة السياسية ومرجعها هو الأمة، وعليها التصرف وفق حاكمية الله التشريعية. «الإسلام الذي يؤمن به الإخوان المسلمون يجعل الحكومة ركناً من أركانه... والحكم في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول، لا من الفقهيات والفروع...»(١).

٧ ـ جميع المجتمعات العربية والاسلامية الحالية برأي الأصولية الجهادية التكفيرية، هي مجتمعات جاهلية وكافرة. فهي لا تحكم باسم الله. ولا تستمد قوانينها من شرع الله: القرآن والسنة. ولا تعترف بالحاكمية العليا لله. ولا تفرد الله بالعبادة والعبودية، بل العبادة والعبودية فيها للملوك والأمراء والحكام وأرباب المال، وللأهواء والشهوات.

والجاهلية برأي أبي الأعلى المودودي [باكستاني] بدأت تتسرب إلى حياة الأمة الاسلامية منذ عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، ثم عادت إلى الإسلام في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، لتعود بعده من جديد إلى الجاهلية.

٨ ـ جميع المجتمعات الأخرى المعاصرة برأي الأصولية التكفيرية، سواء كانت شيوعية أو وثنية أو مسيحية أو يهودية، هي مجتمعات جاهلية

---

(١) انظر: مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنّا ـ من رسالة المؤتمر الخامس ـ الإخوان المسلمون والحكم، بيروت، دار القلم، (د.ت) ص١٧٠ ـ ١٧١. و: السيد يوسف، الإخوان المسلمون وجذور التطرف الديني والإرهاب في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص١٥٨، ٥٧٥ ـ ٥٧٦، ٥٧٨. و: «الإخوان المسلمون»، مجلة أسبوعية، عدد ١٩٨، ١٩٤٨م، ص١٢ ـ ١٣.

وكافرة، لأنها لا تعترف بحاكمية الله، بل ترتفع فيها عبادة الناس بعضهم لبعض، فيخضع فيها البعض لسيطرة البعض الآخر، ويستغل البعض البعض الآخر.

أ ـ فالمجتمعات الشيوعية تنكر وجود الله، وتقول بأن المادة أو الطبيعة هي أصل الكون والوجود. وتعتبر أن إشباع حاجات الفرد الضرورية من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وجنس، التي يتقاسمها مع سائر أنواع الحيوان، هي حاجاته الوحيدة، وبها تتأمن سعادته.

ب ـ والمجتمعات المسيحية واليهودية برأي الأصولية التكفيرية، وإن كانت لا تنفي وجود الله وسلطانه في السماوات، ولا تمنع عبادته في الكنائس والمعابد والجوامع، إلّا أنها لا تخلي بين الناس وتطبيق شريعته في الأرض، بل تعترف للرهبان والكهان بصلاحية التشريع، ولها مفاهيم خاطئة عن الألوهية، وأفكار مغلوطة عن العلاقة القائمة بين الله ومخلوقاته.

جـ ـ والمجتمعات التي تسود في الهند واليابان وأفريقيا... الخ برأي الأصولية التكفيرية، هي أيضاً جاهلية، لأن الأنظمة والتشريعات التي تحكمها لا تربطها أدنى صلة بشريعة الله. فهي تعبد آلهة أخرى غير الله، وتقدم الشعائر لها، متناسية بأن الحاكمية العليا لا تعود أصلاً إلّا إلى الله وحده.

٩ ـ من وجهة نظر الأصولية الجهادية التكفيرية، يجب محاربة الجاهلية الجديدة في العالمين: العربي والإسلامي، والإطاحة بها، بغاية إعادة الحاكمية لله وحده، وتخليص الناس من عبودية بعضهم لبعض. فالإسلام حركة تقدمية تحررية من العبودية. وكل الأنبياء كانوا دعاة ثورة وتجديد وتغيير. ويجب اختيار الحاكم العادل باجماع الأمة، وليس فقط

باجماع العلماء أو فئة معينة من الناس. كما تجب الثورة على الحاكم الظالم وعزله، ولو كان ملتزماً شكلياً بالشريعة؛ وذلك بخلاف ما ذهب إليه: أحمد بن حنبل، وإبن تيمية، والغزالي... الخ، الذين لم يجوزوا الثورة على الحاكم، وأوجبوا طاعته ولو كان غير عادل، لأنهم اعتبروا أن مساوىء الثورة على الحاكم تفوق المحاسن التي قد تنتج عنها.

١٠ ـ الجهاد الدائم في سبيل الله «رأس العبادات ودرة تاجها» من أجل إقامة الدولة الإلهية أو «المملكة الإسلامية» على وجه الأرض [أبو الأعلى المودودي].

١١ ـ الحكم الإسلامي لا يعني حكم رجال الدين من العلماء المشايخ، لأنه لا إكليروس في الإسلام. ولا يوجد أصلاً في الاسلام، طبقة، تسمى طبقة: رجال الدين.

المبادىء الفكرية والثقافية للأصولية الدينية السياسية المعتدلة والأصولية التكفيرية

ـ رفض الادعاء بأن الإنسان هو مصدر الحقيقة.

ـ رفض الإدعاء بعدم وجود حقيقة مطلقة.

ـ الله هو مصدر الحقيقة المطلقة. [وهذا، أيضاً، هو رأي الفيلسوف الفرنسي: رينه ديكارت، مؤسس الفلسفة الحديثة].

ـ العقل محدود بالنص لتجنب وقوعه في الخطأ أو الإنحراف.

ـ إدانة الفلسفة بصورة عامة، والفلسفة الاسلامية بصورة خاصة التي حاولت التوفيق بين الدين والفلسفة اليونانية.

ـ إدانة علم الكلام الإسلامي الذي يدافع عن العقيدة الدينية بأسلوب

الفلاسفة ومماحكاتهم الجدلية، مما شوه العقيدة الاسلامية. وكذلك، إدانة التصوف.

ـ الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام نتاج العقل الوثني المتأثر بالفلسفة اليونانية والمنهج المنطقي الأرسطي اليوناني.

ـ العقيدة الاسلامية والفلسفة عالمان غريبان عن بعضهما، ولا يمكن أن يلتقيا على الإطلاق.

ـ الفلسفة معرفة جافة تتعامل مع الذهن ولا تلتفت إلى إمكانية تحققها في الواقع لكي تصبح محركاً للحياة نحو الأفضل. أما العقيدة فهي معرفة حية حركية تدفع الإنسان إلى العمل والتقدم في الحياة.

[يرى الفيلسوف الفرنسي بليزباسكال أن الفلاسفة لا يعرفون تماماً ما هو حقيقة الإنسان وما هو خيره وشره حتى يقدمون حلولاً لمشاكله].

ـ إدانة المصلحين المحدثين [محمد عبده، محمد إقبال،... الخ] من قبل الاصولية التكفيرية، لكونهم لجأوا إلى العقل وأساليب الفلسفة للوقوف بوجه الانحرافات التي كانت تملأ عصرهما.

ـ معالجة أمور العقيدة بمنهج العقيدة الخاص بها، وهو: «منهج التفسير والتصوير». [سيد قطب].

ـ عدم تبني أي مذهب من مذاهب الفقه الأربعة المعروفة. والميل في أمور الشريعة إلى آراء أحمد بن حنبل، وأحمد بن تيمية وتلميذه إبن قيم الجوزية.

ـ إفلاس العالم المعاصر الذي يؤله العقل والمادة والقوة والقيم المادية، وتسود فيه الرغائب البهيمية، على صعيد القيم الروحية التي لا يمكن للحياة الإنسانية أن تنمو نمواً صحيحاً إلّا في ظلها.

- جميع الأنظمة السياسية المعاصرة عاجزة عن الاستقرار لفشلها في تنظيم الحياة الانسانية تنظيماً عادلاً، نظراً لأنها لا ترتكز على أسس فكرية تلائم الفطرة البشرية واحتياجاتها الحقيقية، فلا تلغي شخصية الفرد، ولا تهمل دور الجماعة، ولا تؤله المادة والعقل، ولا تهمل الأخلاق، ولا تتعدى على فطرة الإنسان وتكوينه الخاص المختلف عن الجماد والحيوان.

[معاداة الماركسية للفطرة الإنسانية وحاجاتها: الحرية الشخصية، حب التملك... الخ].

[اعتبار الرأسمالية «مذهب المنفعة واللذة» أساس الأخلاق، ومجانبة الأخلاق الفاضلة التي تقتضي مقاومة اللذائذ المادية، أو على الأقل، عدم الإفراط فيها].

[يرى فرويد أن إطلاق الحرية لمبدأ اللذة يؤدي إلى القضاء على الحضارة].

- رفض الأفكار القومية والوطنية التي تقوم على العصبية ومعاداة الدين.

- مبادىء الحرية والعدالة والمساواة والأخوة فقدت معناها منذ زمن بعيد، وأصبحت مجرد وهم تحت تأثير النظام الرأسمالي القائم على مبدأ حرية الاستغلال وانقسام المجتمع إلى طبقتين: طبقة أصحاب المال، وطبقة العمال.

- حاجة العالم المعاصر إلى القيم الحقيقية والأخلاق الفاضلة، وهي القيم والأخلاق الدينية التي توجد أصلاً في أعماق الفطرة البشرية، وتجد قبولاً لها من لدن «**الحاسة الخلقية**» الفطرية، مثل: وحدة العائلة، التضامن

الاجتماعي، الحرية الحقيقية، العدالة، المساواة، الكرامة، النفور من العبودية، إجتناب السرقة، والزنا، والغش، والخداع، والجريمة... الخ.

ـ إدانة الأصولية التكفيرية كل نتاج الحضارة المعاصرة على صعيد الثقافة على اختلافها: أدب، شعر، فن، مسرح، موسيقى، غناء، نحت، رقص، تاريخ، إجتماع، سياسة، فلسفة، أخلاق... الخ، ما عدا العلوم النظرية البحتة: رياضيات، فيزياء، طبيعيات... الخ، وكذلك، العلوم العملية المفيدة، كالطب، والعلوم الصناعية المختلفة.

ـ جميع المجتمعات الإنسانية الحالية برأي الأصولية التكفيرية، محكومة بغير شريعة الله، وهي مجتمعات جاهلية كافرة تجب محاربتها وتقويضها وإزالتها. والمجتمع المحكوم بشريعة الله هو المجتمع الإسلامي الإلهي المتحضر فقط. والأرض إما أن تكون دار إسلام وسلام، وإما دار كفر وشرك وحرب.

الجذور الفكرية والثقافية للأصولية الإسلامية المعتدلة والأصولية التكفيرية

ـ **الخوارج**، أول فرقة في الإسلام خرجت على خليفة المسلمين: علي بن أبي طالب. كفروا الخليفة الثالث عثمان بن عفان، والخليفة الرابع علي بن أبي طالب، والسيدة عائشة، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وأصحاب الجمل وصفين. ورأوا أنهم ارتكبوا الكبيرة، وكل مرتكب للكبيرة كافر، وكل كافر مآله إلى النار. أوجبوا الخروج على أئمة الكفر والجور، واستحلوا دماء وأموال جميع المسلمين: رجالاً ونساء، وأطفالاً، الذين لا يرون رأيهم. **فكانوا جماعة العنف والتكفير الأولى في الإسلام**، الذين قاتلوا خليفة المسلمين: علي بن أبي طالب، واغتالوه، كما قاتلوا الدولتين الأموية والعباسية.

كان شعارهم: **لا حكم إلّا لله. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.**

ـ **أحمد بن حنبل** (٧٨٠ ـ ٨٥٥م). كان شديد التمسك بالأصول: القرآن والسنة، وآثار الصحابة، ويقدم الحديث المرسل أو الضعيف على الرأي والقياس. كما كان يقدم رأي الصحابة الواحد على القياس. كان معادياً للمعتزلة. سجنه الخليفة المأمون والمعتصم، وأفرج عنه المتوكل. كفّر كل من زعم أن القرآن مخلوق. وكان معادياً لأهل الكلام والصوفية وتأويل الصفات. وكان يرى أن شدّ الرحال والسفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يفعلها أحد من الصحابة والتابعين، ومن اعتقد أن ذلك عبادة وفعلها، فهو مخالف للسنة. واعتبر طاعة الخليفة الظالم لوناً من النفاق يجب أن يبرأ منه المؤمن، وأن من ترك الصلاة عمداً وكسلاً، كافر، يجب قتله.

ـ **إبن حزم الأندلسي الظاهري** (ت ٤٥٦هـ). دعا إلى الرجوع إلى القرآن والسنة والاكتفاء بهما، وقال: إن فيهما غنية عن القياس إذا عرفنا كل ما فيهما من الأحكام. رفض القياس بشدة، قائلاً: إن من يأخذ به في الشريعة فإنه يقول فيها برأيه ويتعدى على حدود الله. فالشارع مثلاً يفرق في الحكم بين الأمور المتماثلة، مثل: قطع يد سارق القليل دون غاصب الكثير، وحدّ القاذف بالزنى دون القاذف بالكفر. وقد يسوِّي بين الأمور المختلفة، مثل: إيجاب القتل بالردة والزنى مع الاختلاف بينهما. وهذا الأمر، يعني أن العقل لا يمكن أن يعتبر القياس شارعاً. وقد أفتى بتحريم كل إسم مُعَبَّدٍ لغير الله، مثل: عبد النبي، عبد علي، عبد عمر، عبد العباس، عبد المهدي، عبد الحسن، عبد الحسين، عبد الهادي، وعبد الرسول... الخ.

ـ أبو حامد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ/ ١٠٥٩ ـ ١١١١م). كفّر وبدّع الفلاسفة المسلمين في عشرين مسألة. وردّ مصدر كفرهم إلى تأثرهم بسقراط وأبقراط وأفلاطون وأرسطو... الخ. والمسائل التي كفرهم بها ثلاث:

١ ـ مسألة قدم العالم.

٢ ـ قولهم إن الله تعالى لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الأشخاص.

٣ ـ إنكارهم بعث الأجساد وحشرها.

كما كفّر الباطنية واعتبرها أشد خطراً على الإسلام من الفلسفة، لأنها كانت تنفث سمومها في المجتمع بشتى الإغراءات والوسائل.

وفي كتابه: إحياء علوم الدين (ج٢ و٣) رأى أن الضعف في الدين، والانحلال في الأخلاق، والفساد في المجتمع، يقع على عاتق العلماء ورجال الدين الذين تقاعسوا عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعلان كلمة الحق عند سلطان جائر، واستولى عليهم حب الدنيا والمال والجاه ومراءاة الحكام. إن العلماء ملح الأمة وأطباؤها، وإذا فسد الملح فسدت الأمة. وفساد الملوك والأمراء يعود إلى ضعف العلماء وإهمالهم لواجبهم. وباختصار، إن فساد الرعية بسبب فساد الملوك، وفساد الملوك لفساد العلماء. وقد دعا العلماء إلى الامتناع عن قبول العطايا الملوكية ورفضها، والاعتزال عن السلاطين الجائرين، واعتقاد بغضهم، وكراهة حياتهم، والابتعاد عنهم، وعدم الثناء عليهم، ولا الاستخبار عن أحوالهم، ولا التقرب منهم أو من المتصلين بهم.

ـ تقي الدين أحمد بن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م).

دعا إلى إفراد الله بالعبادة والعبودية، ومقاتلة الحاكم الذي لا يحكم بشرع الله، وعدم دفع الزكاة له، لأن «أحب الخلق إلى الله إمام عادل وأبغض الخلق إلى الله إمام جائر».

حرّم السفر إلى أضرحة الأولياء والمشايخ والتبرك بهم والنذر لهم، ورأى أن من أعظم أسباب الشرك اتخاذ القبور مساجد وتقديم النذور إليها والتشفع بها. وكان شديد الإنكار والتكفير للتوسل بغير الله الواحد وتقديم شعائر التقديس لغيره تعالى، أو اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً. ورأى أن «من أتى إلى قبر نبي أو صالح يسأله حاجته ويستنجد به فهو شرك صحيح يجب أن يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلّا قُتل. وإن قال: أنا أسأله لكونه أقرب إلى الله مني ليشفع لي في هذه الأمور، لأني أتوسل إلى الله به كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه، فهذا من أفعال المشركين والنصارى...»[1].

كفّر اليهود والنصارى. كما كفر الخوارج، والرافضة وإمامهم: إبن المطهر الحلي، والباطنية، والمعتزلة، والأشعرية، والجهمية، والمرجئة، والصوفية، والفلاسفة[2]. كذلك كفَّر طائفة «النصيرية» التي تزعم الإسلام ولا تعمل به، ورأى وجوب قتالهم حيث اشترك بنفسه في قتالهم. كما أوجب قتال كل طائفة ممتنعة عن أداء فريضة من شرائع الإسلام، كالصلاة، والصيام، والزكاة[3].

أعلن الجهاد على المغول والتتار، واشترك في الجهاد ضدهم في

---

(١) محمد يوسف موسى، إبن تيمية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٢، ص٢٨٥ ـ ٢٨٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٧ ـ ٣٩، ٨٩، ١٠٧، ١٤٨ ـ ١٥٠، ٥١ ـ ٥٢. و: صائب عبد الحميد، إبن تيمية، بيروت، دار الغدير، ص٤٢، ٤٤.

(٣) المرجع نفسه، ص١٥٩ ـ ١٦٠.

شهر رمضان من سنة ٧٠٢هـ[١]. وكان يرى أن من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين، إلى ما يخالفهم، هو مخطىء، ومبتدع. وأن الكافر ليس هو فقط من عاش في الجاهلية، ولكنه أيضاً من يفكر تفكير الجاهلية.

من مؤلفاته: الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، تخجيل أهل الإنجيل، الرد على النصارى، الكلام على حقيقة الإسلام والإيمان، رسالة العبودية، رسالة في زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور، رسالة في الاستغاثة، الرد على إبن مطهر الرافضي الحلي [ثلاثة مجلدات][٢].

كان معظم علماء الحنفية والمالكية والشافعية في مصر والشام، فضلاً عن علماء الصوفية، يقفون منه ومن فتاويه موقفاً معادياً. وقد رماه بعض العلماء، مثل: تقي الدين السبكي، وعز الدين إبن جماعة، وإبن بطوطة... الخ بالزندقة، وبأنه يرى رأي المجسمة أو المشبهة فيما يتعلق بصفات الله التي وردت في بعض الآيات القرآنية[٣].

حكم عليه بالكفر والموت، ومات سجيناً في قلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ في عهد السلطان المملوكي الناصر قلاوون[٤]

- **إبن قيم الجوزية** (١٢٩٢ ـ ١٣٥٠م). تلمذ إبن تيمية. كفّر اليهود والنصارى والفلاسفة. ورأى كابن تيمية، أن القرآن يخلو من أساليب الفلاسفة، والمتكلمين، كالمعتزلة، والأشاعرة، والشيعة الرافضة. له كتاب: ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان.

---

(١) المرجع نفسه، ص٨٠، ٨٣.
(٢) المرجع نفسه، ص١١٩.
(٣) المرجع نفسه، ص٩٦ ـ ٩٧.
(٤) المرجع نفسه، ص١١٠.

ـ **محمد بن عبد الوهاب**: مؤسس الحركة الوهابية السلفية (١٧٠٠ ـ ١٧٩٢م). كان امتداداً للفكر السلفي: فكر أحمد بن حنبل، وابن تيمية، وابن قيِّم الجوزية. رفض الفلسفة، والصوفية، وجدل علماء الكلام، من الفرق الاسلامية المختلفة، من: معتزلة، وأشاعرة، وخوارج، ومرجئة، وجهمية، ورافضة... الخ. كما رفض «الاستدلال بالقياس حتى ولو كان صحيحاً». ووقف في فهمه لآيات التشبيه [صفات الله] عند ظواهر النصوص القرآنية. دعا للعودة إلى عقيدة التوحيد الإلهية الخالصة من كل مظاهر الشرك الوثني، بحيث تقتصر العبادة على الله وحده. ورأى أن مظاهر الشرك والوثنية المنافية لعقيدة التوحيد قد استشرت في العالم الإسلامي كله، واتخذت صوراً متعددة، «كعبادة الموتى»، وبناء القبور وإقامة القباب أو المساجد عليها، وزيارتها، وتقديم النذور لأصحابها، والتوسل إليهم لقضاء الحاجات؛ والتبرّك بالأحجار، والأشجار، والمغارات، والاعتقاد بالسحر والتنجيم والعرافة ومختلف أنواع الشعوذة والخرافات. وخلص إلى أن «مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين»، وحكم بكفرهم وشركهم، وقرر بأن قتالهم واجب، بحكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنهم أشركوا في العبادة عندما اتخذوا وسائط تقربهم إلى الله.

وقد رأى أن النبيﷺ نهى عن شد الرحال إلى أي مكان بقصد التعبُّد والصلاة فيه، ما عدا «المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى». وأن النبيﷺ قال: «لا تجعلوا قبري وثناً يعبد». وأن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أمر بقطع شجرة الرضوان التي بايع الصحابة تحتها رسول الله عام الحديبية، قائلاً عن الحجر الأسود وهو يقبله: «إني أعلم أنك حجر لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول اللهﷺ يقبلك ما قبلتك».

ولذا، فقد شجع الناس على هدم القبور والرموز وقطع الأشجار التي يتوسل بها الناس للتقرب من الله، وأقنع عثمان بن أحمد بن معمر، أمير منطقة العيينة في نجد، بفكره وعقيدته. فسار أمير العيينة بجيشه وفي مقدمته محمد بن عبد الوهاب إلى الأماكن التي اتخذ الناس فيها القبور أو الرموز أو الأشجار للتوسل، فهدموها وقطعوها، حتى أن إبن عبد الوهاب «أمسك بالفأس، وقاد الجيش في هدم قبة زيد بن الخطاب (ت: ١٢هـ/ ٦٣٣م) في بلدة الجبيلية، وكان مزاراً يعظمه الناس ويتبركون بزيارته».

وفي سنة ١٧٤٥ غادر العيينة إلى «الدرعية» حيث لقي أميرها محمد بن سعود الذي رحَّب بدعوته، واتفقا معاً على تأسيس ملك جديد ودولة على فكر توحيدي جديد. ومن «الدرعية» عاصمة الإمارة الوهابية السعودية، أخذ محمد بن عبد الوهاب يجهز الجيوش، ويبعث البعوث إلى أهل البلاد، ويشرف على بيت المال، وينظم مصارف المغانم والزكاة. وعرفت شبه الجزيرة العربية «قيام نمط جديد من الفكر الديني الذي يتحدى فكرية العصور الوسطى وينكر خرافاتها، بل ويحكم بالكفر على كل المسلمين المعاصرين، وعلى رأسهم «ظل الله في الأرض، خليفة آل عثمان»[١].

ولمحمد بن عبد الوهاب مؤلفات عدة، منها كتاب: التوحيد الذي هو حق الله على العبيد. وقد تأثر به: محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧ - ١٨٥٩م) مؤسس الحركة السنوسية في ليبيا، التي قاومت الاستعمار

---

(١) انظر: د. محمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامي، بيروت، دار الوحدة، ١٩٨٥م، ص٢٥٤ ـ ٢٥٦. و: د. محمد خليل هراس، الحركة الوهابية، ردّ على مقال للدكتور محمد البهي في نقد الوهابية، بيروت، دار الكاتب العربي، (د.ت).

الإيطالي؛ ومحمد بن أحمد بن عبد الله المهدي (١٨٤٤ ـ ١٨٨٥م) مؤسس المهدية في السودان، التي قاومت الاستعمار البريطاني.

وكلتا الحركتان: السنوسية والمهدية أعلنتا الجهاد على الاستعمار التركي العثماني والأوروبي [المهدية قدمت الجهاد على فريضة الحج، بحجة أن مكان الحج واقع تحت حكم الكفار الأتراك، وأن السيف الذي يسل في سبيل الله هو أفضل من عبادة سبعين سنة]. وحاربتا أصحاب الطرق الصوفية الذين كانوا قدريين جبريين متواكلين مسالمين للاستعمار التركي والأوروبي. وأنكرتا الوسائط بين الإنسان وخالقه، والتوسل بالأولياء والصالحين أحياء كانوا أم من الأموات. ودعتا إلى الرجوع إلى القرآن والسنة، وإلى الخلافة العربية الاسلامية، وتكوين مجتمع مسلم على غرار ما كان عليه زمن الرسول، وإسقاط المذهبية والمذاهب. وقد أعلن محمد أحمد المهدي في ٢٩ حزيران ١٨٨١ أنه هو المهدي المنتظر الذي بشر به الرسولﷺ، وتحدث عنه مطولاً شيخ الصوفية محيي الدين بن عربي (١١٦٥ ـ ١٢٤٠م) في كتابه: الفتوحات المكية. وأن رسول الله عهد إليه بالمهدية ونصّبه خليفة له ومهدياً في حضرة جمع من شيوخ التصوف والأولياء، إلى جانب «الخضر» و«عزرائيل» الذي سيقبض أرواح الذين سيحاربونه؛ ودعا الناس إلى الإيمان به، والهجرة إليه، ومبايعتهم له في أنفسهم وأموالهم، بالجنة، والجهاد معه لتحرير البلاد من الأتراك والأجانب، وإنقاذ ديار الإسلام قاطبة منهم. وبعدما تم له النصر في جميع أرجاء السودان في سنة ١٨٨٥، وأقام دولته على كل السودان، أنشأ بيت المال، ومنصبي: قاضي الإسلام، وأمين السلاح، وجعل له خلفاء أربعة يخلف كل واحد منهم واحداً من الخلفاء الراشدين الأربعة، كما يخلف هو الرسولﷺ. وأخذ الناس يتحدثون عن الخوارق

التي يرونها... فاسمه مكتوب على أوراق الأشجار، وعلى بيض الدجاج. وقد شاهدوا النار تشتعل في جثث القتلى من أعدائه، وهي نار جهنم. وهو في غدوه ورواحه معه ملك من الله يلهمه ويسدده. وفي قتاله معه دائماً عزرائيل يقبض أرواح أعدائه(١).

ـ جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م).

دعا المسلمين على اختلاف مذاهبهم للعودة إلى ينابيع العقيدة الاسلامية: القرآن والسنة، وترك كل ما يخالفهما من آراء هي نتيجة لظروف تاريخية واجتماعية، والاتحاد فيما بينهم على اختلاف قومياتهم ضمن إطار «الجامعة الاسلامية»، وتخليص بلادهم من براثن الاستعمار الأوروبي لكي يدرأوا عنهم خطره السياسي القاتل الذي يعيق توحدهم وتقدمهم، وذلك انطلاقاً من عقيدة فريضة الجهاد الاسلامية الواجبة على كل مسلم لتحرير وطنه، مستنكراً بقوة استنامة المسلمين عن مجاهدة الاستعمار بالثورة والقوة المسلحة(٢). إن «المسلمين بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ولايتهم من البلدان، وكلهم مأمور بذلك، لا فرق بين قريبهم وبعيدهم... وهو فرض عين على كل واحد منهم، إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم، كان على الجميع أعظم الآثام. ومن فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية، بذل الأموال والأرواح... وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم، إلى حدّ لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره لوجبت عليه الهجرة من دار حربه...»(٣).

---

(١) تيارات الفكر الاسلامي، ص٢٧٢ ـ ٢٧٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٢١، ٣٣٢.

(٣) عبد الرحمن الرافعي، جمال الدين الأفغاني ـ باعث نهضة الشرق ـ مصر، دار الكاتب العربي، ص٨٧.

كذلك، دعا إلى تطهير الاسلام مما علق به من شوائب وبدع وخرافات ووسائط لا أساس لها في الاسلام، وإلى الاجتهاد في كل الأمور التي تهم المسلمين واستنباط الحلول الملائمة لها استناداً إلى العقل والقياس، بعيداً عن معارضة جوهر النص. وحذّر من «المستغربين» العرب والمسلمين الذين انبهروا بحضارة الغرب، وفقدوا الثقة بالذات، واستحكمت منهم «عقدة الأوروبي» حيث رأى فيهم خطراً وباباً يدخل منه الاستعمار إلى حياة المجتمعات[1].

ورأى أن الحكم الاستبدادي الفردي في البلاد الاسلامية هو الأساس في التأخر السياسي والاجتماعي للمسلمين. وهو مخالف لروح الاسلام القائم على الشورى. وأن الإسلام دين يدعو إلى التحرر من العبودية، وإلى الاتحاد والتعاون والتمسك بالفضائل التي هي أقصى غايات المدنية الصحيحة، والتحضر، والتقدم الحقيقي، والسعادة الانسانية. وأن المجتمع الحي السليم كالجسم الصحيح التام الأعضاء. وكما أن لا حياة للجسم بدون الروح، فكذلك لا حياة للمجتمع بدون رئيس يتمثّل بالنبوة أو الحكمة. وقد «بدأ الانحلال والضعف في روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم... ومن سار في الأرض، وتتبع تواريخ الأمم، وكان بصير القلب، علم أنه ما انهدم بناء ملك... إلا لشقاق أو استبداد في الرأي، واستنكاف عن المشورة، وإهمال في إعداد القوة، والدفاع عن الحوزة... وفي كل ذلك حيد عن سنن الله، فيحل غضبه بالخاطئين، وهو أحكم الحاكمين.

(١) تيارات الفكر الاسلامي، ص٣٣٨.

ولو تدبرنا آيات القرآن، واعتبرنا بالحوادث التي ألمت بالممالك الاسلامية، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا، وأرشدنا إليه... فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة، وقواد الملة المحمدية، أن يهتموا بتنبيه الغافلين عما أوجب الله، وإيقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين... ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبي وأصحابه، ورفض كل بدعة، والخروج عن كل عادة سيئة، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية، وما نزل بها من قضاء الله عندما حادت عن شرائعه، ونبذت أوامره...». ثم «أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة ولا يمس سواد القلوب... أقول ولا أخشى نكيراً: لا يمس الإيمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الايمان، لا يراعي في ذلك عذراً ولا تعلة، وكل اعتذار في القعود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله... فعلى العلماء أن يسارعوا إلى.. جمع كلمة المسلمين... فيعود للاسلام شأنه، وللدين الحنيفي مجده، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية، وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الاسلامية...»[1].

ـ محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م).

رأى في كتابه **الإسلام دين العلم والمدنية**، أن المدنية الغربية المعاصرة، التي تتآخى مع المسيحية، هي مدنية الملك والقهر، مدنية الذهب والفضة، والتبرج والفخفخة، والغدر والنفاق. حاكمها الأعلى هو

(١) جمال الدين الأفغاني ـ باعث نهضة الشرق ـ، ص١١٢ ـ ١١٣، ١٢٢ ـ ١٢٤، ١٧٨.

المال: الجنيه عند البعض، والليرة عند البعض الآخر، ولا دخل للانجيل فيها على الاطلاق.

والاسلام لم يجيء لمحو الوثنية الجاهلية العربية فقط، وإنما جاء للقضاء على أية وثنية جاهلية وجدت، وفي أية صورة ظهرت، وتحت أي إسم عرفت. إن الاسلام دين وشرع، دين وسياسة. ولا يكمل الدين وأحكامه إلّا إذا وجدت القوة التي تنفذه. وهذه القوة تتمثل بالسلطان أو الخليفة. والخليفة يجب أن يكون مجتهداً يفهم كتاب الله وسنة نبيه، ويعرف ما فيهما من الأحكام، حتى يستطيع التمييز بين الحق والباطل، ويسهل عليه إقامة العدل الواجب عليه من الشرع والأمة معاً. وعلى الأمة التي تكل أمرها إليه، أن تدين له بالطاعة ما دام سائراً على نهج الكتاب والسنة. فإذا انحرف عن ذلك، بادرته بالنصيحة والمشورة؛ وإذا فارق الكتاب والسنة في عمله، وجب عليها أن تستبدل به غيره.

ومصيبة المسلمين في تاريخهم أنهم أخطأوا في فهم معنى الطاعة لأولي الأمر، وبلغت بهم الأمور إلى حد التأليه لهم، وتركهم يتصرفون في شئونهم وفق ما يرونه من دون مساءلة ولا محاسبة. ولو رزق الله المسلمين ـ اليوم ـ حاكماً يعرف دينه، ويسوسهم بأحكامه، لنهضوا من واقعهم الديني والسياسي والاجتماعي المرير، البعيد عن العقل، والعلم، والتحضر، والفهم الصحيح للدين، وزاحموا الأوروبيين في اكتساب العلوم والمعارف الدنيوية، والصناعات المفيدة.

«إن هذه المدنية الآرية التي تآخت مع الدين المسيحي... هي مدنية الملك والسلطان، مدنية الذهب والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو الجنيه عند قوم، والليرة عند قوم

آخرين، ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك... والاسلام جاء لمحو الوثنية عربية كانت أو يونانية أو رومانية، أو غيرها، في أي لباس وجدت، وفي أية صورة ظهرت، وتحت أي إسم عرفت... [وهو] دين وشرع. فقد وضع حدوداً، ورسم حقوقاً... ولا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلّا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضي بالحق، وصون الجماعة. وتلك القوة لا... بد أن تكون في واحد وهو السلطان أو الخليفة. والخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم، ولا هو مهبط الوحي، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة. نعم شرط فيه أن يكون مجتهداً بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج إليه من الأحكام، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل، والصحيح والفاسد، ويسهل عليه إقامة العدل الذي يطالبه به الدين والأمة معاً... وهو مطاع ما دام على المحجة ونهج الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد، فإذا انحرف عن النهج أقاموه عليه، وإذا اعوج قوموه بالنصيحة والاعذار إليه... فإذا فارق الكتاب والسنة في عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره... [لقد] أخطأ المسلم في فهم معنى الطاعة لأولي الأمر والانقياد لأوامرهم، فألقى مقاليده إلى الحاكم ووكل إليه التصرف في شئونه... [وبلغت] ثقته بالحاكم إلى حدّ التأليه... وتركه وشأنه... إن الديانة الاسلامية وضع أساسها على... رفض كل قانون يخالف شريعتها ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها»[1]. «ولو رزق الله المسلمين حاكماً يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه، لرأيتهم قد نهضوا، والقرآن الكريم في إحدى اليدين، وما قرر

(١) محمد عبده، الاسلام دين العلم والمدنية، دار الهلال بمصر، (د.ت) ص١٦، ٨٠ - ٨١، ٩٧، ١٠٠.

الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى، ذلك لآخرتهم، وهذا لدنياهم، ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم... في المدنية...»[1].

ـ عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨ ـ ١٩٠٥م)

دعا إلى الخلافة العربية الاسلامية. ورأى أن إهمال المسلمين لدينهم جرّهم إلى ما هم عليه من الضعف والجهل والانحطاط. والشريعة الاسلامية هي أول شريعة شرعت للناس والحكومات أصول الميزانية المؤسس عليها فن الاقتصاد المالي: الافرادي والسياسي...، والشورى، والجهاد في الدين، والأمر بالمعروف، وإزالة المنكر، وإقامة الحدود، وإيتاء الزكاة، وأهل الحل والعقد الذين لا تنعقد شرعاً الإمامة أو الخلافة إلّا برضاهم وببيعتهم، والذين أمر الله تعالى نبيه بمشاورتهم في الأمر، ويعود لهم شرعاً حق الحسبة ومحاسبة الإمام والعمال، لأنهم رؤساء الأمة ووكلاؤها، والقائمون في الحكومة الاسلامية مقام مجالس النواب. وإعمال النظر في تاريخ الحكومات الاسلامية من عهد الخلافة النبوية إلى الآن، نجد ترقيها، وضعفها وفسادها، تابعين لمدى قيام أهل الحل والعقد بوظيفتهم في تدبير شؤون الأمة وانصياع أولي الأمر لهم.

ورأى أنه قد فشا بين المسلمين أعمال تدخل في باب الشرك والجاهلية، كشدّ الرحال إلى القبور لزيارتها، وابتناء المساجد والقباب عليها، وتقبيل أركانها، وذبح القرابين عندها، والنذر لها، والتوسل بأصحابها لقضاء الحاجات، والإيمان بالمنجمين والعرافين والسحرة والمشعوذين، وجماعات الصوفية الذين جعلوا من الدين غناء، ورقصاً،

---

(١) محمد عبده، الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق محمد عمارة، بيروت، ١٩٧٢، ج٣، ص٢٥١ ـ ٢٥٢. و: الاسلام دين العلم والمدنية، ص٥٦ ـ ٥٧، ١٤٨.

القرن العشرين»، جاء فيه أن الناس اليوم، شأنهم في ذلك، شأن الأمم الوثنية، وعبدة الأصنام، يعكفون على عبادة أهوائهم وشهواتهم، وأصنام لهم: مدفونة، ومنصوبة، ومنحوتة، وأحبار ورهبان، وملوك ورؤساء، يقدمون لهم القرابين من دون الله، حتى أصبحت عبادة الله وحدها مغلوبة غريبة عن الأذهان. والعرب والمسلمون ـ اليوم ـ يعيشون حياة جاهلية بعيدة عن الاسلام منذ زمن بعيد. وهم يقلدون الحضارة الغربية في كل شيء: فكرياً، وثقافياً، وسياسياً، وأخلاقياً، بالرغم من أنها حضارة جاهلية، لأنّها حضارة لهو وفجور وانحطاط خلقي، وتفكك اجتماعي، وقلق اقتصادي، وخواء روحي، وحروب تهدد بدمار البشرية. وقد جاء الإسلام أصلاً للقضاء على الجاهلية العربية، ولانقاذ العالم من براثن كل جاهلية كما هو الحال في عصرنا الراهن.

الفصل الرابع

الذات والآخر في الإسلام

وفي التاريخ الثقافي الغربي

(دراسة مقارنة)

الذات والآخر في الإسلام وفي التاريخ الثقافي الغربي

(دراسة مقارنة)

لتبيان الصورة الصحيحة للعلاقة بين مفهوم الذات والآخر في الإسلام، دين الله سبحانه وتعالى، الذي لا تبديل ولا تغيير في أصوله وعقائده، بتغير الزمان والمكان، لا بدّ أولاً من الوقوف ولو بإيجاز على صورة العلاقة بين الذات والآخر في مسار التاريخ الثقافي الغربي الأوروبي ـ الأمريكي، حتى تتوضح تلك الصورة بشكل دقيق. ولذا، فإن بحثنا سيتناول أولاً، صورة العلاقة بين الذات والآخر في التاريخ الثقافي الغربي، ثم بعد ذلك، صورة العلاقة بين الذات والآخر في الإسلام.

أولاً: صورة العلاقة بين الذات والآخر في التاريخ الثقافي الغربي الأوروبي ـــ الأمريكي

(١)

بعد أحداث الحادي عشر من شهر أيلول ٢٠٠١م التي شهدتها مدينة نيبورك من قبل جماعة تنظيم القاعدة السياسي التكفيري التي يتزعمها ابن لادن ـ صنيعة الولايات المتحدة الأمريكية في الثمانينيات من القرن الماضي لمحاربة الإتحاد السوفياتي في أفغانستان ـ إتهم الدين الإسلامي في الغرب بالراديكالية والعنف والإرهاب، وبعدم قبول الآخر، بحجة أن بنيته العقدية والفكرية والثقافية تختلف عن بنية سائر الديانات، كما اتهم

المسلمون بالتعصب الديني والعرقي، والإرهاب الفكري والعسكري، وبالعداء والكراهية للغرب وديانته وحضارته وقيمه. وقد سارعت منظمة الدول الإسلامية بعد شهر واحد من أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ إلى عقد مؤتمر طارىء في مدينة الدوحة، قرر بالإجماع إدانة العمليات الإرهابية التي تعرضت لها الولايات المتحدة، لأنّها تتنافى مع رسالة الإسلام الذي يدعو إلى السلام، ويحرم إلحاق الأذى بالمدنيين، كما طالب بعقد مؤتمر دولي برعاية الأمم المتحدة للاتفاق على تعريف واضح للإرهاب وسبل مقاومته[١].

---

(١) من الجدير بالذكر، أن خليفة إبن لادن، رئيس تنظيم القاعدة حالياً، الدكتور أيمن الظواهري، يتبنى خيار الجهاد والعنف المسلح كسبيل للتغيير السياسي ضد الحكام «المرتدين» الحاكمين بغير شريعة الله في العالمين العربي والاسلامي. كما يدعو إلى المفاصلة مع الغرب، معتبراً قتل الأمريكيين وحلفائهم: مدنيين وعسكريين، فرض عين على كل مسلم، أمكنه ذلك، في كل بلد يعيش فيه. وهو يرى في كتبه: **الحصاد المر للإخوان المسلمين في ٦٠ عاماً**، و: **الولاء والبراء: عقيدة منقولة وواقع مفقود**، و: **فرسان تحت راية النبي**، و: **الحوار مع الطواغيت مقبرة الدعوة والدعاة**... إلخ، أن جميع المجتمعات الحالية في العالمين العربي والإسلامي، فضلاً عن العالم الغربي، هي مجتمعات جاهلية كافرة، وكذلك أنظمة الحكم القائمة فيها، ولا بد من الجهاد كسبيل وحيد لتغييرها. كما يرى أن جماعة الاخوان المسلمين ـ وهي أكبر وأنشط الجماعات الإسلامية المتواجدة في العالم العربي الإسلامي ـ قد انحرفوا عن طريق الإسلام في مشروعهم السياسي، لأنّهم نبذوا الجهاد، وتنازلوا عن حاكمية الله، ورضوا بحكم الديمقراطية الغربية الكافرة، فصاروا بذلك من الكفار، لأنّ الديمقراطية إقرار بمنح حق التشريع لغير الله، ومن أقر بذلك فهو كافر. ومن شرع للبشر شيئاً فقد نصب نفسه إلهاً. ومن قبل بذلك فهو كافر، وهذا هو عين الكفر الذي ذكره الله تعالى في كتابه الكريم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.
كما أنّه يرى أنّ الشيعة الاثني عشرية من الفرق المبتدعة الذين أحدثوا في الدين بدعاً عقائدية يصير من يعتقدها بعد إقامة الحجة عليه، مرتداً، يستحق القتل؛ مما يعني أن رئيس تنظيم القاعدة حالياً ـ وكل من يدور في فلك القاعدة ـ يحكم على جميع المسلمين: أنظمة ومجتمعات، بالكفر، داعياً إلى الجهاد واستخدام العنف لتغيير هذا الواقع. ومن الطبيعي والحال هذه، أن يكون جميع المسلمين كافة، سنة وشيعة،

وبدلاً من اعتبار الغرب لأحداث نيويورك ظاهرة مرضية خاصة، لها أسبابها السياسية التي تعود إلى الغرب نفسه الذي كان وراء تشريد الشعب العربي الفلسطيني من وطنه في أواخر المنتصف الأول من القرن الماضي، وينأى بنفسه عن الاعتراف بجريمته المتمادية في مساعدته لربيبته إسرائيل، وليست ظاهرة دينية أو عقدية إسلامية عامة، فقد قامت حملة عنيفة ورهيبة من العداء السافر للوجود العربي والإسلامي في معظم بلاد الغرب: الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا وأستراليا وكندا وبلجيكا والسويد والنروج والدانمارك... الخ، أسفرت عن مقتل العديد من المسلمين الأبرياء، وتعرض مساجد ومراكز إسلامية كثيرة إلى الاعتداء، وإلى مضايقة النساء المسلمات المحجبات بشكل مقيت في أماكن التسوق والشوارع، وإلى الدعوة إلى طرد المسلمين إلى ديارهم الأصلية... الخ. وقد ذهب رئيس وزراء إيطاليا آنذاك سيلفيو برلسكوني إلى حد اتهام الإسلام والمسلمين والعرب بالتخلف والتعصب والجلافة والإرهاب ومعاداة الحضارة الغربية، مما تسبب بأزمة سياسية بين إيطاليا وبعض الدول العربية، فضلاً عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

وعلى الرغم من إدانة جميع الدول العربية والإسلامية وجميع فقهاء العرب والمسلمين على اختلاف مذاهبهم وأقطارهم لأحداث نيويورك ولكل عمل جرمي أو إرهابي يطال المدنيين في أرواحهم وممتلكاتهم،

أنظمة ومجتمعات، ضد تنظيم القاعدة والمغالاة. وبالتالي، ليس للغرب من حجة على الإطلاق لوسم العرب والمسلمين بتهمة معاداة الغرب والارهاب، والتذرع الدائم بتنظيم القاعدة ومحاربة التطرف والإرهاب، لصب جام غضبهم: نقداً، وتشويهاً، وكرهاً، لدين الإسلام، والتدخل السافر في شؤون البلاد العربية والاسلامية.

وإلى التبروء من الجماعات السياسية التكفيرية الإرهابية المنسوبة إلى الإسلام التي تسلك سلوكاً دموياً وحشياً في تعاطيها مع الآخر، مهما كان هذا الآخر، سواء كان مسلماً أو غير مسلم، وملاحقة هذه الجماعات في مختلف الدول العربية والإسلامية، وأخذها بالشدة ومقاومتها بالقوة، فإن درجة العداء للإسلام والعرب والمسلمين، وعدم التمييز بين العقيدة الإسلامية ذات الطابع الإلهي ومعتنقيها من المسلمين الذين قد يخطىء بعضهم في فهمه للعقيدة وقد يضل في سلوكه، ما زالت سائدة بأشكال مختلفة في بعض بلاد الغرب الأوروبية منها والأمريكية على حد سواء. وقد أدى هذا العداء بالولايات المتحدة وحلفائها من الدول الغربية إلى شن الحرب على أفغانستان في ٧ تشرين الأول ٢٠٠١م، وعلى العراق سنة ٢٠٠٣م، واحتلالهما بذرائع واهية، ولاسيما بالنسبة إلى العراق، حيث تبين زيف هذه الذرائع، وعدم صلته بتنظيم القاعدة، وخلوه من أسلحة الدمار الشامل التي زعمت الولايات المتحدة امتلاكه لها، وبأنّه يهدد جيران العراق ومن بينهم دولة إسرائيل.

وقد تكشف الآن لكل ذي عقل عربي وإسلامي حقيقة نوايا الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية والدينية التفتيتية إزاء العراق الذي أصبح بفضلها بلداً فقيراً ممزقاً، وساحة للصراع الديني والمذهبي، ومرتعاً خصباً لجماعة تنظيم القاعدة، بعد أن كان من أقوى الدول العربية اقتصادياً وعسكرياً. وما يؤيد ذلك، أن مجلس الشيوخ الأمريكي أصدر في ٢٦ أيلول ٢٠٠٧م توصية بتقسيم العراق إلى ثلاثة كيانات: كردي - سنّي - شيعي، وهي توصية تدلل صراحة على نوايا الولايات المتحدة الخبيثة لتقسيم العالم العربي إلى إثنيات دينية وعرقية متصارعة، ودويلات متنابذة، سواء كان ذلك في العراق أو لبنان أو سوريا أو السودان... الخ.

وكانت محطة الإذاعة البريطانية قد أذاعت بتاريخ ١٨ ـ ١١ ـ ٢٠٠٢م في نشرتها الصباحية، أن مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية السابق، تحدث في محاضرة له عن الحرب الأمريكية المرتقبة على العراق، قائلاً: «إن غاية أمريكا من شن حربها على العراق إعادة ترتيب أوضاع المنطقة العربية على غرار ما تم في أوروبا الشرقية، وتغيير نظام الحكم في كل من المملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية». كما أذاعت المحطة نفسها في نشرتها الصباحية بتاريخ ٥ ـ ٣ ـ٢٠٠٣م تصريحاً لوزير خارجية الولايات المتحدة، كولن باول «بأن بلاده ستعيد تنظيم خارطة الشرق الأوسط تبعاً لمصالحها».

ويؤكد الكاتب الأمريكي مايكل ربرت في كتابه: عبور نهر الربيكون Crossing the Rubicon أن خطة غزو أفغانستان والعراق ونشر القوات الأمريكية حول العالم من أجل التحكم في احتياط البترول العالمي كانت موضوعة وجاهزة للتنفيذ قبل ١١ أيلول ٢٠٠١م. كما أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية صراحة بلسان وزيرة خارجيتها كونداليسا رايس في عهد الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش II عن عزمها على إعادة تشكيل منطقة الشرق الأوسط، وإقامة شرق أوسط جديد، يقوم بزعمها على الديمقراطية واحترام حقوق الأقليات، وذلك من خلال ما أسمته بالفوضى البناءة أو الخلاقة أو التفتيت النظيف. هذه الفوضى التي لا تؤدي بحكم كونها فوضى إلّا إلى تفتيت المنطقة العربية إلى دويلات عرقية ومذهبية، وإلى طمس الهوية العربية، والقضاء على الجامعة العربية، وتمكين إسرائيل من السيطرة عسكرياً واقتصادياً وسياسياً على العالم العربي والتحكم به. وبالرغم من معارضة الدول العربية: أنظمة وشعوباً، لهذا المشروع الأمريكي الذي هو في الحقيقة مشروع شمعون

بريس، رئيس دولة إسرائيل حالياً، كما جاء في كتابه: **الشرق الأوسط الجديد** الصادر سنة ١٩٩٢، فإن الولايات المتحدة الأمريكية لا تأبه بهذه المعارضة من خلال ممارساتها العملية، ووجود جماعة المحافظين الجدد في البيت الأبيض، وفي وزارتي الخارجية والبنتاغون.

ومن مظاهر العداء الأوروبي الغربي المتمادية للإسلام، قيام بعض الصحف النروجية والدانماركية والفرنسية مثل صحيفة France - Soir في أواخر كانون الثاني ٢٠٠٦، بنشر رسوم كاريكاتورية كرتونية، تظهر النبي محمداًﷺ وهو يعتمر عمة على شكل قنبلة. وقد زاد انتشار هذه الرسوم الكاريكاتورية في الصحف والمجلات الأوروبية وعلى مواقع شبكات الانترنت العالمية، رداً على الاحتجاجات الرسمية والدينية والشعبية في العالمين العربي والإسلامي. والجدير بالذكر، أن الصحيفة الدانماركية **يولاندز بوسطن** أجرت في سنة ٢٠٠٦م مسابقة بين قرائها لاختيار أكثر الرسوم إساءة إلى الرسول.

وقد شهدنا في شهر أيلول/ سبتمبر ٢٠١٢م فيضاً من الإساءات الغربية الأمريكية ـ الأوروبية للمقدسات الاسلامية، تمثلت بنشر رسوم كاريكاتورية للنبي محمدﷺ في مجلة فرنسية، وإنتاج فيلم سينمائي أمريكي يحمل إسم براءة الإسلام ونشره على مواقع شبكات الانترنت العالمية، مقزز للنفس والعين. وقد كانت هذه الاساءات امتداداً لحرق نسخ من القرآن الكريم، مرتين ـ قبل ذلك ـ من قبل قس أمريكي في بهو كنيسة أمريكية... الخ.

(٢)

ونحن لا نغالي إذا ما قلنا إن الايديولوجيا التي ما زالت متحكمة بسياسة الولايات المتحدة تجاه العرب والمسلمين هي أيديولوجية صراع

الأديان والحضارات التي ظهرت بقوة بعد انهيار وتفكك الإتحاد السوفياتي في أواخر القرن الماضي. ومن المنظرين لهذه الايديولوجيا، يمكن أن نذكر: فرنسيس فوكوياما، الياباني الأصل، الأمريكي الجنسية والدين. ففي كتابه: **نهاية التاريخ والإنسان الأخير**، يرى فوكوياما أن النظام الرأسمالي الليبرالي الديمقراطي انتصر على الأنظمة الماركسية والاشتراكية، ووصلت البشرية إلى أرقى المراحل في التطور التاريخي الايديولوجي أو الفكري، ولم يبق أي خصم فعلي لهذا التطور سوى العالم الإسلامي الذي يمكن أن يهدد الغرب اقتصادياً أو عن طريق الإرهاب، ولا سيما إذا امتلك السلاح النووي. كذلك، يمكن أن نذكر الكاتب الأمريكي صموئيل هنتنغتون. ففي كتابه: **صدام الحضارات** الصادر سنة ١٩٩٣، يرى هنتنغتون أن التاريخ الإنساني هو تاريخ الحضارات والصراع فيما بينها. ولكل حضارة آراء خاصة عن العلاقة بين الإنسان والله، والإنسان والدولة، والفرد والجماعة، والحرية والمساواة والسلطة. وكل شعب يفاخر بحضارته ويرى أنها الأحسن والأفضل للبشرية كلها. والصراع اليوم أو في المستقبل سيكون بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرى، وأولها: الحضارة الإسلامية. فكل من أندونيسيا وباكستان وتركيا وإيران والمملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية يمكن أن تصبح دولة المركز للحضارة الإسلامية، ودولة المواجهة مع الولايات المتحدة التي تجسد دولة المركز للحضارة الغربية وعليها التصدي بقوة لهذا الخطر الزاحف من الشرق. وبرأيه، أن العلاقة بين الشرق والغرب منذ ألف وثلاثمائة سنة، وحتى اليوم، هي علاقة صراع وحرب بين الحضارة الغربية اليهودية المسيحية والحضارة الإسلامية. وهما على طرفي نقيض في دينهما وثقافتهما، مما يحتم

المواجهة والصراع بينهما. وفي كتاب آخر لهنتنغتون صدر سنة ٢٠٠٤م، تناول فيه ما أسماه **الهوية الأمريكية**، دعا هنتنغتون إلى الحفاظ على أسس الهوية الأمريكية الوطنية، وهي: العرق الأبيض، والعقيدة المسيحية البروتستانتية، والثقافة الانكليزية البروتستانتية، والاثنية الانكليزية.

ولذا، فليس مستهجناً ولا مستغرباً أن نرى إسمي فوكوياما وهنتنغتون يتصدران أسماء قائمة الستين أكاديمياً الموقعين على الخطاب الذي توجهوا به إلى الشعب الأمريكي وبرروا فيه «الحرب العادلة» التي شنتها الولايات المتحدة على الإرهاب بعد الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١م واحتلالها كلاً من أفغانستان والعراق.

ولعل من نافلة القول، أن نؤكد أن العقل الفكري والسياسي والديني الموجه والمرشد لكل من فوكوياما وهنتنغتون وغيرهما من أساتذة الدراسات الشرق أوسطية في الجامعات الأمريكية، حالياً، والمعادين لكل ما هو عربي وإسلامي، والمناصرين بقوة لكل ما يتعلق بإسرائيل دينياً وأمنياً وسياسياً واقتصادياً، يعود إلى المستشرق الصهيوني المعاصر، برنارد لويس (١٩١٦ ـ) الإنكليزي المولد والنشأة والتعلم، والأمريكي الجنسية منذ الستينيات من القرن الماضي. ففي كتابه: **الشرق الأوسط والغرب** الصادر سنة ١٩٦٦، يرى لويس أن فهمنا سيكون أفضل للوضع بين الإسلام والغرب إذا نظرنا إلى أن الصراع بينهما صراع بين حضارات وليس صراعاً بين دول أو قوميات. وهو يوضح موقفه من الإسلام والمسلمين، وغاياته الاستعمارية الصهيونية الخبيثة، بقوله: «إن إلحاق المنطقة [العربية] بالغرب لم يكن ممكناً إلّا من طريق تفكيكها وتجزئتها. ولو أعطيت لأي سياسي في العالم، مسألة يسألونه فيها أن يسعى إلى إلحاق المنطقة العربية بالغرب، لما اختار غير الأسلوب الذي اختاره

الغرب فعلاً، وهو تفكيك المنطقة بالفتن الطائفية، والتفتيت الاجتماعي والثقافي، وافتعال الخصومات والفروقات، وتوسيع مواطن الاختلاف والمبالغة في إبرازه. وليس من شك في أن من يسعى إلى هذا يحزنه مشهد السلام بين الطوائف ويسعده اندلاع التقاتل بينها. ولعل من يستبعد دور الغرب في إشعال فتيل هذا التقاتل، هو واحد من اثنين: خادع أو مخدوع»[(١)].

وعندما دعا الكونغرس الأمريكي في ٢ أيار ١٩٩٠ برنارد لويس لإلقاء محاضرة عن **موقف المسلمين من الحضارة الغربية**، جاء في محاضرته أن المسلمين يكرهون الغرب ويرفضون حضارته وقيمه لأن دينهم لا يقبل التعايش مع الأديان والحضارات الأخرى. وفي مقالته: **يجب أن نكون واضحين**، التي نشرها في جريدة الواشنطن بوست في ١٦ أيلول ٢٠٠١م، دعا فيها بصراحة الإدارة الأمريكية إلى غزو العراق والإطاحة بنظام صدام حسين وبغيره من الأنظمة المعادية لأمريكا. وفي كتابه **أين الخلل**؟ الذي صدر بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١، وكذلك في كتابه **أزمة الإسلام** الذي صدر سنة ٢٠٠٣م، يرى لويس صراحة أن الصراع الإسلامي المسيحي هو صراع عقائدي وحضاري حقيقي بدأ منذ أربعة عشر قرناً وما زال قائماً. فمؤسس الإسلام جعل من نفسه قسطنطين. وبدأ الصراع بين الإسلام والمسيحية في عهده استناداً إلى الآيتين ٢٩ و٣٠ من سورة التوبة اللتين تفرضان على المسلمين مقاتلة النصارى واليهود حتى يقبلوا بالإسلام ديناً لهم أو يرضوا بدفع الجزية وهم صاغرون. وهو يرى أن

---

(١) The Middle East and the West طبعة هاربر تورنتشبوك، ١٩٦٦، ص٤٤، (نقلاً عن فكتور سحاب، من يحمي المسيحيين العرب، بيروت، دار الوحدة، ١٩٨١، ص٥٦).

الفقهاء المسلمين نظروا باكرا لدار الإسلام ودار الحرب لتشريع وتسويغ الحرب على كل من هو غير مسلم؛ وأن الحرب لا يمكن أن تنتهي بين المسلمين وغيرهم إلّا بالدخول في الإسلام، أو بالخضوع له ودفع الجزية. كما يرى أن سبب كراهية العرب والمسلمين الشديدة ـ اليوم ـ للحضارة الغربية والثقافة الغربية الممثلة بأمريكا وحقدهم عليها، هو قوة أمريكا وغناها وحضارتها. فبعدما كانوا هم سادة العالم والأغنى والأقوى والأعظم حضارة لقرون طويلة على وجه الأرض، أصبحوا مهزومين مقهورين، يشعرون بالذل والمهانة إزاء تفوق وسيطرة أمريكا وسائر العالم المسيحي الحر عليهم. وهم يخافونها على هويتهم واستمرار وجودهم انطلاقاً من عدائهم العقائدي الفكري والثقافي ـ الذي يمثله أصدق تمثيل، أسامة بن لادن ـ لمكونات الثقافة والحضارة الغربية ذات الأسس اليهودية ـ المسيحية، وبالتالي، يستحيل الدخول معهم في حوار، والوصول معهم إلى اتفاق. وهم لن يخرجوا من ظلمات العصور الوسطى إلّا إذا اقتدوا بالمثال التركي الأتاتوركي، وأقدموا على فصل الدين عن الدولة في حياتهم، وعلمنوا دولهم في جميع المجالات، وتخلوا عن مبدأ العداء للغرب المتأصل في عقيدتهم وثقافتهم، وتبنوا قيم الحداثة، واحترام حقوق الإنسان، ذكراً وأنثى، واحترام القانون... الخ.

والجدير بالذكر، أن لويس هذا، هو نفسه، الذي يقول في كتابه **الشرق الأوسط والغرب**: «نجح الإسلام التقليدي ولم تنجح المسيحية في الحقيقة يوماً في جمع التسامح الديني مع الإيمان الديني العميق. فلم يشمل الإسلام بتسامحه غير المؤمنين فقط، بل الهراطقة أيضاً... وفي الصعيد الاجتماعي كان الإسلام ديمقراطياً على الدوام أو كان بالأحرى

يقول بالمساواة، فيرفض المجموعات المنغلقة كما في الهند، ويرفض الامتيازات الأرستقراطية كما في أوروبا»[١].

والذي لا شك فيه، أن هذا الخطاب الأمريكي الغربي الذي يتهم الإسلام والمسلمين بالتعصب والعنف والجلافة والجهالة وكراهية الآخر ومعاداته، هو خطاب عنفي تحريضي ضد العرب والإسلام والمسلمين. وهو يتوخى إثارة الرأي العام الغربي ضد العرب والمسلمين بغاية شن الحروب عليهم لإخضاعهم عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً. وهذا الخطاب الذي لا تخفى غاياته الاستعمارية الخبيثة على كل ذي عقل سليم، يذكرنا للأسف بأحقاد وغايات الاستعماريين الأوروبيين الغربيين في القرن الماضي. فعندما استطاع القائد العسكري البريطاني، اللنبي، انتزاع مدينة القدس من الأتراك سنة ١٩١٨، استهل دخوله القدس بقوله الشهير: «الآن، انتهت الحروب الصليبية». وعندما دخل القائد الفرنسي الجنرال غورو، دمشق، عنوة سنة ١٩٢٠، توجه مباشرة إلى قبر صلاح الدين الأيوبي بجانب المسجد الأموي بدمشق، ليدوس القبر بقدميه، قائلاً بكل حقد وصلافة: «ها قد عدنا يا صلاح الدين». وفي كتابه: **أعمدة الحكمة السبعة**، الصادر سنة ١٩٢٦، يقول لورنس الإنكليزي (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥) المشهور باسم، لورنس العرب: «كان هدفي أن أصنع أمة جديدة. وأن أوهم عشرين مليوناً من الساميين (العرب) بأني أعطيهم مرتكزات يبنون عليها قصوراً وهمية من أفكارهم الوطنية. إن كل مقاطعات الأمبراطورية العثمانية لا تساوي عندي موت إنكليزي واحد...»[٢].

(١) المرجع نفسه، ص٥٧ [نقلاً عن كتاب فكتور سحاب، ص٦٤].

(٢) (عن) روجيه غارودي، الإسلام دين المستقبل، ترجمة عبد المجيد بارودي، بيروت، دار الإيمان للطباعة والنشر، ١٩٨٣، ص١٧٨.

ويمكن القول: إن الخطاب الفكري والسياسي الغربي المعاصر هو ثمرة طبيعية لتاريخ الغرب الديني والسياسي والثقافي الاستعماري مع الإسلام والعرب والمسلمين منذ الحروب الصليبية في القرون الوسطى، ومروراً بفلسفات القرون الوسطى، وعصر التنوير، والمستشرقين، والحروب الاستعمارية الغربية طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر التي شنتها الدول الأوروبية الغربية: فرنسا وبريطانيا وهولندا وإسبانيا وبلجيكا والبرتغال ضد شعوب آسيا وأفريقيا، ومن بينها العالم العربي كله: بشرقه وغربه، سعياً وراء المواد الأولية والثروات المعدنية والأسواق التجارية، وتجارة الرقيق واستعباد البشر. وقد وصف مطران باريس احتلال الفرنسيين للجزائر سنة ١٨٣٠ بأنّه «انتصار المسيحية على الإسلام»[١].

وقد بدأت الدعوة إلى الحرب الصليبية على العالم العربي، وتكوين جيش المسيح الرب، لتخليص الأراضي المقدسة في فلسطين وتحرير القدس وتطهيرها من مدنسيها المسلمين الكفار الوثنيين المتوحشين، في الخطاب المثير للعواطف الدينية، الذي ألقاه البابا أوربان الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩) في ٢٦ تشرين الثاني ١٠٩٥ في حشود الناس الذين اجتمعوا من مختلف أنحاء أوروبا، بمدينة كليرمون جنوب فرنسا. وقد اعتبر كل من يشارك في هذه الحرب المقدسة، حجاجاً عسكريين، ومنحهم الغفران عن جميع خطاياهم، ووعدهم بأن يجنوا من الحرب التي سيخوضونها كثيراً من الخيرات المادية من الأراضي

---

(١) M.Arkoun, La Pensée arabe, Paris, 1975, p99.

التي تفيض لبناً وعسلاً كما جاء في التوراة. وقد تمكنت هذه الحملة الصليبية الأولى التي قدّر عددها بمئات الألوف، وخاط معظم أفرادها صلباناً من القماش على ستراتهم، من احتلال مدينة القدس في ١٥ تموز ١٠٩٩ بعد مذبحة رهيبة تم فيها قتل سبعين ألفاً قبل استباحتها للسلب والنهب. ويذكر الراهب فوشيه دي شارتر ـ الذي رافق الحملة ـ في كتابه The Crusades، أن الصليبيين قد أحرقوا جثث المسلمين على أمل أن يجدوا في رمادها الذهب الذي ظنوا أنهم خبأوه في أجسادهم. وكان من أثر الحملات الصليبية على بلادنا العربية: فلسطين ولبنان وسوريا ومصر، والتي ناهز عددها التسع حملات على مدى أكثر من قرنين من الزمن، تخريب الكثير من المدن العربية العامرة، مثل: حمص وحماه وبعلبك وقنسرين وعسقلان والرملة وطبرية... وتوقف نمو الحضارة العربية وجمودها، وركود الثقافة بمعناها الواسع، وتقهقر الزراعة، وتدهور الصناعة، وتخلف المنطقة العربية كلها.

وفي الوقت الذي كان فيه الأوروبيون يعملون حثيثاً من أجل إرسال الحملات الصليبية على فلسطين وسائر بلادنا العربية، فقد كانوا يشنون حرباً صليبية على الوجود العربي في بلاد الأندلس، حيث اعتبر كل من البابوات: سلفستر الثاني، وجون الثامن، والاسكندر الثاني، وغريغوري السابع، وأوربان الثاني، أن ضحايا المحاربين في الأندلس لتحريرها من المسلمين، هم شهداء سوف تغفر ذنوبهم، كالمحاربين الحجاج الذاهبين لتحرير بيت المقدس. وقد أعلن البابا يوحنا الثالث والعشرون في سنة ١٣٢٦ أنّه يمنح الغفران لكل من يشارك في الحملة الصليبية ضد المسلمين في الأندلس. وظلت الكنيسة تعمل من أجل طرد المسلمين من الأندلس إلى أن تحقق هدفها بسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في

سنة ١٤٩٢، حيث تعرض المسلمون للفتك بهم، وإكراههم على اعتناق المسيحية، أو الجلاء عن بلاد الأندلس[١].

وهكذا نرى أن الثقافة التي كانت سائدة في العصور الوسطى وحركت الحروب الصليبية على بلادنا العربية وعلى الوجود العربي في بلاد الأندلس، كانت ايديولوجية التعصب الديني والعرقي والكره السياسي. وساد عند الأوروبيين أن الإسلام عقيدة معادية للمسيحية، ويجب التصدي له دينياً وفكرياً وعسكرياً. وتشكلت في أذهانهم صورة خيالية خرافية عن الإسلام ونبيه. فالنبي محمد ﷺ ساحر كبير، ودجال أفاق، تمكن من طريق السحر والعنف والقوة، وإباحة الفسق والفجور والدعارة وجميع الملذات الحسية لاتباعه، من القضاء على الكنيسة في الشرق العربي وأفريقيا. وهو رسول الشيطان الذي زوده بالقرآن للوقوف بوجه انتشار المسيحية في الشرق. والقرآن كناية عن كتاب تلفيقي من التوراة والإنجيل. وقد اعتبر رئيس أديرة كلوني الفرنسية، بطرس المبجل (١٠٥٩ ـ ١١٥٦) المسلمين، هراطقة مجدفين. كما اعتبرهم القديس توما الأكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) تلميذ القديس ألبير الكبير، وثنيين. ففي كتابه، الرد على الخوارج: **خلاصة الرد على الأمم الخارجة عن المسيحية**، رأى الأكويني[٢] أن الانتشار المسيحي في العالم قد حصل

---

(١) محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، ج٤، ط٣، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٣، ص٢٥٧.

(٢) بعد وفاته سنة ١٢٧٤، أعلن قديساً في ١٨ تموز ١٣٢٣. وفي سنة ١٥٦٧ أعلن إماماً للكنيسة. وقد أثنى عليه البابا لاون الثالث عشر في رسالة: الأب الأزلي، ورسم تعليم العقائد الدينية المسيحية والحقائق الفلسفية على طريقته كما جاءت في كتابه: **الخلاصة الاهوتية** حيث يدافع فيه عن الإيمان المسيحي بوجه أضاليل الأمم من العرب المسلمين واليهود وأصحاب البدع... الخ. وفي ٤ آب ١٨٨٠ أعلنته الكنيسة شفيعاً للمدارس الكاثوليكية.

بطريقة سلمية، أما الانتشار الإسلامي فقد حصل بقوة السيف. وأن أول من آمن بدعوة محمد هم الجهلة وبدو الصحراء الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن العقائد الأخرى. وبهؤلاء الجهلة والبدو أرغم محمد بقوة السيف بقية الناس في الصحراء العربية وجوارها على اعتناق عقيدته. كما أغوى كثيراً من الشعوب للدخول في عقيدته من طريق إباحته كل ما تشتهيه من الملذات الحسية والشهوات الجنسية. وفي القرن الثالث عشر، ألف أكبر أدباء وشعراء ايطاليا **دانتي أليغياري** (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) ملحمة شعرية خيالية، سماها **الكوميديا الإلهية**، وصف فيها طبقات الجحيم والمطهر والفردوس، واعتبر النبي محمداً ﷺ هرطوقياً، وأطلق عليه عبارة **زارع الافتراء والانشقاق**، ووضعه وابن عمه علي بن أبي طالب في المرتبة التاسعة من الحلقة الثامنة من الجحيم التي تضم مثيري الفتن والصدامات والانقسامات الدينية، ومروجي الشهوات الجنسية المقرفة. وقد أوغل في وصف العقاب المثير للاشمئزاز الذي ناله كل من النبي ﷺ وابن عمه علي...

(٤)

وهذه الثقافة الدينية العنصرية والسياسية المعادية للإسلام والعرب والمسلمين هي التي كانت وراء نشأة الاستشراق وفي تأثر الفكر الغربي الوسيط والحديث بها. لقد ولد الاستشراق من رحم الحروب الصليبية، وظهرت مدارسه منذ بداية القرن السادس عشر، وسطع نجمه بشكل كبير ولافت مع حروب الغزو الأوروبية الغربية الاستعمارية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لمساعدة وتمكين الدول الاستعمارية من حكم البلاد الإسلامية والعربية المستعمرة. وكان معظم المستشرقين وأكابرهم من

موظفي وزارة المستعمرات الفرنسية والبريطانية، أو يعملون مستشارين فيها أو من الضباط. فقد أدرك المستعمرون الغزاة أن التفوق العسكري والعلمي والاقتصادي لا يكفي لإدارة البلاد المستعمرة، بل يجب رفده بالاستعمار الفكري والثقافي الذي يجعل شعوب البلاد المستعمرة ترضى بمحض إرادتها بوجود المستعمرين، وتقبل عن طيب خاطر بأسلوب حياتهم وثقافتهم وأخلاقهم وعاداتهم، مما يؤدي في نهاية المطاف إلى استلاب عقول أبناء البلاد المستعمرة والتغاضي عن دينهم، والنفور من تاريخهم، وتناسي حضارتهم، والتخلي عن ثقافتهم. وكان للاستشراق أبلغ الأثر في تشويه صورة الإسلام والعرب والمسلمين، في أذهان أبناء المجتمعات الأوروبية الغربية من أجل استمرار التأييد الشعبي للحروب الغربية الاستعمارية. فالإسلام بنظر معظم المستشرقين نموذج للتعصب الديني والغدر والعنف وسفك الدماء، ونموذج للتخلف العلمي والفكري والحضاري الذي يشكل بعقيدته المطلقة بالقضاء والقدر، ثقافة جامدة لا تقبل التطور الاجتماعي ولا الحرية الدينية والفكرية والسياسية. وقد أرجعوا الإسلام في عقائده وشعائره إلى أصول يهودية ومسيحية وفارسية وأفلاطونية محدثة، كما ردوا كل منجزات الحضارة الإسلامية في العلوم البحتة والفلسفة وعلم الكلام والتصوف وأصول الفقه والمنطق... الخ، إلى اليونانيين وغيرهم، لأن الإسلام بنظرهم لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر. والعرب والمسلمون لا يصلحون بطبيعتهم وتكوينهم العقلي والديني للنظر في علوم ما وراء الطبيعة. وباختصار، فقد ردوامجمل التراث العربي الإسلامي والحضارة الإسلامية إلى اليهودية والمسيحية، والفلسفة اليونانية، والفارسية، والهندية... الخ.

فالقرآن نسخة معدلة من اليهودية والمسيحية. والمعتزلة المعطلة للصفات أخذوا فكرة نفي الصفات من المسيحية. والمسلمون الشيعة أخذوا فكرة تقديس الإمام من المسيحية. والمتصوفة استفادوا الزهد والتصوف وارتداء الصوف من رهبان الأديرة المسيحية التي كانت منتشرة في مختلف أنحاء الجزيرة العربية. وقد رأى المستشرق لويس ماسينيون (١٨٨٣ ـ ١٩٦٢) أن الحلاج كان مسيحياً بالشوق والهوى، مسيحي الابتلاء، وبذل الذات كالمسيح. وقد قتل صلباً مثله لأنه نادى بأنه الله، وبأنه الحق الخالق. كما رأى المستشرق هنري كوربان (١٩٠٣ ـ ١٩٧٨) أن ثمة شبهاً بين تصوف السهروردي المقتول وبين الزرادشتية. وقد أرجع ديلاسي أوليري مؤلف كتاب **الفكر العربي ومكانه في التاريخ**، عقيدة الإسلام والفقه الإسلامي وفلسفة المسلمين وعلومهم وتصوفهم إلى المسيحية والفلسفة اليونانية والقانون الروماني. ورأى مونتغمري واط (١٩٠٩ ـ) مؤلف كتاب **الفكر السياسي الإسلامي ـ المفاهيم الأساسية**، أن الدولة الإسلامية منذ نشأتها وحتى بداية العهد العباسي كانت ترتكز على المفاهيم السابقة للإسلام، وأنها في جوهرها كانت اتحاداً من القبائل، وأن التفكير السياسي الإسلامي يخلو تماماً من ذكر فعلي لمفهوم الحرية وسائر الحقوق الإنسانية. وزعم أرندجان فنسك (١٨٨٢ ـ ١٩٣٩) وإجنتس غولدتسيهر (١٨٥٠ ـ ١٩٢١) أن النبي محمداً ﷺ استقى القرآن والشعائر الدينية التي أتى بها، ومنها: شعيرة الصلاة، وشعيرة الصيام، من اليهودية والنصرانية والجاهلية. وأن النبي محمداً اعتمد في بداية دعوته على اليهود في مكة، وعندما انقلبوا عليه، هداه ذكاؤه إلى أبي العرب: إبراهيم، فقطع صلته بيهود عصره ووصلها بيهودية إبراهيم.

وفي القرن السادس عشر، ومع محاصرة الجيوش العثمانية لمدينة فيينا سنة ١٥٢٩ أصبح الأوروبيون أكثر عدائية للإسلام. فوصفوه بأنه دين العنف الذي يخدم المسيح الدجال، وتجب مجابهته بقوة السيف. وبقيت التصورات الذهنية المشوهة عن الإسلام قائمة في أذهان الأوروبيين طيلة القرن السادس عشر.

وفي عصر الأنوار: القرنين السابع عشر والثامن عشر، استمرت هذه الصورة المشوهة عن الإسلام في عقول المفكرين الغربيين. فالمفكر الفرنسي المعروف، فولتير Voltaire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) رأى في كتابه **التعصب أو النبي ماهومت** أن النبي محمداً هو النموذج المثالي للتعصب الديني والطغيان التيوقراطي الذي استغل مشاعر الناس البسطاء لبلوغ غاياته الشريرة. ومن رسالة له إلى أحد أصدقائه: «محمد متعصب عنيف، محتال، وهو عار على الجنس البشري. كان تاجراً قبل أن يجعل من نفسه نبياً، مشرعاً، وملكاً. وهو يجسد خطر التعصب»[1]. والفيلسوف الهولندي سبينوزا Spinoza (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) رأى في كتابه **رسالة في اللاهوت والسياسة**، أن القرآن كناية عن مجرد أشعار تصلح للقراءة فقط، ولا فائدة منها في الحياة العملية، وأن الأتراك يمثلون صورة الإسلام التي تعبر عن الطغيان الفكري والسياسي والتعصب الجاهل والأوهام والخرافة[2]. والفيلسوف الألماني لايبنز Leibnitz (١٦٤٦ ـ ١٧١٦)

(١) إليكسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية، ترجمة خلف محمد الجراد (عالم المعرفة، عدد ٢١٥، تشرين الثاني، ١٩٩٦) ص١٠٠.

(٢) سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم حسن حنفي، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨١، ص٧.

ارتأى لحل المشكلات الدينية والاجتماعية في أوروبا أن تنقل الحرب التي كانت مستشرية بين الدول الأوروبية في القرنين السابع والثامن عشر إلى خارج أوروبا، ضد البرابرة من غير المسيحيين والسيطرة على بلادهم. «فالسويد وبولونيا تغزوان سيبيريا وروسيا الجنوبية. وإنكلترا والدانمارك تختاران أميركا الشمالية. ويكون لاسبانيا أميركا الجنوبية. ولهولندا بلاد الهند الشرقية. وترى فرنسا أفريقيا في مواجهتها، فلتغتصبها، ولتتوغل حتى مصر... هكذا تستغل كل تلك الجنود، كل تلك البنادق، كل تلك المدافع، ضد البرابرة، وضد غير المؤمنين»[١]. وقد قدم لايبنز رؤيته الاستعمارية هذه، وكان في السادسة والعشرين من عمره، إلى الملك الفرنسي لويس الرابع عشر في سنة ١٦٧٠، ظناً منه بأنها تنقل الحروب الأوروبية الدينية الداخلية إلى خارج أوروبا، وتحقق الثروة والسيطرة لأوروبا على العالم. ويعتقد بأن نابليون بونابرت عمل بخطة لايبنز في غزوه لمصر سنة ١٧٩٨.

وقد رأى كل من مونتسكيو (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) وديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) الفرنسيين، أن الإسلام فكر رجعي، معاد للتقدم والتطور الإجتماعي[٢]. كما قال شاتوبريان (١٧٦٨ ـ ١٨٤٨) في كتابه **الرحلة إلى أورشليم** الصادر سنة ١٨١١: «ليس المهم فقط تحرير هذا القبر المقدس، وإنما معرفة من الذي سيسيطر على هذه الأرض (القدس)؟ أهي تلك الديانة المعادية لكل أشكال الحضارة والمشجعة من حيث المبدأ على الجهل والاستبداد والاستعباد، أم تلك الديانة التي عرفت كيف تحيي عند

(١) بول هازار، أزمة الضمير الأوروبي، ترجمة جودت عثمان ومحمد المستكاوي، بيروت، دار الشروق، ١٩٨٧، ص٤٣٩.

(٢) Albert Hourani, Europe and the Middle East, London, 1980, P13.

المعاصرين احترام العصور القديمة الحكيمة والتي ألغت الرق...؟ فالحرية (عند أهل تلك الديانة المعادية لكل أشكال الحضارة) يجهلونها، والملكية ليست لهم فيها شيء، والقوة هي ربهم»[1]. كذلك نلفت النظر إلى ما قاله فيكتور هيغو Victor Hugo (١٨٠٤ ـ ١٨٨٥) زعيم الحركة الأدبية الرومنطيقية الفرنسية في القرن التاسع عشر: «الحمد لله الذي جعل لنا أفريقيا لقمة لنا».

وقد جاء في كتاب **التبشير والاستعمار في البلاد العربية** نقلاً عن كتاب **البحث عن الدين الحقيقي** Recherche de la vraie religion لمؤلفه المنسينيور كولي، الذي نال رضا البابا ليون الثالث عشر في عام ١٨٨٧، وصدر عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحي في باريس «الإسلام ـ في القرن السابع للميلاد ـ: برز عدو جديد، ذلك هو الإسلام الذي أسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب. لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات، وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وأفريقيا وإسبانيا فريسة له، حتى أن إيطاليا هددها الخطر، وتناول الاجتياح نصف فرنسا. لقد أصيبت المدنية. ولكن هياج هؤلاء الأشياع (المسلمين) تناول في الأكثر كلاب النصارى، ولكن أنظر ها هي النصرانية تضع بسيف شارل مارتل سداً في وجه سير الإسلام المنتصر عند بواتيه (٧٥٢)، ثم تعمل الحروب الصليبية في مدى قرنين تقريباً (١٠٩٩ ـ ١٢٥٤) في سبيل الدين، فتدجج أوروبا بالسلاح وتنجي النصرانية. وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية

(١) روجيه غارودي، الإسلام دين المستقبل، مرجع سابق، ص١٧٧.

الصيب. وانتصر الإنجيل على القرآن وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق السهلة»[1].

(٦)

ومع نهاية القرن التاسع عشر كان ثمة تصور واضح عند الأوروبيين الغربيين عن الإسلام. فهو كما جاء في كتاب **الإسلام في القرن العشرين** لمؤلفه أ. شاتليه: «دين بربري معاد لكل تقدم وتطور، يقوم على التعصب والعنف والقوة، ويعادي الغرب وقيمه وحضارته ورسالته التمدينية للعالم كله، ويهدد مصالحه الحيوية الجماعية والفردية». وسادت نزعة التفوق الغربي العرقي العلمي والفلسفي والثقافي والحضاري، والتعارض المطلق بين عقلية الشرق الاستبدادي المتخلف التي لا تعرف التحليل والتركيب والعاجزة عن التفلسف والتنظير، وبين عقلية الغرب العلمية الحرة الديمقراطية المبدعة القادرة على التفلسف والتركيب. ومن أصحاب نزعة الصراع الأزلي بين الشرق والغرب، والتمييز العنصري الثقافي، والادعاء بتفوق الجنس الآري على الجنس السامي في مجال العلوم والفنون والآداب والفلسفة، وأن الجنس الآري وحده هو القادر على قيادة العالم نحو الحرية الدينية والفكرية والسياسية والعدالة والمساواة، يمكن أن نذكر:

١ ـ إرنست رينان الفرنسي (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) الذي أنكر على المسلمين فلسفتهم زاعماً أن الفلسفة العربية الإسلامية هي فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية، وأن الجنس الآري يمتاز بالخلق والإبداع مقارنة بالجنس السامي الذي تنعدم فيه ملكة الخلق والإبداع[2].

---

(١) عمر فروخ ومصطفى الخالدي، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠٠٨، ص٧٢ ـ ٧٣.

(٢) Ernest Renan, Histoire générale et système comparé des langues sémitiques, Paris, T 1, P 4 - 5.

٢ ـ هرتويج هيرشفيلد الألماني (١٨٥٤ ـ ١٩٣٤) مؤلف كتاب **العناصر اليهودية في القرآن**.

٣ ـ رديارد كيبلنغ، الشاعر والأديب الإنكليزي (١٨٧٦ ـ ١٩٣٦) الذي نال جائزة نوبل سنة ١٩٠٧، وصاحب المقولة الشهيرة «الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا».

٤ ـ تيودور غومبرز الإنكليزي، مؤلف كتاب **مفكرو اليونان**... الخ.

وقد رأى البابا بيوس الثاني عشر في سنة ١٩٥٧ «ان انتشار ونشاط الإسلام في أفريقيا يشكل خطراً على الكنيسة». كما اتهم رأس الكنيسة الحالي البابا بنديكتوس السادس عشر ـ في محاضرة له في جامعة ريجنزبورج اللاهوتية بألمانيا عام ٢٠٠٦، بمناسبة أحداث ١١ أيلول في الولايات المتحدة ـ المسلمين، بالإرهاب وحب العنف ورفض الآخر، وادعى أن الإسلام قام على السيف ولا يحترم العقل، مستنداً إلى حوار دار بين الامبراطور البيزنطي مانويل الثاني وأحد المسلمين عام ١٣٩١، ومستنتجاً بأن مشيئة الله في خلقه وأفعاله، مطلقة عند المسلمين، لا تخضع للعقل ولا للمنطق. ولا شك في أن هذا الاستنتاج فرية كبيرة، لأن الإسلام يعتبر أن العقل هو أساس التكليف الشرعي في كل الفروض: صلاة، صيام، حج، الخ... ولا تقبل عبادة فيه إلّا من عاقل، ولا تكليف في الدنيا ولا حساب في الآخرة على أفعال وتصرفات كل فاقد لعقله.

واللافت للنظر، أن الغربيين يتجاهلون أو يتناسون أن فلسفة ابن رشد العقلية ظلت منذ أواخر القرن الثاني عشر وإلى أواخر القرن السادس عشر ـ أربعة قرون كاملة ـ المذهب الفكري السائد في جامعة باريس ـ السوربون ـ وغيرها من مؤسسات التعليم العليا في أوروبا حتى

ولادة العلم التجريبي الحديث. ونحن نتساءل في حيرة ودهشة واستغراب في ظل فلسفة العولمة الغربية الحالية التي تنادي بضرورة قيام الحوار بين الثقافات والأديان، وتدعو إلى الديمقراطية والتسامح والعدالة والسلام، عن حقيقة الثقافة السياسية الحالية للولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية الكبرى التي تجعلها تقف بقوة وشراسة ضد تقرير غولدستون القضائي في مجلس الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، المنعقد في جنيف نهار ١٦ ـ ١٠ ـ ٢٠٠٩، الذي أدان إسرائيل لارتكابها جرائم حرب ضد الفلسطينيين في غزة؟ كما نتساءل عن سياستها الاستعمارية العنصرية منذ اغتصاب فلسطين من شعبها وقيام دولة إسرائيل، وحتى الآن؟ وهل ثمة عاقل يصدق بأن الولايات المتحدة ومعها الدول الغربية الكبرى عاجزة عن إلزام إسرائيل بقبول مبادرة السلام العربية التي قدمها العرب في قمة بيروت ٢٠٠٢ لحل المشكلة الفلسطينية؟

ولدحض الاتهامات الباطلة للإسلام والعرب والمسلمين من قبل أصحاب الخطاب الثقافي التاريخي الغربي، سنعرض لصورة الذات والآخر في الإسلام، إزاء هذه الافتراءات، ولاسيما اتهام الإسلام بالتعصب الديني، وعدم احترام حقوق الإنسان، وبأنه قام على العنف وانتشر بالسيف.

ثانياً: الذات والآخر في الإسلام

١ ـــ صورة الإنسان عامة (الذات والآخر) في الإسلام

ينص القرآن الكريم على أن الناس كلهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وأديانهم وبلادهم، ذوو منشأ واحد، وأصل واحد. وهم كلهم عيال الله وإخوة في الخلق. فقد خلقهم الله تعالى جميعاً من

نفس واحدة هي نفس آدم التي خلق منها نفس حواء، وخلق منهما خلقاً كثيراً، ذكراً وأنثى... الخ. ولذا، فهو يقرر وحدة الأصل البشري والوحدة الإنسانية، ولا يميز بين إنسان وآخر في الحقوق الإنسانية الأساسية الطبيعية: حرية الرأي، حرية المعتقد، حرية العبادة، حق العمل، حق التملك، حق التعلم، الحق بالعدل، والمساواة، والحياة الكريمة. فقد جاء في الآية ٩٨ من سورة الأنعام:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

وجاء في الآية الأولى من سورة النساء:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

وعن الرسول محمد ﷺ في حجة الوداع: «يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، وكلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر فضل إلّا بالتقوى».

وعنه أيضاً:

- «الخلق كلهم عيال الله، وأحب الخلق إلى الله، أنفعهم لعياله».

- «الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض، ولا لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى».

- «خير الناس أنفع الناس للناس».

- «الطريق إلى الحق على عدد أنفاس الخلق».

وقد أعلى القرآن الكريم من شأن الإنسان بصورة عامة بصرف النظر عن جنسه أو عرقه أو لونه أو دينه. فقد كرمه الله غاية التكريم عندما خلقه في أجمل صورة وأحسن تقويم: منتصب القامة، حراً، مريداً، قادراً، عاقلاً، سميعاً، بصيراً، متكلماً؛ ونفخ فيه من روحه، وفضله على كثير من خلقه، حتى على الملائكة؛ وجعله خليفة في الأرض لتعميرها وتنمية الحياة فيها والعيش في سلام من غير نزاع ولا شقاق ولا قتال؛ وحرّم قتله من دون وجه حق، واعتبر قتله عمداً بغير ذنب بمثابة قتل الناس جميعاً، وإنقاذه من الموت أو الكف عن قتله، بمثابة إحياء للناس جميعاً. فقد جاء في الآية ٤ من سورة التين:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

وجاء في الآية ٧٠ من سورة الإسراء، والآيات ٣٠ و٣٤ و١٨٦ من سورة البقرة، والآية ٣٢ من سورة المائدة:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ

﴿أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

وفي الحديث القدسي:

ـ «إن عبدي ليتقرب إليَّ بالنافلة حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش فيها، إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته».

ـ «يا ابن آدم، أنا أقول للشيء كن فيكون. أطعني في ما أمرتك، أجعلك تقول للشيء كن فيكون».

كذلك نص القرآن الكريم على أن الله سبحانه وتعالى شاء التنوع والتمايز والاختلاف بين الناس في الأجناس، والألوان، والألسن، والعقائد، والثقافات، والحضارات، والحق والباطل؛ وفي الوقت ذاته، دعاهم إلى التعارف فيما بينهم والتعاون من أجل خيرهم. وبذلك فالإسلام يقر مبدأ الأخوة الشاملة في الإنسانية والمساواة التامة بين البشر، ولا يرى ولاية لإنسان على آخر في اختياره العقلاني الحر، لأن أمر ذلك، يعود إلى الله تعالى في الآخرة. فقد جاء في الآية ٢٢ من سورة الروم، والآية ١١٨ من سورة هود، والآية ١٣ من سورة الحجرات:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

الإسلام رسالة الله تعالى الأخيرة إلى الناس كافة. جاء ليكمل إرادة الله في استكمال هداية الإنسان إلى السبيل السواء، وليس لنقض الشرائع الإلهية التي سبقته ولا نفيها، ولا لإرغام أهلها على ترك دينهم واعتناقه. فهو يؤمن بالله الواحد الخالق، وملائكته، وأنبيائه، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والثواب والعقاب؛ ويعترف بالديانتين السابقتين عليه: اليهودية والنصرانية، ويسلم بما جاء فيهما من معتقدات وأحكام ووصايا. فقد جاء في الآية ٢٨٥ من سورة البقرة، أن الرسول والمؤمنين به يؤمنون بالله وملائكته، ويصدقون رسله وما أنزل عليهم من كتب من دون أي تفريق بينهم.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وجاء في الآية ١٥٢ من سورة النساء:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

لقد نص القرآن الكريم على وحدة الأديان السماوية في جوهرها ومصدرها. وبين أن تغير الأشكال في الشرائع والمناهج بين رسول ورسول لا يعني اختلافاً فعلياً فيما بينها، لأن ثمة أركاناً مشتركة بينها جميعاً، هي:

١ ـ الإيمان بالله الواحد الأحد.

٢ ـ الإيمان بالثواب والعقاب في الآخرة.

٣ ـ القيام بالأعمال الصالحة في الدنيا التي ترضي الله وتنفع الناس.

فقد جاء في الآية ٤٨ من سورة المائدة أن الله تعالى جعل لكل رسول شرعة من الفرائض والسنن، ولو شاء الله لجمع الناس كلهم على شريعة واحدة، ولكنه ترك لهم حرية اختيار شرائعهم وأديانهم، والتسابق فيما بينهم على عمل الصالحات وفعل الطاعات.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وجاء في الآية ٦٢ من سورة البقرة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

والجدير بالذكر، أن الآيات ٤٤ و٤٦ و٤٧ من سورة المائدة تعتبر أن كل ما جاء في التوراة والإنجيل فيه هدى ونور للناس. وهي تدعو أهل التوراة والإنجيل لكي يحكموا بما أنزل الله في توراتهم وإنجيلهم.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وقد نصت الآية ٥ من سورة المائدة على أن طعام أهل الكتاب والزواج من الكتابيات، حلّ للمسلمين، كما أن طعام المسلمين حلّ لأهل الكتاب، مما يعني بداهة، تمتين أواصر المودة والرحمة والتعاون والسلام، وقيام علاقات المحبة والقربى من جرّاء المصاهرة بين المسلمين وأهل الكتاب في المجتمع الإسلامي.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وللسيد المسيح وأمه السيدة مريم، منزلة عالية ومقدسة في الإسلام. وقد خص القرآن الكريم السيدة مريم، بسورة تسمى باسمها، وهو تكريم لا مثيل له لأمرأة أخرى في الإسلام.

وفي هذا الصدد، يرى المفكر الفرنسي المعروف، روجيه غارودي، الذي اعتنق الإسلام، منذ أكثر من عقدين من الزمن، أن الإسلام يشكل جزءاً من المسيحية، والمسيحية تشكل جزءاً من الإسلام، وكلاهما صادران عن إله واحد مطلق[١].

---

(١) Roger Garoudy, Promesses de l'Islam, Seuil, Paris, 1981, P. 161.

الإسلام: عقيدة، وعبادة، وأخلاق، ونظام. عقيدة وعبادة، لم يفرضهما الإسلام على غير المسلمين. وأخلاق، تدعو إلى الإخاء، والمحبة، والرحمة، والعدل، والإحسان، والخير، والتسامح، والسلام... الخ وهي لا تختلف عما تدعو إليه الأديان السماوية والوضعية. ونظام هو أوسع من العقيدة والعبادة والأخلاق، لأنّه التنظيم السياسي المدني لشؤون الناس والحياة. وهذا النظام يمنح مواطنته لكل من يرتضي العيش في ظله من أصحاب العقائد والديانات السماوية، أو من أصحاب الملل والبدع المنحرفة عنها، أو البعيدين أصلاً عن كل دين. وهذا الأمر، يعود إلى أن الله تعالى هو وراء نشأة الخلق، والناس كلهم إخوة في أصل الخلق، وفي الإنسانية. وهو الذي أعطى الإنسان كامل الحرية في اختيار العقيدة التي يشاء، بعيداً عن كل إكراه. وهو الذي شاء التنوع بين الناس في المعتقد كما في اللسان والجنس، وليس لأحد غيره محاسبة الناس على معتقدهم. وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم، **المؤمنين**: جنباً إلى جنب مع اليهود، والنصارى، والصابئين [الصابئون قوم يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق، ويعبدون الملائكة تقرباً بعبادتها إلى الله، زاعمين أنها أقرب المخلوقات إليه]، والمجوس [قوم يرون أن العالم يحكمه إلهان: إله الخير وإله الشر، ويعتبرون زرادشت نبياً لهم. أو هم عبدة الشمس والنار]، والذين أشركوا [العرب الذين بقوا على عبادة الأصنام والأوثان]. فقد نصت الآية ٦٢ من سورة البقرة على أن المسلمين المؤمنين، واليهود، والنصارى، والصابئين، من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم في الآخرة ولا يحزنون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

كما نصت الآية ١٧ من سورة الحج على أن الله تعالى وحده هو الذي يحكم يوم القيامة بين المسلمين واليهود والصابئين والنصارى والمجوس والمشركين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وتاريخ السنّة النبوية يفيد أنها عاملت المجوس والصابئة بمثل ما عاملت أهل الكتاب في إعلانهم الحرابة على الإسلام والمسلمين.

٤ ـــ صورة العلاقة بين الذات والآخر: المسلم وغير المسلم

(١)

الإسلام رسالة الله إلى العالمين جميعاً، لأن الدين عند الله الإسلام. وقد أمر الله تعالى نبيه في الآية ١٢٥ من سورة النحل، والآية ٢٠ من سورة آل عمران، والآية ٢٩ من سورة الكهف، أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والكلام اللين الطيب الذي يقنع العقل ويريح القلب ويفرح النفس، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فإن أعرضوا، فليس عليه إلا البلاغ، والله بصير بالعباد.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ

وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

وقد نصت الآية ٢٥٦ من سورة البقرة على أنه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ...﴾. ويرى بعض المفسرين أن هذه الآية التي لم يطلها النسخ، هي آية مدنية، نزلت على النبي في شأن رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف، يسمى: الحصين، أسلم، ولم يسلم ولداه اللذان آثرا البقاء على النصرانية، فجاء النبي يسأله في أمر إكراهما على الإسلام. وحكى إبن تيمية في رسالة القتال أن العلماء قد أجمعوا على أن آية الإكراه «ليست منسوخة ولا مخصوصة، وإنما النص عام، فلا نكره أحداً على الدين، والقتال لمن حاربنا، فإن أسلم عصم ماله ودمه، وإذا لم يكن من أهل القتال لا نقتله، ولا يقدر أحد قط أن ينقل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكره أحداً على الإسلام... ولا فائدة في إسلام مثل هذا»[١].

كما نهى الله تعالى نبيه في الآية ٩٩ من سورة يونس أن يكره الناس على الإيمان، لأنه تعالى، لو شاء ذلك، لكان أهل الأرض جميعاً مؤمنين.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقد لفت الله نظر نبيه في الآية ١٠٣ من سورة يوسف إلى أن أكثر الناس لن يكونوا مؤمنين ولو جهد في سبيل أن يكونوا كذلك.

---

(١) رسالة القتال (لابن تيمية) ضمن مجموعة رسائل، مطبعة السنة المحمدية بمصر، ١٩٤٩، ص١٢٣ ـ ١٢٥.

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

كذلك، فإن الله تعالى، أمر نبيه والمؤمنين به في الآية ٤٦ من سورة العنكبوت، بألا يجادلوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى المسالمين إلّا بالحسنى، والكلام الطيب الذي يسلم بما أنزل إليهم من كتب، ويؤكد على الإيمان بالله الواحد الأحد.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

كما أن الله تعالى دعا نبيه في الآية ٦٤ من سورة آل عمران، إلى محاورة أهل الكتاب بأرفع آداب المحاورة، استناداً إلى الإيمان المطلق بوحدانية الله والتسليم له وحده بالعبودية، مما يعني أن الحوار العقلاني في الإسلام الذي يحاول فيه كل طرف تفهم عقيدة الآخر، أمر واجب. وهو مبدأ قرآني إنساني لا غنى عنه لقيام التعارف والتواصل والمودة والمحبة بين الناس، ولتلافي المشاكل والنزاعات والضغائن والتعصب والمغالاة.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾.

وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية للمسلمين. فقال رسول الله ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل الله».

(٢)

ولذا، فإنّ الرسول ﷺ بعدما استتب له الأمر في المدينة لم يكره أحداً من يهود المدينة وجوارها ولا من النصارى على اعتناق الإسلام، لأن الإكراه يحمل معه، حكم البطلان. وثمة إجماع فقهي من مختلف المذاهب الإسلامية وأهل الكلام على أنه إذا أكره أحد على الإسلام، لا يثبت له حكم الإسلام، وإذا أعلن ذلك، لا يجوز التعرض له. وقد نصت «الصحيفة» التي نظمت العلاقة بين المسلمين وطوائف اليهود الثلاث في المدينة: بني النضير، وبني قريظة، وبني القينقاع، على إقرار اليهود على دينهم وأموالهم، وحرمة حياتهم، وعلى حق الحماية والتناصر المتبادل، والدفاع المشترك، والمساواة. فاليهود ومواليهم أمة مع المسلمين لهم دينهم وللمسلمين دينهم إلّا من ظلم وأثم. ومن خرج من المدينة أو قعد فهو آمن. وعلى اليهود نفقتهم [في الدفاع عن المدينة] وعلى المسلمين نفقتهم. وبينهم النصر على من حارب أهل الصحيفة، والنصح والنصيحة، والبر دون الإثم، والنصر للمظلوم. وإذا دعا المسلمون اليهود إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه. وإذا دعا اليهود المسلمين إلى مثل ذلك، فإن على المسلمين ذلك، إلّا من كان محارباً لهم في الدين... الخ. ولم يعمد النبي ﷺ إلى إجلاء اليهود عن المدينة، بعد حوالي سنة ونصف من عقد الصحيفة المبرم معهم والمساوي بينهم وبين المسلمين في المواطنة، إلّا بعد نقضهم لعهودهم، وانضمامهم إلى صفوف أعداء المسلمين، وبعدما أعياه تآمرهم الدائم على محاربته ومحاولات قتله.

وعندما جاء أحبار نصارى نجران من اليمن برئاسة العاقب عبد المسيح والأيهم السيد، إلى المدينة ليجادلوا الرسول ﷺ في دين

الله، تركهم يقيمون صلاتهم الخاصة في مسجده عندما حان وقت صلاتهم، ولم يسمح لأصحابه بالتصدي لهم، قائلاً: «دعوهم يؤدوا صلاتهم». ويروي الطبري في تاريخه[1] أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عندما قدم إلى القدس في أواخر السنة الخامسة عشرة للهجرة، كتب لأهلها كتاباً، أعطاهم فيه أماناً لأنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصلبانهم، وألا يضار أحد منهم أو يستكره على دينه. وعندما دعاه بطريق القدس: صفرونيوس، إلى الصلاة في كنيسة القيامة حين جاء وقت الصلاة، امتنع عن ذلك، وآثر الصلاة في الفلاة، لكي لا يستن المسلمون به إذا صلى داخل الكنيسة، ويجعلوها مكاناً لصلاتهم.

وثمة آية في القرآن الكريم هي الآية ١٠٨ من سورة الأنعام تنهى المسلمين عن سب المخالفين لهم في المعتقد لكي لا يعمد هؤلاء إلى مبادرتهم بالمثل، ويسبوا الله عن جهالة منهم.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۢ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وعن النبي ﷺ للمسلمين:

«إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم، الغلو في الدين».

«من آذى ظلماً يهودياً أو نصرانياً كنت خصمه يوم القيامة».

«من آذى ذمياً فليس منا» [والذمي أو المعاهد هو الذي يربطه بالمسلمين عهد على أن يكون من رعايا الدولة الإسلامية، له ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين].

«استوصوا بالقبطيين خيراً لأن لهم رحماً وذمة».

---

(١) طبعة دار الكتاب العربي، بغداد، ٢٠٠٥، ج٢، ص٤٢٢ ـ ٤٢٣.

وبناء على وحدة النوع الإنساني التي قررها القرآن الكريم، وأكدتها السنة النبوية، والتي تقضي بقبول الآخر ـ مهما كان هذا الآخر ـ والتعامل معه من منظور الإخوة الإنسانية والإسلامية، فقد أشار القرآن إلى منظومة من القيم الأخلاقية والمبادىء الحقوقية العامة التي يجب مراعاتها في ما بين الناس عامة، بصرف النظر عن كونهم مسلمين أو غير مسلمين، ومنها: الحكم بالعدل بين الناس، وأداء الأمانات، والوفاء بالعهود... الخ فقد جاء في الآية ٥٨ من سورة النساء:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾.

وجاء في الآيتين ٩٠ ـ ٩١ من سورة النحل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾.

وقد نصت الآية ٨ من سورة الممتحنة على أن الله تعالى لا ينهى المسلمين عن صلة ونصرة غيرهم، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين الذين لم يقاتلوهم ولم يخرجوهم من ديارهم أو يعينوا على إخراجهم منها، كما لا ينهى عن الاقساط إليهم لأن الله يحب المقسطين.

﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾.

كما أن القرآن الكريم قد نص ـ كما أوردنا سابقاً ـ في الآية ٤٨ من

سورة المائدة والآية ٦٢ من سورة البقرة والآية ١٧ من سورة الحج، على أنه قد ترك للناس حرية اختيار أديانهم وشرائعهم والتسابق فيما بينهم على عمل الصالحات من الأعمال، وفعل الطاعات. وأن الله تعالى هو الذي يفصل في الآخرة بين المؤمنين واليهود والنصارى والصابئة والمجوس والمشركين، لأنّه هو العالم باختلافهم وأعمالهم. وفي هذا الصدد جاء في كتاب: **من يحمي المسيحيين العرب**، تحت عنوان: المسيحيون في الشرق قبل الإسلام: «لا غرو أن السياسة الإنسانية المتسامحة التي انتهجها العرب المسلمون منذ أول فتوحاتهم دفعت الناس في البلاد التي دانت لهم إلى تقبل سلطانهم. وهي سياسة كانت بحد ذاتها فتحاً في عالم الفكر والدين. فمن الممكن وبدون مبالغة، القول: بأن الفكرة التي أدت إلى انتهاج هذه السياسة الإنسانية «الليبرالية» إنما كانت ابتكاراً عبقرياً. فللمرة الأولى في التاريخ، انطلقت دولة، هي دينية في مبدئها، ودينية في سبب وجودها، ودينية في هدفها، ألا وهو نشر الإسلام من طريق الجهاد بأشكاله المختلفة إلى الإقرار في الوقت ذاته، بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانهم أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وطراز حياتها، وذلك في زمن كان يقضي المبدأ السائد، إكراه الرعايا على دين ملوكهم. وكان لا بد لهذه السياسة الإسلامية المتحدرة عن القرآن من أن تسفر عن دخول سكان الأقطار التي كانت تدين بالمسيحية وفتحها العرب في دين الإسلام. وهكذا اعتنق معظم السكان في سوريا ومصر والعراق، الإسلام، منذ القرن الأول من الهجرة بملء حريتهم. ومن بقي على نصرانيته كان شاهد عدل ليس على سماحة الإسلام وإنما على إنسانية هذا الدين العربي الذي أنزله القرآن. وهو الدين الذي أقر لغير المسلمين ليس فقط بحقوقهم الفردية والجماعية

الكاملة بل وأيضاً بالمواطنية الشاملة في عصرنا الحاضر الذي زال فيه نظام الأمة لكي يحل محله نظام الحريات العامة المنطوية لزاماً على مبدأ المساواة التامة في المواطنة»[1]. كما جاء في كتاب **حضارة العرب**، للمؤرخ الفرنسي، غوستاف لوبون: «إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار الإسلام في الشعوب والأقوام المغلوبة التي اعتنقته، ومنها بعض النصارى. فقد ترك المسلمون لهذه الشعوب والأقوام الحرية التامة في اعتناقه أو البقاء على ديانتها. والشعوب والأقوام التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك لما رأته من عدل المسلمين الذي لم يعرفوه من قبل». وقد رأى جورج قرم في كتابه **تعدد الأديان وأنظمة الحكم**، أن النصارى واليهود قد عاشوا في ظل الإسلام حياة وادعة مطمئنة بسبب رؤية الإسلام التعددية للكون. وهو أورد قول المستشرق الإنكليزي، أرنولد: «إن المسيحيين قد نعموا في ظل الحكم الإسلامي **بدرجة من التسامح لا نجد مثيلاً لها في أوروبا قبل** الأزمنة الحديثة»[2].

إن تاريخ الإسلام يشير إلى أنه قد انتشر في معظم مناطق العالم من طريق التجار والدعاة، وبخاصة في بلدان أفريقيا وبلدان جنوب شرقي آسيا، مثل: ماليزيا، وأندونيسيا، وباكستان، وتركستان، وأفغانستان. وأذربيجان، والصين، والهند، وروسيا... الخ. أما تاريخ المسيحية فيشير إلى أن الامبراطور الروماني قسطنطين عندما اعتنق المسيحية عام ٣١٢ أصدر أمراً باعتناق المسيحية في جميع مملكته. كما أن الامبراطور الجرماني الغربي، شارلمان (٧٤٢ ـ ٨١٤) فرض المسيحية فرضاً في

---

(١) من يحمي المسيحيين العرب، مرجع سابق (ص٨٠ ـ ١٠٤، المسيحيون في الشرق قبل الإسلام للدكتور أدمون رباط).

(٢) بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٩٢، ص٢٣٠ ـ ٢٦١.

جميع أرجاء امبراطوريته، التي كانت تضم آنذاك، مختلف البلاد الأوروبية الحالية.

وتاريخ المسيحيين في أوروبا سواء كان ذلك فيما بينهم أو مع الآخرين، يشير إلى أنّه تاريخ وحشي همجي استعماري مضرّج بالدماء، لا يضاهيه تاريخ في عنفه وتعصبه وقسوته. فقد جاء في كتاب: **مقدمات لدراسة المجتمع العربي**، للدكتور هشام شرابي، الذي يحمل الجنسية الأمريكية ودرّس في جامعات أمريكا أكثر من نصف قرن من الزمن، «أن الغرب الحديث قائم على العنف والاستغلال، وهو مضرّج بالدماء. وإذا قسناه بمقدار القتل والدمار الذي سببه في عصرنا لوجدناه أكثر وحشية وأشد همجية من أي مجتمع في التاريخ. لنأخذ مثلاً على ذلك، الحربين الأخيرتين: فقد قتل في أوروبا أكثر من ٦٠ مليون إنسان، وشرد ملايين من البشر في أنحاء العالم كافة. ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية قتل وشرد من الآسيويين والافريقيين على يد الأوروبيين ما يزيد عن ٤٠ مليون نسمة، ذنبهم أنهم أرادوا التحرر من استعمار الغرب...»[(١)].

أما تاريخ المسلمين فيشير إلى أن الحروب التي قامت بينهم وبين الآخرين، إنما كانت بسبب عداوة هؤلاء للإسلام، وإعلانهم الحرب على المسلمين، ما اقتضى من المسلمين الدفاع عن دينهم ووجودهم. ومقولة صراع الحضارات والأديان التي يتبناها الغرب في هذا العصر، لا مكان لها في الإسلام العقدي والتاريخي والحضاري. فالإسلام دين المحبة والرحمة، لأنه دين الله تعالى «**الرحمٰن الرحيم**»، الذي «**كتب على نفسه الرحمة**»، ورحمته «**وسعت كل شيء**»، وفقاً لما جاء في الآية ٣ من سورة

---

(١) مقدمات لدراسة المجتمع العربي، بيروت، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٧٧، ص٩٨ - ٩٩.

الفاتحة، والآية ١٢ من سورة الأنفال، والآية ١٥٦ من سورة الأعراف، والذي خاطب نبيه في الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء، قائلاً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾. كما أنه دين العدالة والوسطية والسلام، كما جاء في الآية ٦٣ من سورة الفرقان والآية ١٤٣ من سورة البقرة.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وتحية المسلمين فيما بينهم وبين الآخرين هي تحية السلام عليكم. والسلام إسم من أسماء الله الحسنى كما جاء في الآية ٢٣ من سورة الحشر:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾.

وقد أمر الله تعالى المسلمين في الآية ٨٦ من سورة النساء، بأن يردوا التحية [السلام] عليهم بأفضل منها أو على الأقل بمثلها، سواء كانت من إخوانهم المسلمين أو من غير المسلمين، وأخبر بأنه شهيد وحسيب على كل شيء، حتى على التحية.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾.

وعن النبي محمد ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وقد وصف الله تعالى نبيه الكريم في الآية ٤ من سورة القلم، قائلاً:
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

(٤)

إن الإسلام يحض المسلمين على التعارف والتواصل مع الآخرين مهما كانوا، سواء كان ذلك من أجل تبليغ دعوة الله إليهم بالطرق السلمية، أو من أجل الإفادة مما عندهم من علوم ومعارف يفتقدونها وتساعدهم على الترقي في مضمار العلوم والحضارة. فالله تعالى يقول في الآية ١١ من سورة المجادلة، والآية ٩ من سورة الزمر، والآية ٧ من سورة آل عمران:

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ...﴾.

وعن النبي محمد ﷺ أنه أجاز بعد معركة بدر، أن يفتدي كل أسير من المشركين، حياته، إذا علم عشرة من أولاد الأنصار المسلمين، القراءة والكتابة.

وعنه أيضاً: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

«من سافر في طلب العلم كان مجاهداً في سبيل الله، ومن مات وهو مسافر يطلب العلم، كان شهيداً».

«إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردت الدنيا والآخرة فعليك بالعلم».

«الحكمة ضالة المؤمن عليه أن يطلبها ولو من كافر».

«من تعلم لغة قوم أمن شرهم».

«هلاك أمتي أمران: ترك العلم، وجمع المال».

«أطلب العلم ولو في الصين».

والمسلمون يمكنهم أن يعيشوا في وئام ومحبة وتعاون وسلام ونظام مع غيرهم من غير المسلمين، في أي مجتمع كان، سواء كان مسلماً أو غير مسلم. وهم بعامة لا يضمرون حقداً ولا عداوة ولا كراهة للغرب وحضارته وثقافته، بل على العكس من ذلك، فهم معجبون بعلوم الغرب وحضارته، ويعملون جهدهم للإفادة من العلم الغربي والتكنولوجيا الغربية لتحسين أوضاعهم الاجتماعية؛ ولكن الغرب يمنع عنهم للأسف، امتلاك وسائل التقدم العلمي والتكنولوجي، لكي يبقيهم نوابت مستهلكين لسلعه الحضارية. والذي لا شك فيه، أنه حتى تستقيم العلاقة السياسية بين العرب والغرب، ولاسيما الولايات المتحدة الأمريكية، لا بد لهذه من أن تعترف للعرب والمسلمين بحقهم في الحرية والعدالة والمساواة والديمقراطية، وهي المبادىء التي تدعو إليها، وتحجبها عنهم في تعسف لا مثيل له، من خلال تعاطيها العسكري معهم، ومنع وسائل القوة عنهم، وموقفها السياسي والاقتصادي منهم، وتعطيل تنفيذ القرارات الدولية التي تنصفهم إزاء عدوان إسرائيل الهمجي الإرهابي المستمر عليهم، منذ قيام دولة إسرائيل بغير وجه حق على أرض فلسطين المغتصبة وتشريد أهلها.

(٥)

إن ثقافة الإسلام منذ ظهوره وما زالت، هي ثقافة العفو والصفح والغفران والتسامح، والعدل والإحسان وعدم البغي، والسلم والسلام، مع الآخر مهما كان جنسه، ومهما كانت عقيدته. فقد جاء على التوالي في الآية ٤٠ من سورة الشورى، والآية ٣٤ من سورة فصلت، والآية ١٤٩

من سورة النساء، والآية ١٤ من سورة التغابن، والآية ٩٠ من سورة النحل، والآية ٢٠٨ من سورة البقرة.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾.

﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

والعفوُّ، والعدل، والسلام، أسماء من أسماء الله الحسنى. ودار الإسلام تسمى دار العدل، لأن على الحاكم المسلم أن يلتزم العدل المطلق والمساواة التامة بين جميع الناس. والسلام العام غاية الإسلام. وهو لا يقوم إلّا في ظل العدل. وبين السلام والعدل تلازم منطقي طبيعي، طرداً وعكساً. فكلما وجد العدل قام السلام، وكلما غاب العدل وحل الظلم، غاب السلام وانعدم. فالعدل هو السبيل الوحيد إلى السلام والركن الأساسي لقيامه وحفظه وديمومته. والإسلام شجرة جذعها العدالة وفرعها السلام. والسلام لا يمكن أن يقوم إلّا إذا كان أساسه العدل.. العدل مع الأفراد كافة، وبين الجماعات كافة، بصرف النظر عن

ديانهم ومعتقداتهم وأجناسهم وألوانهم وأوطانهم. والعدل الذي يعني إحقاق الحق، وإعطاء كل ذي حق حقه، كما المساواة التامة بين جميع الناس، حكاماً ومحكومين، قيمتان مقدستان في الإسلام، وبهما، ومع الحرية لكل إنسان، تتكامل إنسانية الإنسان، وترتفع دعائم السلام.

والأصل في العلاقة بين المسلمين، وغيرهم من أهل الكتاب والمشركين، هو: «السلم». فإذا اعتدي على المسلمين، فإن عليهم مواجهة العدوان، والتعاطي مع الواقع بواقعية. فعن سفيان الثوري[1] (٩٨ ـ ١٦١هـ/ ٧١٥ ـ ٧٧٨م): إن القتال مع المشركين ليس بفرض إلّا أن تكون البداية منهم، فحينئذ يجب قتالهم. وقد أسند رأيه إلى الآية ٣٦ من سورة التوبة، والآيتين ١٩٠ ـ ١٩١ من سورة البقرة.

﴿...وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ولأن الإسلام ينشد السلام ويمقت الحرب ويدينها، ولا يبيحها للمسلمين إلّا إذا فرضت عليهم، فإنه دعا المسلمين إلى رد الاعتداء عليهم بمثل ما اعتدي عليهم فقط من دون إفراط في الرد. فقد جاء في الآية ١٩٤ من سورة البقرة:

---

(١) كان من أئمة الحديث وعلماء الكلام في العراق، قيل عنه: إنّه لم يكن أعلم منه بالحلال والحرام.

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

وقد شدد الله تعالى في الآية ١٢٦ من سورة النحل على أن يكون رد المسلمين على أذى أعدائهم بالقدر نفسه الذي نالهم من أذاهم. وهو يعدهم بالخير في الآخرة إن هم صبروا على أذى أعدائهم ولم يبادلوهم بالمثل.

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

وقد نصت الآيتان ٦١ ـ ٦٢ من سورة الأنفال، والآية ٩٠ من سورة النساء، على أن يجنح النبي والمسلمون للسلم إن جنح المشركون المعتدون للسلم، وطلبوا إيقاف الحرب، حتى ولو كانوا في ذلك مخادعين.

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾.

ومن وصية الرسول ﷺ إلى معاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن، يأمره فيها بعدم البدء بالقتال إلّا بعد مباشرته من قبل العدو، وقتل واحد من المسلمين: «لا تقاتلوهم حتى تدعوهم، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدأوكم، فإن بدأوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً، ثم أروهم، ذلك، وقولوا لهم: هل إلى خير من هذا سبيل؟ فلأن يهدي الله على يديك رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت».

واتهام المستشرقين للإسلام بأنه دين يفرض الحرب على كل من هو غير مسلم، حتى يدخل في الإسلام أو يخضع له ويدفع الجزية وهو صاغر، مستندين إلى الآية ٢٩ من سورة التوبة.

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾.

هو اتهام ظالم وباطل. وردنا عليه، وباختصار مفيد، أن هذه الآية نزلت في السنة التاسعة للهجرة والنبي يستعد لمواجهة حشود جيوش الروم البيزنطيين في تبوك ومن حالفهم من نصارى دمشق، واليهود الذين أجلاهم النبي من المدينة واستقروا في منطقة أزرعات على حدود الشام. وأنَّ أهل الكتاب المقصودين في هذه الآية بصورة خاصة، كانوا يهود الجزيرة العربية: يهود بني النضير، وقريظة، وقينقاع، والمصطلق، والحقيق، الذين نكثوا عهودهم مع المسلمين، وتآمروا عليهم، وغدروا بهم، وتحالفوا مع أعدائهم المشركين من قريش، وكانوا عيناً وعوناً للروم النصارى في الشام، حيث كانوا يستعدون للانقضاض على دولة الإسلام في المدينة. وإذن، فهذه الآية تتعلق أولاً، وأصلاً، بالروم الأعداء الذين قتلوا رسل النبي إليهم، وأعلنوا حربهم على المسلمين، لأنهم رأوا في دعوتهم خطراً على وجودهم، وعلى استغلالهم لقسم كبير من العرب في حربهم مع الفرس، كما تتعلق ببعض أهل الكتاب من الجزيرة العربية الذين نكثوا عهودهم، وأعلنوا الحرابة على المسلمين، لأن حرف «من» في قوله تعالى: من الذين أوتوا الكتاب، يفيد التبعيض. وهي آية تتضمن حكماً خاصاً لسبب خاص. وقد جاءت بصيغة العموم وأريد بها الخصوص على غرار الكثير من الآيات القرآنية. وما يدلل على أن

مقصود هذه الآية ليس عموم أهل الكتاب، هو قول الله تعالى في الآيتين ١١٣ و١١٤ من سورة آل عمران: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وكذلك قول النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله، فمن قال ذلك، فقد عصم مني نفسه وماله وحسابه على الله». والمقصود بهذا القول: قتال من يقاتل المسلمين فقط دون غيرهم، سواء كانوا كفاراً أو مشركين. ولذا فإن النبي ﷺ قبل دخوله مكة دعا أهلها إلى التسليم من غير قتال، وأعطاهم أماناً عاماً، جاء فيه: أن من دخل الكعبة ولم يقاتل فهو آمن، ومن دخل داره وأغلقها عليه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. وقد بينا سابقاً موقف الإسلام عامة من أهل الكتاب، وأوردنا الآيات التي تتحدث عنهم، ومنها: الآية ٤٦ من سورة العنكبوت، والآيتان ٦٢ و١٩٠ من سورة البقرة، والآية ١٩٩ من سورة آل عمران، والآية ١٠ من سورة الممتحنة، والآية ٤٨ من سورة آل عمران... الخ. فقد جاء في الآية ١٩٠ من سورة البقرة، والآية ٤٠ من سورة الممتحنة:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

وكلمة الجزية الواردة في الآية ٢٩ من سورة التوبة، تعني الضريبة التي فرضها الله على أي تمرد أو عدوان يصدر عن أي جماعة من الناس

وردعها عن غيها وتمردها. وهي من الجزاء، جزاء الحرابة على المسلمين. وقد كانت أمراً سائداً ومعروفاً لدى جميع الشعوب القديمة قبل ظهور الإسلام، حيث كانت الدول القوية أو المنتصرة تفرضها بتعسف لا نظير له على الدول الضعيفة أو المغلوبة. وشتان ما بين نظام الجزية الإسلامي الذي كان معمولاً به منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، والمترتب على من يقوم بأعمال الحرابة ضد المسلمين، وبين نظام الانتداب والوصاية والاستعمار، وفرض العقوبات العسكرية والمالية، الذي تمخض عن الحربين العالميتين الأولى والثانية، في النصف الأول من القرن الماضي، ووضع بلادنا العربية والإسلامية تحت وصاية الاستعمار الغربي: العسكري والسياسي والاقتصادي، لفترة طويلة من الزمن، على الرغم من أنها لم تكن في حرابة مع الغرب، وكان بعضها إلى جانبه، مثل، لبنان، وسوريا، والعراق... الخ. ولم يجل عنها إلّا تحت وطأة الثورة عليه. ولا حاجة بنا للتذكير بجريمة الغرب الأوروبي - الأمريكي الذي كان وراء اغتصاب الصهاينة اليهود لأرض فلسطين العربية من أهلها الشرعيين في سنة ١٩٤٨.

وهذه الجزية التي فرضت في الماضي على بعض أهل الكتاب وبخاصة اليهود منهم، لا وجود لها اليوم في البلاد العربية والإسلامية، لأن اليهود والنصارى يعيشون على قدم المساواة مع المسلمين في الحقوق والواجبات. وقد كانت هذه الجزية كناية عن مبلغ زهيد من المال يؤخذ سنوياً من الرجل البالغ القادر على دفعها، وهي ثمانية وأربعون درهماً من الأغنياء، وأربعة وعشرون درهماً من المتوسطي الغنى، واثني عشر درهماً من الفقراء القادرين على دفعها [عن يد: تعني القدرة على دفعها]. وكان يعفى منها: النساء، والأطفال، والفقراء،

والمسنون، والعاجزون، والمجذومون، وأصحاب العاهات: كالعميان، والعرجان، والمعتوهين، والمجانين؛ كما كان يعفى منها: رجال الدين، وكل من ليس من أهل السلاح. وقد فسرها الفقهاء المسلمون بأنها كانت ضريبة طبيعية وجزاء رتبه الله تعالى على أعمال الحرابة التي قام بها أهل الكتاب ضد المسلمين، وليس لكونهم كفاراً أو غير مسلمين. فالمسلمون ليسوا مكلفين بمحاسبة الكافرين أو المشركين على كفرهم أو شركهم، لأن أمرهم يعود إلى الله تعالى في الآخرة كما جاء في الآية ١٧ من سورة الحج:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

كما أنها كانت في الحقيقة بدلاً مالياً من قبل أهل الكتاب عن فريضة الجهاد ونفقاته (الجندية) الواجبة على المسلمين من أجل حماية الدولة الإسلامية، ولقاء عضويتهم الكاملة في المجتمع الإسلامي على قدم الندية والمساواة مع المسلمين. فهي امتياز لأهل الكتاب في صورة: ضريبة، أو رسم، أو صدقة، أو زكاة، أوجبها الإسلام على الأشخاص القادرين منهم على حمل السلاح، تخفيفاً عنهم، ورحمة بهم، وعدم الإحراج لهم، حتى لا يلزمهم بعبادة أو فريضة لا يؤمنون بها، والقتال في صفوف السملمين، فيتهم بأنه يريد الهلاك لهم من خلال تعريضهم لمخاطر الحرب والقتال. ولو خيّر أي إنسان سواء كان في الماضي، زمن الدولة الإسلامية، أو في الحاضر، بين أن يدفع مثل هذا المبلغ الزهيد من المال أو أكثر منه بكثير، مقابل إعفائه من الخدمة العسكرية، لفضل ذلك بالتأكيد، ولاسيما إذا كان من ذوي اليسر. كذلك، فإنها كانت بدلاً عسكرياً عن تأمين الحماية لأهل الكتاب، على أنفسهم، وأموالهم،

ومعاملاتهم، والدفاع عنهم ضد كل أذى داخلي أو أي عدوان خارجي يقصدهم بالذات دون غيرهم من المسلمين، ولو أدى دفاع المسلمين عنهم إلى الموت في سبيلهم. فقد جاء في كتاب مراتب الإجماع، لابن حزم الظاهري، أن من كان من أهل الكتاب، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ وذمة جماعة المسلمين.

وهذه الجزية تسقط عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى في حال اشتراكهم في القتال مع المسلمين دفاعاً عن الوطن أو دار الإسلام. فقد جاء في تاريخ الطبري، أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أمر بأن تكون الجزية على أهل أذربيجان على قدر طاقتهم، فلا يظلموا ولا يرهقوا بتكليفهم ما لا يطيقون. ومن ساعد منهم المسلمين في قتال، رفعت عنه، أي أنّه إذا تجند أهل الكتاب في صفوف المسلمين للدفاع عن الوطن الإسلامي سقطت الجزية عنهم(١). وجاء في كتاب فتوح البلدان للبلاذري، أن حبيب بن مسلم الفهري بعدما فتح مدينة أنطاكية التي نقض أهلها العهد مع المسلمين، غزا المناطق الجبلية من بلاد الشام القريبة من أنطاكية، حيث كان يسكنها الجراجمة النصارى، فلم يقاتله أهلها، ووقعوا معه في سنة ٩٨هـ اتفاقية صلح وأمان، عاهدوه فيها أن يكونوا أعواناً للمسلمين، وعيوناً لهم، على شريطة ألا يؤخذوا بالجزية، وأن يعطوا نصيبهم من الغنائم. وبالرغم من أن الجراجمة لم يوفوا بعهدهم، ونقضوه غير مرة، لم يؤخذوا بالجزية قط. وعندما ألزمهم عامل الشام في

(١) تاريخ الطبري، ج٤، ص١٦٠.

عهد الخليفة العباسي، الواثق بالله، بدفع الجزية، رفعوا الأمر إلى الواثق، فأمر بإسقاطها عنهم[1]. ويذكر الشيخ محمد رشيد رضا في الجزء العاشر من تفسير المنار، «أنه لم يكن يحق للمسلمين أن يجبروا أهل الذمة على القتال إلى جانبهم في حال من الأحوال. بل الأمر بيدهم، إن رضوا بالقتال عن أنفسهم وأموالهم عُفوا من الجزية. وإن أبوا أن يخاطروا بالنفس فلا أقل من أن يسامحوا بشيء من المال، وهي الجزية»[2]. ومن كتاب للخليفة الأموي، عمر بن عبد العزيز، الملقب بخامس الخلفاء الراشدين، إلى وليه على البصرة، عدي بن أرطأة الفزاري «ضع الجزية على من أطاق حملها. وانظر مَنْ مِنْ أهل الذمة [أهل الكتاب] قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فاجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه».

وبالرغم من أنه كان على المسلمين أن يؤدوا الصدقات إلى جانب فريضة الزكاة المتوجبة عليهم، فإنهم كانوا أيضاً يدفعون الجزية كالذميين من أهل الكتاب، إذا ما رأت الدولة إعفاءهم من الخدمة العسكرية، كما حصل في عهد الدولة العثمانية. فقد جاء في كتاب **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي**، وكتاب **بينات الحل الإسلامي** للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي «لم تقرر جزية الرؤوس على النصارى الإغريق الذين أشرفوا على القناطر التي أمدت القسطنطينية بماء الشرب، ولا على الذين كانوا في حراسة مستودعات البارود في تلك المدينة، نظراً إلى ما قدموه للدولة من خدمات. ومن جهة أخرى، أعفي الفلاحون المصريون من الخدمة العسكرية، على الرغم من أنهم كانوا على الإسلام، وفرضت عليهم

(١) فتوح البلدان، طبعة بيروت، ص٢١٧ ـ ٢٢٠.
(٢) تفسير المنار، ج١٠، ص٢٩٣.

الجزية في نظير ذلك...»[1]. «إن كثيراً من ظلام الحكام كان يرفق بأهل الذمة، رعاية لذمتهم، على حين يقسو على أهل ملته من المسلمين ويحيف عليهم، حتى وجدنا الشيخ الدردير علامة المالكية، وشيخ علماء عصره في مصر، يذكر عن أمراء زمانه: أنهم أعزوا أهل الذمة ورفعوهم على المسلمين. حتى إنّه يقول: ويا ليت المسلمين عندهم كمعشار أهل الذمة، وترى المسلمين كثيراً ما يقولون: ليت الأمراء يضربون علينا الجزية كالنصارى واليهود، ويتركونا بعد ذلك كما تركوهم...»[2].

وجاء في كتاب آدم ميتز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري** «من الأمور التي نعجب بها كثرة عدد العمال [الولاة وكبار الموظفين] والمتصرفين غير المسلمين في بلاد الإسلام. والشكوى من تحكيم أهل الذمة في أبشار المسلمين شكوى قديمة... وقد شوهد المسلم في بلادهم يحكم عليه النصارى. وحدث مرتين في القرن الثالث عشر للهجرة أن كان من النصارى وزراء حرب. وكان على القواد ـ حماة الدين ـ أن يقبلوا أيدي الوزير وينفذوا أمره...»[3].

ومن خلال ما تقدم، نستطيع القول: إن الإسلام لا يميز بين إنسان وآخر في أصل الخلق وفي الحقوق الإنسانية الأساسية الطبيعية لكل إنسان. وهو يشرع الحق في التنوع والتمايز والاختلاف بين الناس، دينياً، وفكرياً، وثقافياً، وحضارياً، ويدعو في الوقت ذاته إلى الحوار والتعارف والتعاون والتآلف والتكامل من أجل تعمير الأرض، والترقي في الحياة، والعيش بسلام. ولذا، فهو يقبل التعايش بسلام مع الآخر المسالم، أو

---

(١) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤، ص٥٨.
(٢) بينات الحل الإسلامي، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣، ص٢٥٣.
(٣) ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، ص٢٤٩.

المحايد، أو المعاهد، أو المستأمن، مهما كان جنسه، ودينه، ولونه، وموطنه، من طريق المعاهدات، كما هو حاصل اليوم بين الدول المختلفة، وفقاً لشرعة الأمم المتحدة.

(٦)

قلنا: إن الجزية في الاسلام كانت في الصدر الأول للإسلام تعني الضريبة، أو الزكاة، أو الصدقة، التي يدفعها المقاتل المعادي للإسلام والمسلمين، وإن الذمية كانت تفيد المواطنة أو الجنسية. وقد أصبحت الجزية، حالياً، من قبيل الماضي وتراثه، في زمن الدولة المدنية الحديثة التي ينخرط جميع أبنائها على اختلاف أجناسهم وعقائدهم في الدفاع عنها. ولذا، لشد ما ينتابني الذهول والدهشة من أن أسمع بعض الإخوة من المنظرين السياسيين غير المسلمين، الذي لا يفقهون حقيقة الإسلام ولا يعرفون تاريخه، يعلنون بعصبية بالغة من على شاشات محطات التلفزة المحلية والفضائية، عن رفضهم الشديد قيام دولة إسلامية دينية في لبنان، لأنهم لا يريدون أن يصبحوا من أهل الذمة، ولأن الإسلام ينظر إلى غير المسلمين من أهل الكتاب، نظرة دونية عدائية، مستندين في ذلك، إلى أن ثمة آيات كثيرة في القرآن الكريم تسمى بآيات السيف، تدعو بصراحة إلى قتالهم حتى يعطوا الجزية وهم صاغرون.

والذي لا شك فيه، أننا في لبنان، لا نعيش في ظل دولة إسلامية دينية، ولا يعمل المسلمون: ساستهم وعامتهم، على قيام دولة إسلامية أو دينية. وهذا الهاجس الكارثي البغيض عند بعض القلة القليلة من الاخوة في المواطنة، لا أساس حقيقي له. ومن المعلوم أن المسلم لا يكون مسلماً حقيقياً إلّا إذا آمن بروح الله وكلمته، السيد المسيح. وللسيدة مريم

العذراء منزلة عالية ومقدّسة في الإسلام. وقد خصَّها القرآن الكريم بسورة تسمى باسمها، وهو تكريم لا مثيل له لامرأة أخرى في الإسلام. كما أشار القرآن إلى أن المسيحيين أقرب الناس مودة إلى المسلمين في الآية الثامنة والثمانين من سورة المائدة، قائلاً:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

لا جرم، أنه يحق لكل إنسان أن يعبِّر عن رفضه العيش في ظل دولة إسلامية دينية في لبنان أو غير لبنان. وقد يكون ثمة كثير من اللبنانيين المسلمين على اختلاف مذاهبهم، يرفضون قيام دولة إسلامية في لبنان أو غيره، قبل إخوانهم المسيحيين. ولكن الذي يوجس القلب خيفة، هو إعلان ذلك، من على شاشات محطات تلفزة قد تصل إلى عشرات الألوف من المشاهدين، أو أكثر، في هذا الجو من الانقسام السياسي والديني الحاد في لبنان، حيث الحوار العقلاني الوطني الأخوي السياسي والديني بين جميع مكوناته السياسية والدينية، هو المطلوب، وحيث لا علم لي بأن طائفة ما في لبنان تدعو إلى إقامة دولة إسلامية دينية. وقد أعلن «حزب الله» وهو أكبر حزب إسلامي سياسي في لبنان، أكثر من مرة، أنه ليس من أهدافه إقامة دولة إسلامية في لبنان، فضلاً عن أن ثمة أسباباً موضوعية خاصة بتكوين المجتمع اللبناني، لا يمكن أن تسمح بذلك. وقد أكد ذلك، أمينه العام، بتاريخ ٨/ ٥/ ٢٠٠٨م من على جميع شاشات التلفزة اللبنانية: الأرضية والفضائية، بقوله: إن حزب الله لا يزال متمسكاً «بدستور» الطائف وبطبيعة النظام اللبناني وتركيبة السلطة فيه. وأنه لو طلب جميع اللبنانيين من الحزب أن يتولى السلطة في لبنان

لإصلاح أموره الإدارية والسياسية والاجتماعية، لرفض مثل هذا الأمر، لعدم قدرته على ذلك، نظراً لمكونات المجتمع اللبناني السياسية والدينية المختلفة.

ثم أعاد الأمين العام لحزب الله تأكيد ذلك في شهر آب ٢٠١٢م من على شاشة تلفزيون المنار، العائد للحزب، قائلاً: إن الطائفة الشيعية الاسلامية في لبنان لا تسعى على الإطلاق لأن تكون: لا **الطائفة الحاكمة**، ولا **الطائفة القائدة**، في لبنان، ولا يمكنها ذلك أصلاً، كما لا يمكن لأية طائفة أخرى، أن تكون كذلك، نظراً لمكونات المجتمع اللبناني الذي يتألف من ثماني عشرة طائفة.

ثم لو فرضنا وجود تلك الدعوة من فئة أو جهة ما، سياسية أو دينية، لإقامة دولة دينية، فإن تحقيق هذه الدعوة من المحال، لأن مكونات المجتمع اللبناني الدينية والطائفية، وطبيعة نظامه ونصوص دستوره، تحول دون ذلك، وطلب المحال، محال. وقد أعطى «دستور» الطائف كل الضمانات السياسية والوطنية للاخوة المسيحيين لتجنب هاجس الأقلية والأكثرية. وكرّس لهم منصب رئاسة الجمهورية، والمناصفة في السلطتين التشريعية والتنفيذية، وفي المناصب القيادية العليا في الدولة... الخ. والمسلمون على قناعة تامة بأن قيمة وجود لبنان وتفرده في العالم العربي، رهن ببقاء إخوانهم المسيحيين فيه. وعلى المسيحيين كما جاء في الإرشاد الرسولي لقداسة البابا الراحل: يوحنا بولس الثاني، أن يعتبروا أنفسهم من نسيج هذا الوطن، وبُناته، وركيزته الأساسية، ومن طينة أبنائه وأبناء هذا الشرق وحضارته. وعليهم أن يعملوا على تعزيز الوجود المسيحي والتفاهم مع إخوانهم المسلمين.

ولذا، فأنا لا أستسيغ بعض المفردات الشائعة اليوم في وطننا الصغير

بعد خمس وستين سنة على استقلاله، مثل: التعايش المشترك، الإحباط المسيحي، الإحباط السني، الإحباط الشيعي، حقوق المسيحيين، حقوق المسلمين، أمن المجتمع المسيحي فوق كل اعتبار، الكيان المسيحي، الفدرالية، الكونفدرالية... الخ، التي تشير بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى الاختلاف والفرقة في المجتمع أكثر من التوحد والوحدة. وأنا أعجب في الوقت نفسه من إغفال المفردات التي تفيد الوحدة والأخوة، مثل: المجتمع اللبناني، اللبنانيون، المواطنة، حق المواطنة وواجباتها، حق الوطن وواجباته، الهوية الواحدة، اللغة الواحدة، الحضارة الواحدة، الوحدة الوطنية، وحدة الوطن، وحدة اللبنانيين، وحدة المجتمع، المصير الواحد... الخ. إن اللبنانيين جميعاً: مسلمين ومسيحيين، هم مواطنون لبنانيون، وإخوة في الوطن، تجمعهم الهوية اللبنانية الواحدة، والمواطنة اللبنانية الواحدة، والحياة اللبنانية الواحدة ذات التقاليد والأعراف الواحدة. وثمة مجتمع لبناني واحد وليس مجتمعين، أحدهما مسيحي، والآخر مسلم. وثمة شعب لبناني واحد، بعضه على الأغلب: عربي مسيحي، وبعضه الآخر على الأعمّ الأغلب: عربي مسلم. وليس هناك شعب مسيحي، وشعب مسلم، في بلد واحد، كما يرد على أفواه بعض المتفلسفين والساسة، سواء كان ذلك عن قصد أو جهل. والحرب التي شنتها إسرائيل على لبنان ٢٠٠٦م، وهجّرت سكان جنوبه بالكمال والتمام، خير دليل على ما أقول. فقد هبَّ اللبنانيون جميعاً: مسيحيون ومسلمون لمدِّ يد العون والمساعدة لإخوانهم في الوطن والمواطنة، من دون أي التفات لخلاف أو خصام سياسي، أو اختلاف عقدي ديني لا حيلة لهم فيه، على غرار أرقى الأوطان والشعوب، التي تسرع إلى التوحد التام والتعاون في الحروب والكوارث والنكبات.

ومن المفيد جداً في هذا المجال، التذكير بضرورة الاطلاع على فكر

الإمام السيد موسى الصدر ومقولاته الوطنية المشهورة: (العيش اللبناني الإسلامي المسيحي ثروة يجب التمسك بها. لبنان وطن نهائي لجميع أبنائه، بدون تفريق أو تمييز على أساس من المساواة والعدالة. الموت في سبيل الوطن وفي سبيل حرية الإنسان هو موت في سبيل الله. النظام الديمقراطي البرلماني ذو الطابع الطائفي العادل أفضل أنواع الأنظمة للبنان. لبنان بلدنا، وإنسانه هو الرصيد الأول والأخير. الجنوب أمانة يجب أن تحفظ بأمر الله وبأمر من الوطن. الأديان واحدة تهفو إلى غاية واحدة. إذا كان يمكننا تلخيص الإيمان المسيحي بالله بكلمة «الله هو المحبة»، فيمكن تلخيص الإيمان الإسلامي بالله بأن «الله هو الحق»).

كما أنه من المفيد جداً الاطلاع على وصية الشيخ محمد مهدي شمس الدين السياسية للبنانيين جميعاً، من أجل الحفاظ على وحدتهم ووطنهم، حيث كان يرى أنه لا معنى ولا ضرورة لوجود لبنان بدون المسيحيين فيه. وكان يفضل كلمة «المواطنة» بدلاً من «الذمية» عند الحديث عن المجتمع الإسلامي، لما قد تثيره كلمة «الذمية» من النفور والامتعاض لدى السامعين.

ثم إنه من المعروف أن الإسلام لا يمكن أن يقوم في أي بلد إلّا برضى أبنائه عن حرية واقتناع، خارجاً عن كل ضغط معنوي أو مادي أو أي نوع من أنواع الإكراه. وجميع الدول العربية والإسلامية، اليوم، ما عدا دولة واحدة، على حدِّ علمي، لا تشير أسماؤها إلى الإسلام، على الرغم من انتماء معظم أبنائها إلى الإسلام. ولا تتبنّى منها سوى دولتين، النظام الإسلامي أو بعضه في الحكم، وهما:

أ ـ المملكة العربية السعودية، حيث يعمل فيها كثير من المسيحيين: لبنانيين وغير لبنانيين، ولا يُعتبرون من أهل الذمة، ولا يدفعون جزية.

ب ـ الجمهورية الإسلامية الإيرانية، حيث يوجد فيها طوائف إيرانية مسيحية ويهودية ومجوسية، لها تمثيلها في مجلس الشورى الإيراني، ولا تعتبر من أهل الذمة ولا تخضع للجزية، وإنما تعتبر من نسيج الأمة الإيرانية، مع الحفاظ على كل ما يتعلق بها من حقوق دينية خاصة بها.

إن الإسلام عقيدة، وعبادة، وأخلاق، ونظام.

١ ـ **عقيدة**: تقوم على الإيمان بالله الواحد وملائكته وأنبيائه ورسله والثواب والعقاب واليوم الآخر.

٢ ـ **عبادة**: تتمثّل بالقيام بشعائر معينة: صلاة ـ صيام ـ زكاة ـ حج ـ جهاد... الخ.

ولم يفرضهما الإسلام على أحد من الناس. وقد نزلت الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ في رجال من الأنصار، كان لهم أبناء على الديانة اليهودية أو المسيحية، وأرادوا أن يجبروهم على الإسلام.

٣ ـ **أخلاق**: تدعو إلى الإخاء والمحبة والرحمة والصدق والعدل والإحسان والتعاون والخير والسلام... الخ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي والظلم والتكبر والغش والقتل والسرقة والكذب والرشوة والشح والاحتكار والفتنة... الخ. وهي لا تختلف عما تدعو إليه الأديان السماوية، وبخاصة المسيحية.

٤ ـ **نظام**: هو أوسع من العقيدة والعبادة والأخلاق، فهو التنظيم السياسي المدني لشؤون الدنيا والناس، من حيث علاقة الفرد بأسرته، وعلاقته بدولته، وعلاقته بغيره من الناس، وعلاقة الدولة برعاياها، وعلاقتها بغيرها من الدول... الخ. وهو يقوم على أسس معينة، منها:

أ ـ الحرية على اختلافها: الحرية الدينية، الحرية السياسية، الحرية الفكرية، الحرية الاجتماعية.

ب ـ الشورى أو الديمقراطية.

جـ ـ المساواة بين جميع الناس.

د ـ العدل.

هـ ـ المحاسبة.

وهذا النظام يقبل التشريع المتجدد والدائم في الأمور المدنية والتجارية والإدارية والسياسية... الخ، والإفادة من الغير في هذه الأمور بما لا يتعارض وروح الإسلام ومقاصده الإنسانية السامية. وهو يمنح مواطنته الكاملة لكل من يرتضي العيش في ظله من أصحاب العقائد والديانات الأخرى، مع الحفاظ على عقائدهم وشعائرهم وشرائعهم وأحكامهم المتعلقة بأمورهم العقائدية الخاصة. فلهم مثلاً، الاحتكام إلى دينهم واللجوء إلى محاكمهم الروحية الخاصة بهم في أمور الزواج والطلاق والميراث والوصية والهبة والوقف... الخ. كما أن لهم كامل الحرية في التعامل والاتجار فيما بينهم في الأمور التي يبيحها لهم دينهم ويحرمها الإسلام، مثل: أكل لحم الخنزير، وتعاطي الخمر،... الخ.

إن البعض يظن أن الدعوة إلى قيام الدولة الإسلامية في مكان ما، يعني الدعوة إلى قيام الدولة الدينية المقدسة والحكومة الإلهية الثيوقراطية التي تحكم باسم الله في الأرض، ويكون الحكم فيها لطبقة رجال الدين بصورة مباشرة أو غير مباشرة. والحقيقة أنه لا إكليروس في الإسلام، لأن الرسول والخلفاء الراشدين من بعده كانوا يلبسون زيّ قومهم المتعارف عليه. وأن الدولة في الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ وقيام دولة الخلفاء

الراشدين، كانت دولة مدنية منبثقة عن الشورى والبيعة من قبل أهل الحل والعقد في الأمة ورضاها. وأن أساس السلطة السياسية ومرجعها هو الأمة التي تختار حكامها وتراقبهم وتحاسبهم وتعزلهم. ويحق لكل مسلم ومسلمة أو أي مواطن آخر يعيش في الدولة الإسلامية أن يلفت نظر الحاكم إلى خطئه، أو يقاضيه، أو يرفض طاعته، فيما إذا خالف شرع الله أو تعدّى حقوقه. وهذا الحق هو واجب كفائي على الأمة. وهو يرقى إلى درجة الواجب أو الفرض العيني على من يقدر عليه ويعجز أو يجبن غيره عن أدائه، لأن الحاكم أو الخليفة أو الرئيس ليس وكيل الله في الأرض، بل هو وكيل الأمة. وللأمة أو من تنيبه عنها حق التشريع في كل ما لا نص فيه ومسكوت عنه، وهو كثير في الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية، غير مقيّد إلّا بمقاصد الشريعة الكلية التي تراعي جلب المنافع للناس ودفع المضار أو المفاسد عنهم. حتى إن علماء الأصول المسلمين يجعلون الدين إحدى الضروريات الخمس التي جاءت الشريعة الإسلامية لحفظها، وهي: الدين ـ النفس ـ العقل ـ النسب ـ المال. ومن هذه الضروريات الخمس، ينبثق حق المواطنة بالحرية والعدالة والمساواة والحماية والعمل والملكية والحياة الكريمة من مأكل وملبس ومسكن وتعلم وطبابة وضمان شيخوخة، لجميع أفراد الأمة: مسلمين وغير مسلمين. فمن خطبة أول خليفة في الإسلام، أبي بكر الصديق: «أيها الناس! إني وليت عليكم ولست بخيركم. إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة. والضعيف فيكم قوي عندي، حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم». ومن خطبة الخليفة الثاني

عمر بن الخطاب بعد توليه: «من رأى فيَّ اعوجاجاً فليقومني». وقد رفض سلمان الفارسي أن يسمع له وهو يخطب يوماً، طالباً منه، أن يفسِّر كيف كفته قطعة القماش لخياطة ثوبه، وقد تساوى فيها مع سائر الصحابة، وهو من الطوال. فقام ابنه عبد الله يوضّح ذلك، بأنه قد تنازل لابيه عن قطعته التي كانت من نصيبه. وعندما خطب يوماً ينهى عن المغالاة في المهور، وأشار على الناس أن يكون مهر فاطمة بنت الرسول ﷺ، مثلاً يُحتذى، فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال، تصدَّت له امرأة قائلة: لا يحق لك ذلك، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[1]. فقال: امرأة أصابت وأخطأ عمر.

وعن علي بن أبي طالب وهو خليفة المسلمين، أنه شكا يوماً إلى القاضي شريح بن الحارث الكندي (ت: ٨٠هـ)، رجلاً مسيحياً، وجد عنده درعه التي فقدها. فسأل شريح: الرجل، عما يقول الخليفة. فأجاب: الدرع درعي، وما سرقت، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب. فالتفت شريح إلى علي يسأله: يا أمير المؤمنين، هل من بيِّنة لديك؟ فضحك علي، قائلاً: أصبت، ما لي بيِّنة. فحكم شريح بالدرع للمسيحي. وأخذ الرجل الدرع، ومشى خطوات، ثم عاد قائلاً: أشهد أن هذه أحكام أنبياء. أمير المؤمنين يدينني إلى قاضية، فيقضي عليه. أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنَّ محمداً رسول الله. الدرع درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق من صفين، فخرجت من بعيرك الأورق، فأخذتها. فقال علي: أما وقد أسلمت، فالدرع لك[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٠.

(٢) أنظر: البداية والنهاية، لابن كثير، ج٨، ص٤ - ٥.

وبدون تكثير في الكلام، أقول: إنَّ نظام الحكم في الإسلام الذي يسوس أمور الأمة السياسية والاجتماعية وفق مبادىء الحرية والعدالة والمساواة، هو نظام سياسي مدني ديمقراطي يقوم على مبدأ انتخاب رئيس الدولة من قبل الأمة أو ممثليها من أهل الحل والعقد، أو من كليهما معاً، كما كان الحال زمن الخلفاء الراشدين. وأن أكفأ رجل في الأمة هو الذي يجب أن يقودها. وأن جميع المناصب والوظائف: كبراها وصغراها يجب أن يتولاها أكفأ الناس لها. وأن هذا النظام يقبل انتخاب رئيس الدولة وممثلي الأمة في مجلس النواب أو الشورى، لمدة زمنية محددة، من قبل الأمة مباشرة. كما يقبل مراقبة رئيس الدولة والوزراء ومحاسبتهم، من قبل ممثلي الأمة. وحتى المسلمين الإماميين الشيعة الذين يعتبرون الإمامة من أصول مذهبهم، ويؤمن بعضهم بولاية الفقيه، في غياب الإمام المعصوم، كما هو الحال اليوم، في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، فإنهم يتبنون النظام الديمقراطي البرلماني في الحكم، ولا يعتبرون المعارضين لهم أعداء لله وللإسلام. فكل من رئيس الجمهورية، ومجلس الشورى (النواب) الإيراني، ومجلس الخبراء، ينتخبون انتخاباً مباشراً، لمدة زمنية محددة من قبل الشعب الإيراني كله. ومجلس الخبراء المنتخب، يختار بدوره من يراه مناسباً لمنصب «الولي الفقيه» المحددة صلاحياته في الدستور الإيراني. وتاريخ الخلفاء الراشدين يشير إلى محاسبة الأمة لبعضهم، كما يشير بالتفصيل إلى محاسبة كل من الخليفتين: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب الشديدة، للولاة المنحرفين في عهدهم، وعزلهم.

وفي هذا الصدد، يقول الشيخ محمد جواد مغنية في كتابه الشيعة

والحاكمون[1]: «إن الشيعة لا يرون أي بأس من الناحية الدينية بقيام أي دولة زمنية في هذا العصر، والعصور السابقة، إذا حكمت برضا الناس واختيارهم، وأدت واجبها كدولة صالحة تحفظ الأمن والنظام، وتصون لكل ذي حق حقه، وتحصّن الحدود من الاعتداء، على شريطة أن لا تتعرض للأديان من قريب أو بعيد».

لقد أطلق القرآن في آيات كثيرة منه، اسم: «أهل الكتاب» على اليهود والنصارى، لأنهم أصحاب كتاب سماوي. وشدد في سور عديدة على وجوب الإيفاء «بالعهد» ومراعاته وعدم نقضه من قبل طرفي العهد: المعاهدون والمعاهَدون، أي المسلمون والمشركون، والمسلمون وأهل الكتاب، وبخاصة اليهود، لأن الله يحب الذين يتقون نقض العهد. و«العهد» كناية عن عقد أو ميثاق بين طرفين أو فريقين لا يقوم إلّا برضاهما وإذنهما. وكان كل من طرفي العقد يضع يمينه في يمين الآخر، ويقسم بالله أنّه يتعهد للآخر بالأمان والنصرة وعدم الإيذاء. ويطلق اسم: «أهل العهد» على المعاهدين. فقد جاء في الآية الرابعة والثلاثين من سورة الإسراء: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ وجاء في الآية الواحدة والتسعين من سورة النحل: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾.

وقد جاء عن الرسول ﷺ قوله «من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه، فأنا حجيجه يوم القيامة». وعن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أنّه رأى يوماً وهو في الطريق، شيخاً يهودياً، يتسوّل. فسأله عن سبب ذلك. فأجابه، بأن الحاجة ألجأته إلى

---

(1) دار الهلال، بيروت، ط٥، ١٩٨١، ص٩ - ١٠.

ذلك، فأخذه إلى خازن بيت مال المسلمين، وأمره أن يفرض له ولأمثاله معاشاً ثابتاً يكفيهم سؤال الناس، قائلاً له: أنظر هذا الشيخ وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن نحن أكلنا شبيبته وخذلناه في شيخوخته.

وعلى الرغم من أنه جاء في الآيتين الثامنة والعاشرة من سورة التوبة، أن المشركين لا ذمة لهم، أي لا عهد لهم، فإن الآية السادسة من سورة التوبة، نصت على أن أي مشرك مما يجوز قتله، وليس بينه وبين المسلمين عهد ولا ذمة، إذا استجار بالمسلمين طالباً الأمان منهم، فعليهم أن يجيروه ويعطوه الأمان على نفسه وماله. وعليهم أن يسمعوه كلام الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن لم يستجب لجهالة منه، فلا يحل لهم قتله، بل يجب عليهم أن يوصلوه إلى المكان الذي يأمن فيه على نفسه. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

وقد أطلق الفقهاء المسلمون القدماء اسم: «أهل الذمة» على أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أمضوا عقداً مع المسلمين، سمي: «عقد الذمة»، آثروا فيه البقاء على دينهم والاحتكام إلى شرائعهم، وقبلوا العيش في ظل الدولة الإسلامية والإخلاص لها، والدفاع عنها بوجه أعدائها، والإلتزام بحكم الإسلام في ما لا يخالف دينهم، على أن يكون لهم ذمة الله وذمة رسوله، وذمة جماعة المسلمين، أي عهد الله وعهد رسوله وعهد المسلمين، بوجوب تأمينهم، وحمايتهم، والدفاع عنهم، ومعاملتهم بالعدل والمساواة، كالمسلمين، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

و«عقد الذمة» هذا بين أهل الكتاب والمسلمين، يشبه في عصرنا

الحاضر، ما نسميه: «الجنسية» التي تمنحها الدولة لرعاياها، فيكون لهم حقوق المواطنة وعليهم واجباتها. ومن هذه الحقوق: الحق في تولي وظائف الدولة كالمسلمين، ومنها: «وزارة التنفيذ» التي تعنى بتنفيذ أوامر رئيس الدولة، وإمضاء ما يصدر عنه من أحكام. و«وزارة التفويض» التي تعنى بتدبير الشؤون السياسية والإدارية، والاقتصادية للدولة. وقد تولى «أهل الذمة» هذين المنصبين زمن الأمويين والعباسيين، نذكر منهم: عبدون بن صاعد، نصر بن هارون، عيسى بن نسطور... الخ؛ وفي هذا الصدد، يقول آدم ميتز في كتابه: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، «من الأمور التي نعجب بها كثرة عدد العمال (الولاة وكبار الموظفين) والمتصرفين غير المسلمين في بلاد الإسلام، والشكوى من تحكيم أهل الذمة في أبشارالمسلمين شكوى قديمة...»[1]. وإذا كان ثمة وظائف محدودة جداً لا يجوز إسنادها إلى أهل الذمة، فذلك يعود لغلبة الصبغة الدينية عليها، كرئاسة الدولة، والقضاء بين المسلمين[2]. مع الملاحظة أن شخص الملك في بريطانيا ـ اليوم ـ الذي يعتبر الرئيس الأعلى للكنيسة البروتستانتية البريطانية، لا يمكن أن يكون إلا مسيحياً بروتستانتياً.

وهذا الاسم: «أهل الذمة» أو «الذميون»، لم يرد في القرآن الكريم. وإنما ورد في الآيتين الثامنة والعاشرة من سورة التوبة، كلمة: «ذمة» في معرض الكلام على المشركين. ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

كما أن هذا الاسم: «أهل الذمة»، «الذميون»، لم يرد في وثيقة، أو

(١) ج١، ص١٠٥.
(٢) يرى بعض الفقهاء أن لا نص في الإسلام يمنع المرأة من تولي القضاء.

ميثاق، أو معاهدة: «الصحيفة»، التي نظمت العلاقة بين المسلمين واليهود في «الدولة النبوية» الناشئة في المدينة. فقد نصّت صراحة على أن اليهود في يثرب: يهود بني عوف، وبني النجار، وبني الحارث، وبني ساعدة، وبني جُشم، وبني الأوس، وبني ثعلبة... الخ، ومواليهم المتحالفين معهم، يؤلفون جزءاً من الأمة وعنصراً من عناصرها غير مظلومين ولا متناصر عليهم. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم. بينهم النصر على من حاربهم، وبينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم. على اليهودنفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم أثناء الحرب. ولا يحل لمؤمن آمن بالله واليوم الآخر أن ينصر قاتلاً أو يؤويه. ومن ينصره فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه فداء ولا توبة. وإذا دعا المسلمون اليهود إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه. وإذا دعا اليهود المسلمين إلى مثل ذلك الصلح، فإنه لهم على المؤمنين إلّا من حارب في الدين... الخ.

ويرى الشيخ د. يوسف القرضاوي في كتابه **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي**[1] أنه قد «جرى العرف الإسلامي على تسمية المواطنين من غير المسلمين في المجتمع الإسلامي باسم **أهل الذمة أو الذميين**. **والذمة** كلمة معناها العهد والضمان والأمان، وإنما سموا بذلك لأن لهم عهد الله وعهد رسوله وعهد جماعة المسلمين أن يعيشوا في حماية الإسلام، وفي كنف المجتمع الإسلامي آمنين مطمئنين... فهذه الذمة تعطي أهلها من غير المسلمين ما يشبه في عصرنا الجنسية السياسية، التي تعطيها الدولة لرعاياها، فيكتسبون بذلك حقوق

---

(١) مرجع سابق، ص٧.

المواطنين، ويلتزمون بواجباتهم. فالذمي على هذا الأساس، من **أهل دار الإسلام**، كما يعبر الفقهاء[1]، أو من حاملي **الجنسية الإسلامية**، كما يعبر المعاصرون»[2].

كما يرى الشيخ محمد الغزالي في كتابه **التعصب والتسامح بين المسيحيين والإسلام**[3] أن الإسلام ينظر إلى من عاهدهم من أهل الكتاب: اليهود والنصارى، على أنهم «أصبحوا من **الناحية السياسية والجنسية، مسلمين**، فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، وإن بقوا من الناحية الشخصية على عقائدهم وعباداتهم...».

وقد جاءت كلمة «الجزية» في الآية التاسعة والعشرين من سورة التوبة، حيث دعت إلى مقاتلة الذين لا يؤمنون من أهل الكتاب، إيماناً صحيحاً بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله وأنبياؤه، ولا يدينون بالطاعة لدينهم والوفاء لعهودهم، ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾.

وأهل الكتاب المقصودون في هذه الآية، الذين يجب عليهم أن يلقوا السلاح، ويقبلوا بإعطاء الجزية التي تعبر عن مسالمتهم، والتخلي عن عدائهم للمسلمين، هم يهود الجزيرة العربية: يهود بني النضير،

---

(١) أنظر شرح السير الكبير، للسرخسي ج١، ص١٤٠، والبدائع للكاساني ج٥، ص٢٨١، والمغني لابن قدامة، ج٥، ص٥١٦.

(٢) انظر التشريع الجنائي في الإسلام لعبد القادر عودة، ج١، ف٢٣٢، ص٣٠٧، وأحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، للدكتور عبد الكريم زيدان، ف ٤٩ - ٥١، ص٦٣ - ٦٦.

(٣) ط٣، دار الفكر الحديثة بمصر، ١٩٦٥، ص٤٠.

وقريظة، وقينقاع، والمصطلق، والحقيق، الذين نكثوا عهودهم مع المسلمين، وتآمروا عليهم، وغدروا بهم، وتحالفوا مع أعدائهم المشركين من قريش، وكانوا عيناً وعوناً للروم النصارى في الشام، حيث كانوا يستعدون للانقضاض على الإسلام وأهله.

والأمر الجدير بالذكر، أن هذه الآية تتعلق ببعض أهل الكتاب الذين أعلنوا الحرابة على المسلمين، ونكثوا عهودهم، لأن حرف «من» في قوله تعالى: من الذين أوتوا الكتاب، يفيد التبعيض. وهي آية تتضمن حكماً خاصاً لسبب خاص، حيث يذهب أغلب المفسرين إلى أنها نزلت لتحريض المسلمين على الخروج إلى الروم (غزوة تبوك) الذين كانوا يكيدون للمسلمين ويتآمرون عليهم. وهي غير ناسخة لما قبلها من آيات سورة التوبة، ومنها الآيات الثالثة والرابعة والسادسة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا...﴾. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

وقد جاءت بصيغة العموم وأريد بها الخصوص على غرار الكثير من الآيات القرآنية. وما يدلل على أن مقصود هذه الآية ليس عموم أهل الكتاب، هو أن هؤلاء ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ...﴾ كما جاء في الآية ١١٤ من سورة آل عمران. وقد قال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله، فمن قال ذلك، فقد عصم مني نفسه، وماله وحسابه على الله. والله تعالى يقول في الآية السادسة والأربعين من سورة العنكبوت، والآية الثانية والستين، والآية التسعين ومائة، والآية الرابعة والتسعين ومائة، من سورة البقرة، والآية التاسعة والتسعين بعد المئة من سورة آل عمران: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ

ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾. ﴿...فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾.

كما يقول الله تعالى في الآية الثامنة من سورة الممتحنة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾. كذلك يقول تعالى في الآية السابعة والأربعين من سورة المائدة: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾.

وكلمة «الجزية» الواردة في الآية التاسعة والعشرين من سورة التوبة، تعني الضريبة التي فرضها الله على أي تمرد أو عدوان يصدر عن أي جماعة من الناس، حتى ولو كانت هذه الجماعة مسلمة، وردعها عن غيّها وتمردها. وهي من الجزاء، جزاء الحرابة على المسلمين. وهي لا تدل بمعناها المباشر ولا بأصل اشتقاقها على المهانة أو الاحتقار. وإذا كانت الكلمة المجاورة لها، وهي: «صاغرون» التي تعني: التسليم، وإلقاء السلاح، والامتناع عن الحرب، من شأنها أن تثير الشعور بالمهانة أو الإذلال، فالرد هو أن هذا الجزاء قد رتبه الله على الحرابة التي تصدر عن بعض الناس، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المسلمين، لا فرق في ذلك.

وفي هذا الصدد، يقول الشيخ د. محمد سعيد رمضان البوطي في

كتابه **الجهاد في الإسلام** كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه[1]؟: «وقفة لا بدّ منها عند قوله جلّ جلاله: ﴿...حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، وهي الفقرة الأخيرة من الآية ٢٨ من سورة التوبة. وطالما استشكلها أناس، وفهمها على غير وجهها آخرون. ونقول في الكشف عن هذا الإشكال. إن ما نقرؤه في هذه الآية من الالجاء إلى الجزية ونظامها، بما يسميه البيان الإلهي (صغاراً) جزاء رتبه الله على الحرابة. ومعاذ الله أن يكون مرتباً على كفر أو انتساب إلى كتاب. ومثل هذا الإلجاء بهذا الشكل تترتب شرعيته على أي تمرد أو قصد عدواني **يصدر من أي فئة من الناس،، حتى ولو كانت مسلمة. ألا** ترى أن جيراناً مسلمين لنا، لو خططوا لكيد تآمري ضدنا، مستقلين أو مستعينين بجهة استعمارية ما، فإن الحق والمنطق يقضيان بمقاتلتهم إن اقتضى الأمر، ثم بالجائهم صاغرين إلى الانضباط الحقيقي بموازين العدل وحسن الجوار».

وشتان ما بين نظام الجزية الإسلامي الذي كان معمولاً به منذ أكثر من أربعمائة سنة وألف، والمترتب على من يقوم بأعمال الحرابة ضد المسلمين، وبين نظام الانتداب والوصاية والاستعمار، وفرض العقوبات العسكرية والمالية، الذي تمخض عن الحربين العالميتين الأولى والثانية، في النصف الأول من القرن الماضي، ووضع بلادنا العربية والاسلامية تحت وصاية الاستعمار الغربي: العسكري والسياسي والاقتصادي، لفترة طويلة من الزمن، على الرغم من أنها لم تكن في حرابة مع الغرب، بل كانت حليفة له. ولا حاجة للتذكير بمساعدة المستعمرين الإنكليز للصهاينة اليهود على اغتصاب فلسطين من أهلها الشرعيين في سنة

(١) ط٢، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٧، ص١٣١.

١٩٤٨، وموافقة المجتمع الدولي على هذه الجريمة، وذلك على الرغم من المعارضة الشديدة للكنيسة الكاثوليكية آنذاك، برئاسة الحبر الأعظم البابا بيوس الثاني عشر.

وقد جاء في كتاب المغني لابن قدامة[١] وفي تاريخ الطبري [٢]، أن نصارى بني تغلب طلبوا من الخليفة عمر بن الخطاب أن تؤخذ منهم الجزية باسم آخر، قائلين: خذ منا كما تأخذ من المسلمين. فاستجاب عمر لطلبهم، وأخذها باسم: الصدقة. لأن «العبرة في العقود للمقاصد والمعاني لا للألفاظ والمباني». وقد أمر الخليفة عمر بن الخطاب بأن تكون الجزية على أهل أذربيجان على قدر طاقتهم، فلا يظلموا ولا يرهقوا بتكليفهم ما لا يطيقون. ومن ساعد منهم المسلمين في قتال، رفعت عنه. أي أنه إذا تجنّد أهل الكتاب في صفوف المسلمين للدفاع عن الوطن سقطت الجزية عنهم بهذا التجنيد. ومن رسالة للخليفة الأموي: عمر بن عبد العزيز، الملقب بخامس الخلفاء الراشدين، إلى أحد ولاته: عدي بن أرطأة: «ضع الجزية على من أطاق حملها. وانظر مَنْ مِن أهل الذمة قد كبرت سنّه وضعفت قوته وولّت عنه المكاسب، فاجْرِ عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه». ويذكر البلاذري في كتابه: «فتوح البلدان»[٣]، أن حبيب بن مسلم الفهري، بعدما فتح مدينة أنطاكية التي نقض أهلها العهد مع المسلمين، غزا المناطق الجبلية من بلاد الشام القريبة من أنطاكية، حيث كان يسكنها الجراجمة المسيحيون. فلم يقاتله أهلها، ووقعوا معه في سنة ٩٨هـ اتفاقية صلح أمان، عاهدوه فيها أن

(١) ج٩، ص٣٣٥ ـ ٣٣٦.
(٢) ج٤، ص١٨٩.
(٣) طبعة بيروت، ص٢١٧ ـ ٢٢٠.

يكونوا أعواناً للمسلمين، وعيوناً لهم، على شريطة ألّا يؤخذوا بالجزية، وأن يعطوا نصيبهم من الغنائم. وبالرغم من أن الجراجمة لم يفوا بعهدهم، ونقضوه غير مرة، لم يؤخذوا بالجزية قط. وعندما ألزمهم عامل الشام في عهد الخليفة العباسي، الواثق بالله، بدفع الجزية، رفعوا الأمر إلى الواثق، فأمر بإسقاطها عنهم.

والجدير بالذكر، أنه جاء في كتاب **الإسلام والصراعات الدينية**[1] لمؤلفه حافظ عثمان، أنه بعد انهيار سلطان اليهود في الجزيرة العربية، «خفت بغضاء المسلمين، والأنصار منهم خاصة، لهم، وتغاضوا عن رجوع بعضهم إلى يثرب، ووقف النبي ﷺ مع اليهود الذين بكوا عبد الله بن أبي وعزى إبنه، وأوصى معاذ بن جبل بألا يفتن اليهود عن يهوديتهم، **ولم يفرض الجزية على يهود البحرين** وإن ظلوا متمسكين بدين آبائهم...».

وقصارى القول: إن غاية جميع الأديان واحدة لأنها جميعها من عند الله الواحد، المحب، العدل، الرحيم، الغفور، السلام. وأن العدل، والسلام، إسمان من أسماء الله الحسنى في الإسلام. وقد شاء الله تعالى لخلقه التنوع في الدين، والخِلقة، والثقافة، والحضارة... الخ. ودعاهم في الوقت نفسه إلى التعارف والتعاون والتوادّ والرحمة والعمل الصالح... من أجل إحلال العدالة والسلام فيما بينهم، بدلاً من التنازع والتخاصم والتقاتل. فقد جاء في الآية الثالثة عشرة من سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

---

(١) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص٦٥.

ولأنني كنت، وما زلت، أمقت التعصب في الدين، والظلم في السياسة، وأنفر من الرياء في الدين وغيره، وأحب العدل والسلام لجميع الناس، أينما كان، فقد كتبت بتاريخ ٢٦ تموز ١٩٩٥ في جريدة النهار اللبنانية، مقالة بعنوان: «الحاكم الكافر العادل أفضل عند الله من الحاكم المسلم الظالم»، بيَّنت فيها وجوب توفر صفة العدل في الحاكم المسلم، ووجوب الثورة على الحاكم الظالم المستبد. وأن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة. وأن التاريخ الإنساني يدلل بصورة عامة على أن الدول كانت تصاب بالضعف والانحلال والزوال، عندما كان يدبّ الفساد في أخلاق ناسها، وقبل ذلك في أخلاق سلطانها وحكامها وموظفيها. وأننا في لبنان، نرى العجائب في الإدارات ونسمع الغرائب عن الحكام والوزراء من على شاشات التلفزيونات ومن وراء المذياع. ونعلم علم اليقين بأن الفجور في السياسة، وكذلك الإدارة التي إصلاحها ممنوع، ليس له مثيل ولا نظير في أرض الله كلها. وأن طلاب المناصب من ذوي الموبقات والشهوة إلى السلطة والمال والتحكم برقاب الناس، هم الذين يولون ويكرّمون، وأن عباد الله من الفقراء المسلمين والمسيحيين الأكفياء الأتقياء الشرفاء، هم أبعد ما يكونون عن سياسة الأمور وتدبير الأحوال. وأن دوام الحال على هكذا حال، من المحال. وقد أشرت إلى أن السلطان المغولي: هولاكو الذي اجتاح بغداد في سنة ستمئة وست وخمسين هجرية [الموافق سنة ١٢٥٨م]، وقضى على الخلافة العباسية، دعا العلماء الفقهاء ذات يوم إلى مجلسه في «المستنصرية»، وطرح عليهم السؤال الآتي: أيهما أفضل: «السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر»؟ فأحجموا جميعهم عن الجواب، وارتسمت علامة الدهشة والحيرة على وجوههم. وكان

الفقيه الإمامي: رضي الدين علي بن طاووس، حاضراً هذا المجلس، فخط على ورقة كانت أمامه: السلطان الكافر العادل أفضل عند الله من السلطان المسلم الجائر، لأن السلطان المسلم الجائر، إسلامه لنفسه وجوره للناس جميعاً. والسلطان الكافر العادل، كفره لنفسه وعدله للناس جميعاً. وقرأ ذلك في المجلس. واستحسن جميع الفقهاء الحاضرين ما قاله ابن طاووس، ووافقوا عليه.

وقد جاء في كتاب: «الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية» [1] لمؤلفه: شيخ الإسلام، أحمد بن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨): «والجزاء في الدنيا متفق عليه من أهل الأرض، فإن الناس لم يتنازعوا أن عاقبة الظلم وخيمة وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يروى: «إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة». كما جاء في كتاب: «أم القرى» [2] لمؤلفه: الشيخ عبد الرحمن الكواكبي: «فإهمال الاهتمام بالدين قد جرّ المسلمين إلى ما هم عليه حتى خلت قلوبهم من الدين بالكلية، ولم يبق له عندهم أثر إلّا على رؤوس الألسن، ولا سيما عند بعض الأمراء... الذين ظواهر اعتقادهم وبواطنها تحكم عليهم بأنهم مشركون ولو شركاً خفياً من حيث لا يشعرون. فإذا أضيف إلى شركهم هذا ما هم عليه من الظلم والجور، يحكم عليهم الشرع والعقل بأن ملوك الأجانب أفضل منهم وأولى بحكم المسلمين لأنهم أقرب للعدل ولإقامة المصالح العامة، وأقدر على إعمار البلاد وترقية العباد، وهذه هي حكمة الله في نزع الملك، كما يقتضيه مفهوم: لا يهلك الله القرى، وأهلها مصلحون».

---

(١) مكتبة دار البيان، دمشق، ١٩٦٧، ص٤.
(٢) مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨١م، ص٥٩ ـ ٦٠.

الخاتمة

لا شك في أن أحسن الكلام ما كان قليله يغني عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، لا تطويل فيه ممل، ولا إيجاز مخل، بعيداً من الاستكراه أو الغرابة، ومن كدّ التكلف وعناء التفهم. بَيْدَ أن موضوع الكتاب البالغ الأهمية، حالياً، في عالمنا العربي والاسلامي، يجعلني أعيد التأكيد على أمور سبق ذكرها على امتداد الكتاب، منها:

أولاً: إن الاسلام عند الله تعالى، واحد فقط، لا إسلامان: **أحدهما** سني، والآخر شيعي. فالتسنن ليس ديناً، كما التشيع ليس بدين. نعم، ثمة إسلام واحد، ومذاهب فقهية اجتهادية سنية وشيعية. والاسلام الواحد يشمل جميع هذه المذاهب، لأنه أعم منها كلها، وهي أخص منه جميعها، لأنها كلها تؤمن إيماناً تاماً: برب واحد، ونبي واحد، وقرآن واحد، وسنة واحدة.

ثانياً: إن أحكام الإسلام كما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية، هي أحكام واقعية ثابتة عند الله، لا تختلف باختلاف العلم أو الجهل بها. أما المذهب فهو كناية عن فهم صاحبه الفقهي للإسلام أو لبعض أحكامه. فإذا كان رأيه مماثلاً لحكم الله تعالى كان صواباً، وإلّا كان خطأ يعذر عليه، إذا كان قد أفرغ وسعه في البحث لمعرفة الدليل على رأيه؛ وعليه أن يعدل عن رأيه متى تبين له خطأه.

ثالثاً: إن أي مذهب من المذاهب: سنية كانت أم شيعية، لا يجوز له أن ينكر المذهب الآخر أو ينفي الصفة الفقهية الاجتهادية الدينية عنه. والملاحظ أن كل مذهب من هذه المذاهب ينفرد برأي لا يقره أي من المذاهب الأخرى. فالمذهب الجعفري الشيعي يرى أن البنت ترث كل التركة مع عدم وجود الولد الذكر. والإمام أبو حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي، يرى أن الصلاة تصح بغير قراءة الفاتحة. والإمام مالك صاحب المذهب المالكي، يرى أن المرأة الحامل إذا بلغ حملها ستة أشهر فلا يجوز لها التصرف فيما زاد عن الثلث من مالها. والإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلي، يرى أن من تزوج امرأة وشرط لها في عقد الزواج ألا يتزوج عليها يلزمه الوفاء بالشرط. والإمام الشافعي صاحب المذهب الشافعي، يرى بأن شرط الخيار لا يصح في الإجارة. فكل رأي من هذه الآراء تخالفه الآراء الأربعة الأخرى، وبالرغم من ذلك، لا يجوز لأحد أن يدعي بأنها غير صحيحة، لأنها كلها اجتهادات مستندة إلى الإسلام: قرآناً وسنة. ولذا، فإن التعصب لمذهب دون آخر هو تعصب لصاحب المذهب بالذات، لا تعصب للاسلام ودين الله، والمغالاة في ذلك لا تجوز على الإطلاق[1]. والاختلاف بين المسلمين في بعض الأصول غير الأساسية، كالإمامة، وفي بعض الفروع، هو اختلاف فقهي موجود في المذهب الإسلامي الواحد. وهو أمر طبيعي لاختلاف العقول في فهم النصوص وطرق الاستنباط، وهو لا يضير الدين في شيء، ولا يوجب

(١) محمد جواد مغنية، الإسلام مع الحياة، مرجع سابق، ص٤٩ ـ ٥١. و: عبد القادر محمود، الإمام جعفر الصادق، مرجع سابق، ص٨٩ ـ ٩٣.

تكفيراً عند جميع أصحاب المذاهب الفقهية، والعلماء الفقهاء: قديماً وحديثاً.

ولعل ظاهرة التكفير المقيتة المستجدة بين المسلمين في بلادنا العربية والاسلامية، وبصرف النظر عن مدى حجمها، وخطورتها، ونتائجها الكارثية البغيضة، هي نتيجة طبيعية لهذا التعصب لمذهب دون آخر، وهذه المغالاة في التدين المذهبي. وعلى القيادات الدينية بعامة، والحكومية بخاصة، في مختلف البلاد العربية والاسلامية، واجب التصدي لهذه الظاهرة بكل الوسائل الناجعة الكفيلة بالقضاء عليها. وقد نصت الآية ١٥٩ من سورة الأنعام في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

وعن النبي ﷺ: - «إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين».

- «هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون».

- «من تعصب فقد خلع ربقة الايمان من عنقه».

والإمام علي بن أبي طالب لم يكفر أحداً من المسلمين. وحتى الذين حاربوه في «الجمل وصفين» لم يكفرهم. كما لم يكفر الخوارج الذين كفروه وحاربوه.

والإمام جعفر الصادق (٨٠، ٨٣هـ - ١٤٨هـ)، كما يقول عبد القادر محمود في كتابه: **«الإمام جعفر الصادق رائد السنة والشيعة»**: «كإمام شيعي، وفقيه سني أكثر سنية من أهل السنة أحياناً، وكفقيه رائد للشيعة

والسنة معاً... يتفق مع عمه الإمام زيد بن علي في عدم تكفير أحد من الصحابة... ولا يكفر أبا بكر بالذات...»[1].

والإمامان: **أبو حنيفة النعمان، ومحمد بن إدريس الشافعي**، لم يكفرا أحداً من أهل القِبلة. والإمام **مالك** بن أنس ـ الذي رفض رغبة الخليفة هارون الرشيد في أن يحمل الناس جميعاً على الأخذ بمذهبه، قائلاً له: «يا أمير المؤمنين: اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة. كل يتبع ما صح عنده، وكل على هدى وكل يريد الله تعالىٰ» ـ، كان يرى أن من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً، ويحتمل الإيمان من وجه، حمل على الإيمان. والإمام **أحمد بن حنبل** لم يكفر أحداً إلّا من جحد في الأصل فرائض الإسلام، أما من تركها تهاوناً وكسلاً، فإنه في مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه[2].

وشيخ الأشاعرة **أبو الحسن الأشعري** كان يصوب رأي جميع المجتهدين في الفروع، ولم يكفر أحداً من المسلمين، لأن الإسلام يجمعهم كلهم. والإمام الغزالي الأشعري الشافعي يقول في كتابه**فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**:«وكيف ما كان، فلا ينبغي أن يكفر فريق من المسلمين غيره، ويجب على الفرق الاسلامية الابتعاد عن الغلو والإسراف في تكفير بعضها بعضاً». ولذا، فهو «لم يكفر أحداً من أهل القبلة»، ولم يكفر «الخوارج والمعتزلة والرافضة، معتبراً أنهم في محل الاجتهاد... وأن الخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون عند الله من

---

(١) الإمام جعفر الصادق رائد السنة والشيعة، مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، ١٩٧٠، ص: و من المقدمة، و: ص١٢٩ ـ ١٣٠.

(٢) عبد الحليم الجندي، أحمد بن حنبل إمام أهل السنة، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٨٥، ص٣٦٥.

الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم... والحجّة في مواجهة كلّ مكفِّر مقابلة دعواه بدعوى خصومه من التكفيريين، وسؤاله من أين ثبت له أن الحق وقفٌ عليه حتى قضى بكفر من يخالفه الرأي». وشيخ الإسلام، أحمد بن تيمية يقول ـ كما جاء في الجزء الخامس من مجموعة الرسائل والمسائل ـ: «لا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله، ولا بخطأ أخطأ فيه، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة... والخوارج المارقون الذين أمر النبيﷺ بقتالهم، قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب... ولم يكفرهم... ولم يقاتلهم حتى سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على أموال المسلمين... لدفع ظلمهم وبغيهم لا لأنهم كفار. ولهذا لم يسب حريمهم ولم يغنم أموالهم».

والسيد جمال الدين الأفغاني دعا المسلمين على اختلاف مذاهبهم للعودة إلى ينابيع العقيدة الاسلامية: القرآن والسنة، وترك كل ما يخالفهما من آراء هي نتيجة لظروف تاريخية واجتماعية. وعلى «العلماء الراسخين وهم روح الأمة» أن يسارعوا إلى جمع كلمة المسلمين ورفض كل بدعة لا تنطبق على نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية. والشيخ عبد الرحمن الكواكبي رأى أن كل فرقة من المسلمين تعتقد أنها وحدها هي أهل السنة والجماعة، وأنها الفرقة الناجية، وأن سواها مبتدعة أو زائغة. والواجب يفرض على علماء الأمة المجتهدين أن يقاوموا التعصب لمذهب دون آخر، فيكون عملهم جامعاً لوحدة الكلمة.

والشيخ محمود شلتوت يقول في مقدمته لكتاب مجمع البيان في تفسير القرآن للعالم الإمامي أبي علي الطبرسي: «إن المسلمين ليسوا أرباب أديان مختلفة، إنما هم أرباب دين واحد، وكتاب واحد، وأصول واحدة، فإذا اختلفوا فإنما هو اختلاف الرأي مع الرأي، والرواية مع

الرواية، والمنهج مع المنهج، وكلهم طلاب الحقيقة المستمدة من كتاب الله وسنة رسول الله، والحكمة ضالتهم جميعاً...». وعندما تولى مشيخة الأزهر الشريف سنة ١٩٥٨، جعل تدريس المذهب الفقهي الجعفري ضمن منهج الفقه المقارن في كلية الشريعة بجامعة الأزهر، وأصدر فتواه المشهورة بجواز التعبد بهذا المذهب على غرار المذاهب الفقهية الأربعة المعرفة.

والشيخ الدكتور **محمد سيد طنطاوي** شيخ الجامع الأزهر الأسبق، قال في ندوة أقامتها دار التقريب بين المذاهب الاسلامية في حزيران ٢٠٠١ بالقاهرة: «إن الخلاف بين المذاهب ليس على ركن من أركان الدين ولا على أصل من أصوله، ولكنه خلاف في اجتهادات حول الفروع، ولكل إنسان الحق في أن يكون له رأي فيها.... والخلاف بالأمور الاجتهادية مشروع ومقبول ويحقق المصلحة». والشيخ الدكتور **يوسف القرضاوي** رئيس الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين يرى أن التكفير أشد خطراً على المسلمين من كل ما عداه. فالحكم بالكفر على من يقول: «لا إله إلا الله، خطيئة دينية، وخطيئة علمية، وخطيئة سياسية، والسنة النبوية تحذر أبلغ التحذير من اتهام مسلم بالكفر في أحاديث صحيحة مستفيضة...».

والشيخ الإمامي الشيعي، **محمد جواد مغنية** يقول: «إن الشريعة الاسلامية لها أصول مقررة لا يختلف عليها مسلمان مهما كان مذهبهما، وإنما الخلاف والجدال بين المذاهب حصل فيما يتفرع عن تلك الأصول... ونصوص القرآن والسنة النبوية تنكر التعصب وتعده من كبار السيئات... إن السنة والشيعة طائفة واحدة حقيقة وواقعاً، لأن كتابهم واحد، وهو القرآن، لا قرآنان، ونبيهم واحد، وهو محمد، لا محمدان،

فكيف إذن يكفر بعض من الفريقين المسلمين إخوانهم في الدين؟...»[1].

والإمام الخامنائي، الولي الفقيه للجمهورية الاسلامية الإيرانية ـ وعلى غرار كل المراجع الدينية الشيعية في النجف الأشرف، قديماً وحديثاً، «يحرم النيل من رموز ومقدسات المسلمين السنة، ومن التعرض لزوجات النبي ﷺ أمهات المسلمين، وبخاصة للسيدة عائشة، ومن يفعل ذلك، يرتكب معصية كبيرة وحراماً».

رابعاً: إن الاسلام رسالة الله تعالى الأخيرة إلى الناس كافة. جاء ليكمل إرادة الله في استكمال هداية الإنسان إلى ما فيه خيره وكماله، وليس لنقض الشرائع التي سبقته، ولا نفيها، ولا لإرغام أهلها على ترك دينهم، واعتناقه. وقد جاء في الآيتين ٢٥٦ و٢٨٥ من سورة البقرة، والآية ٤٨ من سورة المائدة، والآية ١٥٢ من سورة النساء، والآية ٩٩ من سورة يونس، والآية ١١٨ من سورة هود، أنه لا إكراه في الدين؛ وأن الرسول والمؤمنين به، يؤمنون بالله وملائكته، وكتبه ورسله؛ وأن الله تعالى لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة، ولآمن من في الأرض كلهم جميعاً.

وقد نصت الآية ٦٢ من سورة البقرة على أن المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحاً، فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. كما نصت الآية ١٧ من سورة الحج على أن الله تعالى هو الذي يفصل يوم القيامة بين المسلمين واليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين، لأنه هو وحده العالم بأحوالهم وأعمالهم.

والأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب

---

(١) دعوة التقريب بن المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص١٠٥، ١١٢، ١١٨.

والمشركين، هو: «السلم». فإذا اعتدي على المسلمين ـ كما جاء في الآيتين ١٩٠ و١٩٤ من سورة البقرة، والآية ١٢٦ من سورة النحل ـ فإن عليهم مواجهة العدوان بواقعية، ورد الاعتداء بمثل ما اعتدي عليهم، أي ردهم على أذى أعدائهم بالقدر نفسه الذي نالهم من أذاهم. بيْد أن الله تعالى يعدهم بالخير والثواب في الآخرة إن هم صبروا على أذى أعدائهم، ولم يبادلوهم بالمثل.

وقد نصت الآيتان ٦١ ـ ٦٢ من سورة الأنفال على أن يجنح النبي والمسلمون للسلم إن جنح المشركون المعتدون للسلم، حتى ولو كانوا في ذلك مخادعين.﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾. كما نصت الآية ٨ من سورة الممتحنة على أن الله تعالى لا ينهى المسلمين عن صلة ونصرة غيرهم، والاقساط إليهم، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين، الذين لم يقاتلوهم، ولم يخرجوهم من ديارهم...

واتهام المستشرق الصهيوني الأمريكي المعاصر، برنارد لويس، الاسلام: بأنه دين يفرض الحرب على كل من هو غير مسلم، حتى يدخل في الإسلام، أو يخضع له ويدفع الجزية وهو صاغر، استناداً إلى الآية ٢٩ من سورة التوبة: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، هو اتهام ظالم وباطل. فهذه الآية نزلت في السنة التاسعة للهجرة، والنبي يستعد لمواجهة حشود الروم في تبوك ومن حالفهم من أهل الكتاب من نصارى دمشق، واليهود الذين أجلاهم النبي من المدينة واستقروا في منطقة أزرعات على حدود

الشام. وإذن، فهذه الآية تتعلق بالروم الاعداء، وببعض أهل الكتاب، وبخاصة اليهود منهم، الذين تآمروا على المسلمين، وتحالفوا مع أعدائهم الذين كانوا يستعدون للانقضاض على دولة المسلمين بالمدينة، لأن حرف «من» في الآية المذكورة يفيد التبعيض، وهي آية تتضمن حكماً خاصاً لسبب خاص. وقد جاءت بصيغة العموم وأريد بها الخصوص على غرار الكثير من الآيات القرآنية. وما يدلل على أن مقصود هذه الآية ليس عموم أهل الكتاب وإنما بعضهم فقط، هو قول الله تعالى في الآيات ١١٣ ـ ١١٤، ١٩٩ من سورة آل عمران: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾.

وكلمة الجزية الواردة في الآية، تعني الجزاء. جزاء الحرابة التي يقوم بها بعض أهل الكتاب ضد المسلمين، وليس لكونهم كفاراً أو غير مسلمين. وهذه الجزية التي فرضت في الماضي على بعض أهل الكتاب، وبخاصة اليهود منهم، لا وجود لها اليوم في البلا د العربية والاسلامية. وقد فسرها الفقهاء المسلمون بأنها كانت في الحقيقة بدلاً مالياً من قبل أهل الكتاب، مقابل إعفائهم من فريضة الجهاد ونفقاته [الجندية] الواجبة على المسلمين، من أجل حماية الدولة الاسلامية، ولقاء عضويتهم الكاملة في المجتمع الإسلامي على قدم المساواة مع المسلمين. وهي تسقط عن أهل الكتاب كافة إذا رضوا بالقتال مع المسلمين دفاعاً عن أنفسهم وأموالهم.وعن الدولة الاسلامية [أي الوطن]. وفي هذا الصدد

يقول الشيخ **محمد رشيد رضا** في الجزء العاشر من **تفسير المنار**: «إنه لم يكن يحق للمسلمين أن يجبروا أهل الذمة على القتال إلى جانبهم في حال من الأحوال. بل الأمر بيدهم، إن رضوا بالقتال عن أنفسهم وأموالهم عُفوا من الجزية. وإن أبوا أن يخاطروا بالنفس فلا أقل من أن يسامحوا بشيء من المال، وهي الجزية». كما يقول الشيخ الدكتور **يوسف القرضاوي** في كتابه **غير المسلمين في المجتمع الاسلامي**(١): «لم تقرر جزية الرؤوس على النصارى الاغريق الذين أشرفوا على القناطر التي أمدت القسطنطينية بماء الشرب، ولا على الذين كانوا في حراسة مستودعات البارود في تلك المدينة، نظراً إلى ما قدموا للدولة من خدمات. ومن جهة أخرى أعفي الفلاحون المصريون من الخدمة العسكرية، على الرغم من أنهم كانوا على الاسلام، وفرضت عليهم الجزية في نظير ذلك...».

وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة والملاحظة، إلى أنه بتاريخ نهار الجمعة الواقع في ٢٨/ ١٢/ ٢٠١٢، خطب الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في جموع آلاف المصلّين في الجامع الأزهر الشريف، قائلاً: إنّ المصريين: العلمانيين، والليبراليين، والمسيحيين، والمسلمين، كلهم: **متديّنون، وإخوة في المواطنة**. وقد ساهموا جميعهم جنباً إلى جنب، في انتصار الثورة المصرية على النظام البائد؛ داعياً إيّاهم إلى المحافظة على الوحدة الوطنية من أجل بناء مصر الجديدة. وقد لقي خطابه تقديراً كبيراً واستحساناً عند جميع المصريين، وبخاصة لدى وسائل الإعلام المصرية الليبرالية التي أشادت كثيراً بمضمونه، قائلة: إنه يمثل «**نقلة نوعية**» في بعض آرائه.

---

(١) مرجع سابق، ص٥٨ [نقلاً عن توماس سميث...].

صدر للمؤلف

١ ـ الخطاب الغربي المعاصر تجاه الإسلام والمسلمين، ط بيروت، دار الهادي، ٢٠٠٩م.

٢ ـ فلسفة ديكارت ومنهجه ـ دراسة تحليلية ونقدية ـ ط٤، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٦م.

٣ ـ الإسلام والحضارة ـ أضواء على مظاهر التخلف في العالم العربي وعوامل تقدمه ـ بيروت، دار الهادي، ٢٠٠٤م.

٤ ـ العقل والشريعة ـ مباحث في الإبستمولوجيا العربية الإسلامية ـ، ط٢، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٣م.

٥ ـ أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، ط٣، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٣م.

٦ ـ وهم الحب والعمر، بيروت، دار البراق، ٢٠٠٣م.

٧ ـ الشمسية في القواعد المنطقية ـ تقديم ـ تحليل ـ تعليق ـ تحقيق ـ، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م.

٨ ـ بدايات التفلسف الإنساني ـ الفلسفة ظهرت في الشرق ـ، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٤م (نافد).

٩ ـ مدخل إلى علم المنطق ـ المنطق التقليدي ـ، ط٤، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٤م (نافد).

١٠ ـ الاجتهاد والمنطق الفقهي في الإسلام، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٧م.

١١ ـ الشورى ـ طبيعة الحاكمية في الإسلام ـ، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٤م (نافد).

١٢ ـ من أعلام الفكر الفلسفي الإسلامي، بيروت، الدار العالمية، ١٩٨٢م (نافذ).

١٣ ـ آراء نقدية في مشكلات الدين والفلسفة والمنطق، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨١ (نافذ).

١٤ ـ من وحي الحسين ـ إلتزام وثورة ـ، بيروت، مؤسسة الكتاب، ١٩٨١، (نافذ).

١٥ ـ فكر سيد قطب الديني والسياسي، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٩م (نافذ).

الفهرس

الفصل الأول

العقل والايمان عند العلماء المسلمين والفلاسفة

الفصل الثاني

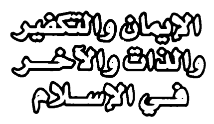
الايمان والتكفير عند الكلاميين والفقهاء المسلمين قديماً وحديثاً

الفصل الثالث

الأصولية الاسلامية ـ معناها ومبادئها

الفصل الرابع

الذات والآخر في الاسلام وفي التاريخ الثقافي الغربي



يتناول بضع مواضيع حيوية شائكة في الفكر العربي الإسلامي: قديماً وحديثاً، في ضوء العقل والشريعة. وهو يؤكد على علية الرابطة بين العقل والإيمان، وأن الشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل. وأن الدين عند الله، الرحيم، العفوّ، الغفور، الذي كتب على نفسه الرحمة بعباده، واحد، وإن تعددت شرائعه بحسب التنزيل، وتنوعت مذاهبه الفقهية الاجتهادية، بعيداً جداً عن كل ألوان التعصب والمغالاة والتكفير.

وأول هذه المواضيع: العقل والإيمان عند العلماء المسلمين والفلاسفة.

والثاني الإيمان والتكفير عند الكلاميين والفقهاء المسلمين.

والثالث الأصولية الإسلامية: معناها ومبادئها.

والرابع الذات والآخر في الإسلام وفي التاريخ الثقافي الغربي (دراسة مقارنة).

